

د. زينب عبد العزيز

لعبة الفن الحديث



مكتبة الأنجلو المصرية

لعبة الفن الحديث

بين الصهيونية - الماسونية وأمريكا

لعبة الفن الحديث

بين الصهيونية - الماسونية وأمريكا

دكتورة زينب عبدالعزیز

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

أسم الكتاب: لعبة الفن الحديث
بين الصهيونية - الماسونية وأمريكا
أسم المؤلف: د/ زينب عبد العزيز
أسم الناشر: مكتبة الانجلو المصرية
أسم الطابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقم الايداع: 16460 لسنة 2002
الترقيم الدولي: I-S-B-N 977-05-1934-0

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

صدق الله العظيم

فصلت / ٣٣

إهداء

إلي من كان له عليّ فضل النشأة والتكوين ،
إلي من علمني بأمانة لا أنساها ...
إلي أستاذي الفنان لطفي الطنبولي .

تمهيد

أمن ضرورة لهذا البحث ؟!

تعد المؤلفات الخاصة بالفن الحديث بالآلاف . وسواء أكانت هذه النصوص مكتوبة بأقلام النقاد أم بأقلام الأدباء والفنانين ، فإنها تمثل كماً ضخماً يجعل من العبث محاولة إضافة صفحات جديدة .

إلا أن الفن الحديث منذ بداية انتشاره يتخذ شكل ظاهرة لافتة للنظر ؛ ظاهرة واسعة المدى ، لم تعتر شتى المجالات الإبداعية الفنية فحسب ، وإنما أطاحت بكل القيم المستتبة ، مما ترك آثاره الواضحة على الحضارة الإنسانية في إجمالها . أما في مجال فن التصوير ، فقد كان التغيير أكثر عنفاً ، بمعنى أن المذاهب الحديثة قد أساءت استغلاله كحقل لا نهائي للتجارب التقنية . كما أن الفنانين قد تمادوا في استخدام الحد المألوف لتلاص السخف والابتذال المهين - كما سوف نرى فيما بعد - فاتحين بذلك باب العشوائية إلى حد العته .

ومن جهة أخرى ، فإن المؤلفات التي تتناول الفن الحديث ، والتي يمكن تقسيمها إلى جزأين إجماليين من الآراء المؤيدة أو المعارضة ، تحتوى على معطيات متناثرة وعلى اتهامات أبعد ما تكون عن المجال الفني أو الجمالي ؛ لاستخدامها ألفاظاً تبدو غريبة أو دخيلة على هذا الموضوع ؛ إذ إن تكرار كلمات مثل : البورصة ، والاستثمار ، والفن التشكيلي كقيمة متزايدة ، تستوقف القارئ في مثل هذا المجال الفني . فما الحال حينما تتسع دائرة هذه المفردات لتحتوى على كلمات مثل : الاحتكار ، العنصرية اليهودية ، الماسونية ، التدمير المتعمد للحضارات ؟! لاشك أنها تثير القدر نفسه من علامات الاستفهام .

والربط بين هذه المعطيات المتنوعة والبعيدة كل البعد عن الفن يبرر الإقدام على مثل هذا البحث . خاصة وهناك إحجام نحسه إذ لا نرى سوى الشذرات هنا وهناك ، وقلما وجدنا من يقدم على تناول هذه الجزئية أو تلك ، وفي كل الأحوال

لا توجد دراسة واحدة تلم شمل هذه الظواهر المتعددة برمتها ؛ مما يفسر تعدد المجالات المطروحة في هذا البحث من جهة ، بقدر ما يفسر كثرة الاستشهادات التي سنستعين بها من جهة أخرى .

ومع ذلك ، فإن هذا البحث لا يزعم مطلقاً أنه قد أوفى الموضوع حقه ؛ فهو ليس محاولة لفهم وتفسير ظاهرة من أغرب وأخطر الظواهر التي اعترت هذا العصر ، مجرد محاولة لا تمثل - في حقيقة الأمر - سوى دعوة لمزيد من الأبحاث الأكثر عمقاً والأكثر شمولاً .

نظراً لتعدد المدارس والمذاهب والتيارات التي انبثقت وتفرعت وتشابكت في التواءات لا نهاية لها منذ مطلع هذا القرن ، فإن مصطلح «الفن التجريدي» غير كاف للتعبير عنها ؛ لذلك آثرنا تعبير «الفن الحديث» الذي لم نستخدمه إلا لشموليته أكثر من غيره .

وتتلخص أطروحة هذا البحث في الكشف عن «لعبة الفن الحديث» كأداة تدمير للحضارة والتراث ، تحركها المصالح الصهيونية الماسونية . ويتكون من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة .

يتناول الفصل الأول «نظرة تاريخية» للفن الحديث كأداة تدمير متعمدة وظاهرة انتشاره ، ثم عملية «تجديره» أي تحويله إلى سلعة تجارية ؛ ثم دوره في أهم البلدان وأهم مذاهبه .

ويتناول الفصل الثاني «جهاز الغش» ، أي مختلف العناصر المستخدمة في هذه اللعبة التدميرية بدءاً بالفنان مروراً بجامعي التحف والتجار والبورصة والمستثمرين والاحتكار ، وصولاً للمافيا الصهيونية الماسونية أو الأيدي الخفية للعبة والإعلام ووسائل الاتصال بعامه . ثم نعرض لقضية جورج جازافا ، أساذ القانون والفنان ، أول من أقام دعوى قانونية ضد إحتيال الفن الحديث ومحتكره . ثم محاولات البحث عن جذور لهذا الفن الذي لم يتورع عن إستخدام الكنيسة .

أما الفصل الثالث «التدمير بالمطرقة» فيتناول أساليب التدمير التي حاولت أن تتلف بالفلسفة وبخاصة عند نيتشه . ثم اليهودية الماسونية في ألمانيا الهتلرية

_____ لعبة الفن الحديث بين الصهيونية - الماسونية وأمريكا _____

وفرنسا ؛ والمافيا اليهودية الماسونية ودور أمريكا ومؤسساتها كمعقل لليهود ومحرك
للعبة الفن الحديث .

وأخيراً ، هذه وثيقتى لك أيها القارئ ولتاريخ الفن لنعرف ونكشف ونحاول
أن نلقى الضوء على هذه اللعبة وصناعاتها ؛ إنقاذاً لقيمة الجمال والحضارة وإيقاظاً
لوعى لا يغيب .

زينب عبد العزيز

مقدمة الطبعة الثانية

لقد كتبت هذا النص بالفرنسية عام ١٩٨٤ كواحد من الأبحاث العلمية الخمس التي حصلت بها على درجة «أستاذ» في الحضارة وتاريخ الفن من قسم فرنسي بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر .. ثم رأيت أنه من واجبي كواحدة من العاملين في مجال الثقافة والفن ، أن أترجمه إلى اللغة العربية - وهو ما قمت به في نفس ذلك العام - لأهمية القضايا المتضاربة التي تمثل خلفيات لعبة الفن الحديث بين الصهيونية-الماسونية وأمريكا ، كنوع من دق ناقوس الخطر ولفت الأنظار إلى ماترmy إليه هذه العبثيات التي تفرض على المجتمع الدولي بالحاح غريب ، وكتوضيح للرسالة التدميرية التي تحملها في طياتها ، عل الأجيال التي انسأقت في لعبتها تدرك حقيقة أبعادها ، وكتحذير للأجيال الصاعدة عأها تقوى على الرفض والصمود وعلى التمسك بالجذور .. فالعلم أمانة، وجزء من هذه الأمانة تبليغ الرسالة ...

وقد ظهرت الطبعة الأولى عام ١٩٩٠ ، بعد محاولات متعددة لنشر هذا البحث . واليوم ، تقوم مكتبة الأنجلو مشكورة بإصدار الطبعة الثانية لهذا الكتاب الذي اعتبره أحد النقاد عند صدوره سنة ١٩٩٠ ، أنه أهم كتاب صدر في المكتبة العربية في الخمسين سنة الماضية .. وفيما بين تاريخي إصداره ، ١٩٩٠ و٢٠٠٢ ، توالى الأحداث ...

توالى الأحداث السياسية والاقتصادية والعسكرية والفنية الفكرية الإنحلالية بما يؤكد كل ما ورد من حقائق وقضايا مطروحة في هذا البحث ، وأهمها أن الفن الحديث، بكل عبثياته المعاشة ، يمثل أداة تدمير متعمدة لاقتلاع الحضارة والتراث والثقافة الخاصة بكل بلد، كجزء لا يتجزأ من مخطط العولمة وعملية فرض النمط الواحد والتبعية الإجبارية وكل ماتحركه المصالح الصهيونية-الماسونية والدور العأشم الذي تقوم به السياسة الأمريكية ومؤسساتها في محاولتها المستميتة لا لتجوير الفن فحسب، وإنما لتجوير العالم برمته وإخضاعه لسيطرتها العمياء الأنانية ولأنماطها الممسوخة المأجنة ..

وإن اتخذنا مجال الفن الحديث كحقل للتجارب التقنية والتمادى فى استخدام المواد التى تخطت مستوى السخف والابتذال المهين ، بل والذى وصل فى قحته ولا إنسانيته إلى حد الاستعانة بالمراحيض ومايمت بها من إفراغ ، أو إلى نبش القبور وهتك حرمة الموتى بعرض أجزاء من جثثها كأعمال «فنية إبداعية» تحصد الجوائز ، فذلك لا يعنى أن كل هذا الابتذال وتلك العشوائيات قاصرة على المجال الفنى وحده ، وإنما هى قد امتدت إلى كافة المجالات الفنية والثقافية والفكرية الأخرى فى محاولة محمومة لفرضها .. وذلك ماراحت تؤكده أيضا الكاتبة الإنجليزية فرانسيس ستونر سوندرز فى كتابها الذى صدر عام ٢٠٠٠ بعنوان «الحرب الباردة الثقافية» ، الذى ظهرت ترجمته بالعربية هذا العام (٢٠٠٢) ضمن مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة فى مجال الترجمة .

ولا أجد ما يضاف إلى هذا البحث فى طبعته الثانية سوى التأكيد والتكرار على ضرورة فهم وإدراك ما يحاك لنا وللعالم أجمع ، وضرورة التصدى لهذا التيار الكاسح الذى لم يعد بحاجة إلى دليل على ما يفرضه من ضياع ، وضرورة الحفاظ على هويتنا وعلى أصولنا الأخلاقية والحضارية والفنية المتميزة ، الممتدة عبر التاريخ .. فقد خرج مشعل الحضارة إلى العالم من هنا ، من مصر الأصيلة العراقية ، وعار علينا أن نتحول إلى مجرد أتباع .. أتباع منصاعون بكل مهانة لما يفرض عليهم ، ولو بكل المغريات أو الضغوط ..

د . زينب عبدالعزيز

٢٠٠٢/٧

مقدمة

رغم هذا الكم الهائل من المؤلفات حول الفن الحديث ، فلم يكن الناقد الفنى جان كلير Jean Clair مغالياً حينما قال عام 1983 : «إن قصة تاريخ الفن الحديث لم تكتب بعد» (٢٦)(*) وما أكثر عدد النقاد الذين عبّروا عن هذه الملاحظة نفسها ، نذكر منهم على سبيل المثال ، جان لود Jean Laude ، إذ كتب قبل ذلك بعامين قائلاً : «إن تاريخ وماقبل تاريخ التجريديات لم يكتب بعد . إنها من أغرب القصص وأكثرها نفعا . ومن الغريب أنها لم تكتب بعد بشكل حاسم دقيق» . (٢٦) .

ولاشك فى أنها قصة من أغرب القصص وأكثرها نفعا ، فلا يمكن لأحد أن يتصور ذلك الكم الهائل من التحايل والألاعيب المختبئة بمهارة خلف ذلك المظهر الدعائى البراق للفن الحديث .

إن تنوع وتعدد الظواهر التى تزاحمت خلال ثلاثة أرباع القرن العشرين تبدو وكأنها تضع حائلاً أمام أى محاولة لاستكشاف الوحدة التى تلم شمل هذه الظواهر ؛ لذلك تبدو محاولة الربط بين هذا التدفق الغريب من النظريات والمدارس والمذاهب والحركات الفنية شبه مستحيلة حقاً . إلا أن المعنى الذى يكمن خلفها يحتم ضرورة محاولة المزيد من الفهم ..

ولما كانت الدراسة الحاسمة الدقيقة لهذه التجريديات لم تكتب بعد ، فإن هذا البحث لا يتناولها كمجرد كتابة لتاريخ الفن الحديث ، وإنما يتناولها باعتبارها «ظاهرة» بالنسبة للحضارة الإنسانية وللمجتمع المعاصر ؛ ذلك لأن تطوره اتخذ بالفعل شكل ظاهرة تضافر فيها عديد من التيارات الفكرية والاجتماعية ، ظاهرة شديدة الارتباط بالقطبين الأساسيين المحركين للمجتمع ككل ، وهما : الاقتصاد والسياسة .

(*) الأرقام تشير إلى رقم المرجع في كشف المراجع ص ١٣

ودون الدخول فى استطراد لضرورة له ، فمن المسلم به - فى يومنا هذا - أن الاقتصاد والسياسة يسيطران على الاتجاهات الأيديولوجية للمجتمع . إلا أن فعليتهما وتواجههما قد يحتلان مكانة مستقرة أو تالية بالنسبة لعوامل أخرى تحتل الصدارة أحياناً ؛ مما قد يعرقل المبررات المباشرة أو الواضحة لظواهر بعينها .

وهكذا يمكننا أن نرى بوضوح كيف أن تداخل العوامل الاقتصادية ودور رأس المال مع العوامل الفنية قد أصبح من المعطيات المسلم بها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإن كانت مستقرة بعض الشيء فى بلدان أخرى مثل فرنسا . وهامى الدراسات الخاصة بسوق الفن الحديث تثبت الكيان الاقتصادى لهذا الفن بشكل قاطع ، فما أكثر العناصر التى تؤكد هذه الحقيقة من قبيل التعامل مع اللوحات كوسيلة استثمار ، أو كقيمة بعينها للمضاربة فى البورصة ، أو كقيمة إيداع بلغة البنوك والتعاملات المالية ، أو حتى كأعمال دعائية ... إلخ .

وهذه الصلة الاقتصادية ليست وليدة اليوم ، إلا أنها لم تتسع أبداً بهذا الشكل ، ولم تتخذ أبداً هذه الحدة مثلما حدث فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فى تلك الفترة التى تعدى فيها تداخل الفن والمال ليخرج من دائرة الفنانين والتجار ، ليتوغل فى كيان المجتمع ، ويمس قطاعات كبيرة من الجماهير . وهنا يتخذ تعبير ريموند مولان Raymonde Moulin كل أبعاده : «حينما تسوء أحوال البورصة ، تسوء الأحوال الفنية . إنها حقيقة يقرها تجار الفن ومقتنو اللوحات» (٩١) .

لذلك فإن كلمة «لعبة» المستخدمة فى هذا البحث منذ عنوانه ليست كلمة جرافية تلقى على عواهنها ، وإنما تم اختيارها بكل ماتحمله الكلمة من معانٍ متعددة ؛ إذ إنها تكشف ذلك التداخل المرتب مسبقاً لمحركى الفن الحديث ، بقدر ماتعبر عن التلاعب بالطموحات الإنسانية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى تحركها تلك الأيدى المريبة ، ومن ثم فإنها تعبر من جهة أخرى عن تلك السيطرة الخفية المحركة للسوق الفنية والمتحكم فى كل أبعادها .

من هنا كانت ضرورة تحديد وجهة نظر هذه الدراسة ، ومحاولة فهم دور الفن الحديث فى المجتمع ؛ لأن الدور الاجتماعى لهذا الإنتاج المعاصر يحمل

بلا شك قيم ومفاهيم الطبقة المسيطرة عليه والمتحكمة فيه ، بعبارة أخرى إنه يحمل قيم ومفاهيم قادة هذا الاحتكار .

ولعل تعبير «احتكار» يبدو أقل إزعاجاً حينما ندرك كيف كان الفن الحديث بمثابة ظاهرة ضرورية لضبط خط سير وتنظيم المشاعر الانفعالية والثقافية للمجتمعات التي أنتجته ؛ إذ أصبح هذا الفن مجرد «أداة تنظيم» تخدم الأغراض السياسية والأيدولوجية وهو أمر ليس غريباً ، ففي كل الأزمنة والعصور ، كان الفن يقوم بدور ما في المجتمع ، كما كانت له دائماً صلة ما بالسلطة الحاكمة (مؤيداً أو معارضاً) ، سواء أكانت هذه السلطة دينية أم عسكرية أم مدنية .

وأياً كان نظام الحكم ، فالفن يقع دائماً تحت سيطرته ويتأثر بتياراته واتجاهاته ، بل وقد يتخذ أداة من الأدوات الدعائية اللازمة له للتعاور مع الجمهور أو للسيطرة عليه . ولم يكف الفن - على مر التاريخ - عن القيام بدور فعال أو محدد في المجتمع ، حتى حينما أصبح سلاحاً في صالح الشعوب ولخدمة حرياتهما .

ولعل المرء يتساءل لماذا الفن ؟ ولماذا فن التصوير بالتحديد ؟ ذلك لأن الفنون تعد وسيلة من وسائل الاتصال الإنساني . ويتميز فن التصوير باعتباره أكثر المجالات الفنية مباشرة في الحوار وفي سرعة توصيل مضمونه . كما أنه الفن الوحيد الذي يتخطى عنصر الزمن : بمعنى أن نظرة واحدة تكفي ليلتقط المتفرج مضمون الرسالة التي تحتوى عليها اللوحة ، على عكس بقية الفنون التي يحتاج فيها المتلقي إلى زمن ما ليقرأها أو ليشاهدها حتى نهايتها ليدرك المضمون الذي يود المؤلف التعبير عنه . ومن هنا كان ذلك القول الشائع عبر التاريخ : «إن فن التصوير كان دائماً سباقاً على الثورات الاجتماعية» .

يعد الفن واحداً من أشكال الكيان الاجتماعي؛ فهو يتضمن التعبير عن المشاعر والتطلعات والتأملات الخاصة بالواقع الحضارى والإنسانى لجماعة ما ، في فترة زمنية ما ؛ لذا لا بد لمن يتعرض لتاريخ الفن من أن يتوغل حتى جذور

التجربة الفنية ويربط بين مظاهرها التاريخية من ناحية ، والأساليب الأساسية للتطور الإجتماعى من ناحية أخرى ، فالفن تعبير عن الوجود الإنسانى الإجتماعى ، إنه تعبير أيديولوجى عن الأشكال المتغيرة بين الإنسان والطبيعة ، وبين الإنسان والمجتمع المحيط به . ومن هنا كانت أهمية دراسة وتحليل الجماعة الإجتماعية التى ينتمى إليها .

ولما كان الواقع الاجتماعى تحدده معداته التقنية وموارده الإنتاجية والأساليب التى يستخدم بها الأفراد هذه التقنيات فى وسائل الإنتاج ، فلا يمكن القول بأن الفن ليس إلا مجرد انعكاس للواقع ، وإنما هو عامل تغيير جذرى يساهم فى تطوير وتبديل هذا الواقع ؛ إذ ينعكس مباشرة على كل المتغيرات التى تتدخل فى العناصر الأساسية للوجود ، ويكشف مباشرة عن التناقض الناجم عن الظروف الجديدة للحياة ، وعن أشكالها السابقة ؛ مما يضيف على الفن تلك السمة التى تجعله من أشد عناصر قوى التقدم أو قوى التغيير بعامة .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، فإن قضية المضمون فى الفن تزداد اتساعاً ، حيث إنها تمثل التعبير الانفعالى والثقافى لجماعة اجتماعية ما حيال الظروف المادية لوجودها ؛ لذلك فإن استبعاد الشكل عن المضمون أو انتزاعه من أساس واقعه الاجتماعى ، لا ينجم عنه غير عمل عقيم ؛ لأن إلغاء المضمون يجعل من الفن عملاً مجرداً من الحياة ومحكوماً عليه بالفناء . أو على حد قول جان إيلول Jean Ellul : «استبعاد المضمون من الفن هو فى الواقع استبعاد حقيقة لماذا عاش الإنسان ؟» ، إنه يعنى إلغاء الوجود الإنسانى .

وبما أن الشكل بمثابة اللغة التى يصاغ بها حوار المضمون ، فلا بد له من متابعة كل متغيرات ذلك المضمون الذى يعبر عنه ؛ فالشكل والمضمون هما فى الواقع قطبان لوحدة واحدة ولا يمكن فصلهما ، كالروح والجسد بالنسبة للإنسان . إذ إن فصل أحدهما عن الآخر يؤدي إلى عنصرين مختلفين ، غير ذلك الكائن النابض بالحياة . إن وحدة الشكل والمضمون ؛ لها ضرورة حيوية لا بد منها لتمتد جذور العمل الفنى إلى أعماق الواقع الاجتماعى وتعبّر عنه .

والغاء المضمون بذلك العمد في الفن الحديث يؤدي به بلا شك إلى مجرد حقل تجارب جرياً وراء اختلاق بدع جديدة من الأشكال الزخرفية ؛ فإلغاء المضمون أو هدمه يؤدي حتماً إلى إلغاء أو هدم الشكل دون تحقيق أى إضافة ، والأمثلة على ذلك لا حصر لها . ولقد تم فصل الشكل عن المضمون في الفن الحديث عمداً ومع سبق الإصرار بغية تحقيق مخطط تدميري بعينه كما سيتضح فيما بعد .

منذ مطلع هذا القرن ، يبدو وكأن هناك نوعاً من التكرار ، أو من الإصرار الدؤوب لفرض الأنماط نفسها ووسائل التعبير نفسها؛ مما يدل على أن المقصود ليس التقدم أو التجديد الخاص بكل فنان أو بكل بلد ، وإنما المقصود هو فرض مجموعة من التصرفات المتكررة المتطابقة وكأنها طباعات من الكربون . فعلى حد قول جان كلير : « بعد خمسين عاماً نرى بن Ben يقلد بيكابيا Picabia ، وشوفر Schoffer يقلد موهولي ناجي Moholy Nagy ، وريمان Ryman يقلد مالفيتش Malevitch ، وبويس Beuys يقلد شفيتزر Schwitters - ولا أتحدث هنا عن عديد من الفنانين الثانويين . إن هذا الفن الذي زعموا أنه فن الجديد دوماً ليس في الواقع غير فن التكرار والتقليد ؛ لذلك ينجم عنه اليوم ذلك الشعور بالملل» (٢٦) .

وفي الواقع ، إنه ليس بملل قد يدفع إلى اليأس فحسب ، لكنه ملل يكشف عن إدعاءات مزوعة ، أو كما يقول روبير ريه Robert Rey : « إن الفن التجريدي يفتح الطريق لكل الألاعيب التقنية ولكل إمكانات الاستسهال والزعم والعجز ، وكلها أصبحت من علامات أو من مزاعم العبقرية التي يفرضونها» (١٩) .

إن هذه الظاهرة المنتشرة خاصة منذ الحرب العالمية الثانية قد أدت إلى تحويلات جذرية في المجال الفني ؛ فلقد أدت تلك اللامعقوليات إلى تدفق سيل من الإتجاهات الغريبة المبتذلة . ولا أدل على مدى التخطي في محاولات الهدم الفني من ذلك التتابع الغريب لأسماء أكثر غرابة . ومن يحاول فهم هذا التداخل الشديد التعقيد لمسميات الفن الحديث ، سيلحظ تلك الرغبة الجامحة في التدمير ، وذلك الطموح إلى لفت الأنظار ، اعتماداً على التحذلق والتزييف .

ونذكر منها على سبيل المثال : ضد الطبيعة Antinaturalism ، الشراسية Brutalisme ، البقعية أو الطرطشية Tachisme ، الميكا إستنزم أو الجمالية الآلية Meca Esthétisme .. دون إغفال عديد من الصفات التى يحددون بها معالم لأوصاف الفن ، وذلك مثل : الفن الفطرى Art Naïf ، والفن البدائى Art Primitif ، والفن العيانى Art concret ، والفن الخام Art brut ، الفن اللاشكلى Art informel ، والفن الكهريائى Art kinétique ، والفن المتدمر ذاتياً Art Auto Destructif إلخ.

إن القائمة الكاملة لمسميات هذا السيل الفوار الشبيه بالفقاعات للمذاهب العابرة التى داهمت هذا العصر لتصيب قارئها بالغثيان .. وكفى القول بأن عدد الكلمات المختلفة لوصف المذاهب التى اعتزت القرن العشرين قد فاقت المائة والخمسين ! مما يضع يدنا على جدية، هذه الاختراعات وخاصة جدية مخترعيها !

إن هذه التسميات المختلفة تنم عادة عن عمليات تزييف واسعة للواقع وللكلمات والأفكار والأساليب لإخفاء اللعبة المستترة التى كانت تتم خفية ، حتى عن معظم الذين ساهموا فيها أو انساقوا إليها بحسن نية .

ولم تتوقف اللعبة شكلاً عند حد اختلاق التسميات فحسب ، وإنما امتدت أيضاً إلى الوسائل والمواد المستخدمة ؛ فبخلاف الأشياء البالية اختار بعض هؤلاء الفنانين مادة الجالاليث Galalithe ، أو النيوليث Neolithe ، والزجاج الصناعى Plexiglas ، والمينا émail ، وألوان الصمغ Caséine أو الفينيل Vinyle ، والروديد Rhodoid ، بزعم الوصول إلى نتائج ضوئية أكثر شفافية . بينما أثر البعض الآخر - ولعلمهم أكثر تقدماً - إدخال مواد أخرى كالقطران والرمل والزلط والتراب والجبس والأسمنت والرماد ونشارة الخشب ، أو بعض المواد السائلة أياً كانت ، أو الخشب المحروق والصفيح والحديد والجوت ، وما على شاكلتها من مواد، تحت زعم خلق لوحات عقلانية، اعتماداً على عناصر دراجة تعكس الواقع !!!

ولم يكن للمزايمة فى لعبة التسابق على استخدام السخف أى حدود ، بما أن بعض الفنانين قد لجأ إلى أخط المواد شأناً لمجرد التعبير ، تضامناً مع ما أطلقوا عليه مذهب «مضاد فن التصوير» Antipeinture . ومن هنا نشأ فن القمامة Art de la poubelle ، واستخدام النفايات والمواد المتعفنة والمأكولات الصناعية ، وتروج هذا الابتذال المهين بتمثال مصنوع من البراز الآدمى المجفف تحت عنوان «تكوين» !!

وفى خضم هذه الفوضى العشوائية استعان بعض الفنانين بالإمكانات الكهربائية والإلكترونية والعقل الآلى وشتى إمكانات الضوء الصناعى الناجمة عن الوسائل المثارة صناعياً . فى حين لجأ البعض الآخر إلى مجال الزخرفة الهندسية أو الاستخدامات المجازية لتعبير «كل شىء إذاً مباح» ، مستعينين بشتى الأشكال التجريدية الناجمة عن مجالات التصوير العلمى واستكشافاته كالميكروجراف الإلكتروني ، وصور المسح الجوى ، والرفع الجغرافى أو الفلكى ، وصور الميكروسكوب الطبى !! ، كله فى نهاية المطاف «تجريد» ، وإن استمد كيانه من واقع مرفوض بالنسبة لهم ، ويا لها من لعبة .

وها هو «جان كلير» يرى فيما يتعلق بفوضى التجديد والابتكار : «إن آخر ممثلى الفن الحديث يضاعفون تنويعات اللامرئى إلى ما لا نهاية . ولكى يخفوا افتقارهم إلى الابتكار الإبداعى ، فإن كلمات الإطراء تتضخم بنسبة عكسية . فكلما كان العمل الفنى هزياً ، كانت كلمات تقديمه للجمهور أكثر تحذلقاً .. فكم كانت مجرد كسرة فى النسيج ، أو خط واحد ، أو نقطة واحدة فحسب على سطح اللوحة ، سبباً لسيل لا نهائى من الثناء ، المستخدمة فيه شتى المصطلحات الإنسانية ... إن هذه التصاوير الهزيلة تمثل - بلا أدنى شك - أخط ما أنتجه الإنسان منذ العصر الفيكتورى» (٢٦) .

وهنا أيضاً فإن قائمة المسميات تمتد بشكل مؤسف للمجالات المتعددة .. فمن محاولة الرسم «بالمسطين» إلى تغطية الفنان لجسده العارى بالألوان ، إلى أن يتدحرج على اللوحة الموضوععة على الأرض ... مارين بشتى الوسائل الخبيلية تحت شعار «البحث عن الجديد» . وما أكثر الأمثلة والنماذج التى لا حصر لها

والتي تستحق تعبيراً أكثر دقة لوصفها هو «التهريج» !!

ولربما كان هذا التهريج في الفن الحديث أقل أثراً أو أقل لفتاً للنظر أو أقل هدماً للقيم ، لو لم يكن مصحوباً في الوقت نفسه ، بكلمات أكثر الدجالين مهارة ، أولئك الذين ابتكروهم مدارس فن النقد الحديث، على حد قول هلين بارملان Hélène Parmelin (١٠١) . فلقد أدرك عديد من النقاد بأسف عميق أن العالم يخضع منذ منتصف القرن العشرين لما أطلقوا عليه «غزو الفنون القبيحة» تحت ستار كهنوت الفن الحديث ؛ أي ما لا يمكن أن يدركه سوى أولئك الخواص الذين انصهروا في بوتقة هذا الشكل الزرى وتأهلوا للدفاع عنه ومسايرته .

وفي حقيقة الأمر ، فلقد تعمد هؤلاء النقاد تهديد الطريق وقيادة عملية فرض هذه الاتجاهات على الجماهير العريضة ، بأوسع ما في تعبير «الفرض» من معان .

لم يعد هناك - ونحن في أواخر هذا القرن - من يجهل الحالة المؤسفة التي وصل إليها الفن الحديث ، فالمرء لا يكاد يلحظ عبر حقب متعددة أي بارقة لعمل فنى يطفو على سطح الطوفان الجارف ؛ مما يبدو معه الأمر وكأن الروابط العميقة التي نسجتها القرون والأجيال قد تبددت إلى غير رجعة !

ومع ذلك ، فلم يحظ فن التصوير طوال القرون الماضية بمثل هذا التقدير أو الوجود على الساحة الاجتماعية وبمساندة السلطات المسنولة ؛ فكم من الإمكانات الهائلة قد تضافرت لتتغنى بهذا الوجود ، كالاحتفالات الرسمية ، والمتاحف ، والمعارض المحلية والدولية ، والمسابقات والمعارض الشاملة والكتب والمجلات المتخصصة والأبواب الثابتة فى الجرائد والمجلات والبرامج الإذاعية والتليفزيونية والأفلام التسجيلية وأفلام السير الذاتية ولقاءات النقاد والمؤرخين والإخصائيين والهواة ورجال المال والاقتصاد وسמاسة البورصة وما إلى ذلك .

أي إن الدور الذى قامت به شتى الوسائل الإعلامية كان شديد الاتساع عميق الأثر ؛ ففى خلال العقود القليلة الماضية ، استطاع تأثير الوسائل الإعلامية أن يدخل الفن الحديث فى نطاق الحياة اليومية وأعماقها ، ليصبح قضية عامة .

وهكذا قامت وسائل الإعلام بدورها الفعال والمؤثر لربط الكيان الفنى بالوضع الاقتصادى والسيطرة السياسية .

ومن ناحية أخرى ، ها نحن نرى كيف أن هذا النشاط الجماعى المكثف لم تعرفه أى حقبة سابقة فى تاريخ البشرية ، كما أنها لم تعرف مثل هذا الانضمام التام بين ثقافة الأعمال الفنية وارتفاع أسعارها الجنونى . وفى مواجهة هذا الخلط المبهم ، وفى مواجهة هذا الفن الممزق ، كان الجمهور يقف غير مكتثر . إنه يلقى نظرة عابرة ، ويهز كتفه ساخراً ، فما من مقالة تبريرية أو أى مزاعم مغيبة استطاعت أن تجعله يقبل هذا الإنتاج الذى وصفه بالعتة والخبث .

إلا أن لعبة كسب الجمهور المتباعد كانت ضارية دءوباً !! لقد استطاعوا ترويضه ليلزموه بابتلاع ما قرروا فرضه عليه ؛ إذ كان لابد من إعادة تشكيل الذوق العام . ولم تترك أى وسيلة لملاحقته وتوجيهه إلا واستخدموها لينتهى به الأمر إلى استهلاك ما يفرضونه عليه . وهنا تكمن اللعبة الكبرى ، أو لعبة التحويل الكبرى التى تولاها نقاد الفن بالدعاية ، مستعينين بشتى الوسائل الإعلامية ، تحت قيادة تجار الفن وكبار المسيطرين على الاحتكار الفنى .

والفن الحديث ، كما تكشف عنه الوثائق الحديثة ، ليس احتكاراً فحسب ، وإنما له جوانب أخرى خفية ، جوانب سياسية صهيونية ماسونية نابعة من الولايات المتحدة الأمريكية ، التى أدركت قيمة الفن فاستعانت به كعامل حاسم للتغيير الجذرى للمجتمعات والشعوب ، فأحكمت حلقات لعبة الفن الحديث ، وتلك هى القضية التى يتناولها هذا البحث .

الفصل الأول

نظرة تاريخية

الفصل الأول

نظرة تاريخية

نظراً لتداخل الأحداث والمذاهب الفنية ، فلقد آثرنا اتباع التسلسل الزمني لكي ندرك تطور الفن الحديث بشكل أكثر موضوعية .

تعد أحداث السنوات المحيطة بعام 1900 شديدة التداخل بدرجة تصيب المؤرخ بالإحباط ! فمئذ بداية القرن ، نرى - على الصعيد السياسي - عملية سباق للتسلح ، تساندها - على الصعيد الثقافي - عملية سباق أخرى هي : عملية هدم الفن بالفن . أما على صعيد البحث العلمي ، فإن عام 1900 يشهد أبحاث بيران Périn حول الذرة وتفتيتها .

وفي المجال الفني ، يصعب اختيار فنان يمكنه تمثيل هذه الحقبة ؛ إذ إن هناك نوعاً من الانبثاقات الجماعية في كل مكان ؛ فقد اختفى جهابذة الماضي ولم يعد على الساحة الفنية على حد قول روبريه Robert Rey ، سوى بعض المتحذلقين وعلى رأسهم جيوم أبولينير⁽¹¹⁹⁾ . أبولينير الشاعر الفرنسي الذي قال عنه فليس فلوران Fels Florent : « كان مبهوراً بحياة باريس وجماعاتها الأدبية فيما بين عام 1909 و 1910 ، حيث كانت تسود الرمزية إلى جانب المفاهيم الجسورة لجماعة «الروزيكروشن» (Rosecrution) والمفاهيم الصارمة للفوضوية الذاتية ، وسط دخان الغليون واحتساء الخمر في ميدان رافينيون ، والمناقشات الحامية في مونبارناس . إن مزاج جيوم أبولينير كان يستجمع مايسمعه ، ويمتصه ليكرره عبر خياله في أكثر التعبيرات جرأة ولغناً للأنظار»⁽⁵⁴⁾ .

ويحتوى هذا النص على قيمة مزدوجة : فهو من ناحية يعكس الجو الذي

نشأ فيه الفن الحديث ، ومن ناحية أخرى يستوقفنا تعبير «الروزيكروشن» ، وهو تنظيم سرى ارتبط آنذاك بتنظيم الماسونية ، الذى سنتعرض له فيما بعد ، والذى يبدو ، وكأنه المحرك الخفى لكل هذه اللعبة الفنية المزعومة .

وفى عام 1907 قام موتريوس Mutherius بتأسيس الأشغال الفنية الألمانية Deutscher werkhunst لتقييم الصلة بين مجالى الصناعة والأبحاث الفنية مما يحدد أولى خطوات إدخال الفن فى مجال التصنيع .

وفى حوالى عام 1910 ، ظهر عدد من رواد الفن التجريدى . وتألفت هذه النظريات أساساً فى مدينة موسكو حيث اجتذبت فى تيارها جيلاً بأسره قد تاه فى أبعاد هذه المغامرة . وهنا يقول جان كليير : «يبدو أن تعبير الطليعة الفنية قد استتب ، بما أنه استقر فى طليعة سياسية عليها أن تسبقها وتضىء لها الطريق» (26)

وفى واقع الأمر ، فإن الفن الحديث ، منذ ظهوره ، يبدو مرتبطاً بالسياسة ، كما يبدو وكأنه يقوم بدور محدد هدفه التمزيق الكامل للمجتمع الإنسانى . وإن كانت هذه المهمة ستختفى تحت اسم أو صفة «التغيير» ، فإن هدفها فى الواقع كان : «التدمير» .

ولم يكن ريبمون - ديسانى Ribemant Dessaigne يتحدث جزافاً عن الحقبة فيما بين عامى 1913 و 1914 ، عندما كتب يقول : «يمكن القول بأن المراهانات قد تمت ، وأن الكرة تتجه نحو علامة الصفر فى كازينو القمار الفنى الكبير ، وذلك رغم بناء النظريات المحمومة المتشئنة والرامية إلى إعادة البناء الشكلى لما كانوا يهدمونه فى الواقع . إن كل شىء قد تم الاتفاق عليه مسبقاً . وقد تحدد أن يكون الفن علامة الصفر الكبرى لكل اللاعبين . وكانت الخسارة فى كل مكان ، أو بقول آخر ، كل الذين لعبوا للخسارة كانوا هم الراحين !» (122) .

أى إن حقل التدمير هذا الذى شمل كل الفنون ، بل كل القيم ، كان معداً مسبقاً مع الأسف ، وهو يمثل جزءاً من ذلك التدمير الإجمالى الذى كان يتم الاستعداد له .

وإذا ما كان عام 1914 يمثل ، من الناحية السياسية ، إعلان الحرب العالمية

الأولى ، فإننا نرى من الناحية الفنية ظهور أول تصدع باختلاق مذهب الفن السابق التجهيز Ready made أو الأشياء السابقة التجهيز والمستخدم عنها فى الفن ، ومذهب الفورتيسم Vorticism أو الدوامه ، الذى أدخل الفن فى الحياة الصناعية .

كما يشهد ذلك العام نفسه المزاد العلنى المعروف باسم «جلد الدب» Peau de l'ours المزاد الذى ظهرت فيه لأول مرة أعمال للفنانين الحوشيين والتكعيبيين ، وكانت أول مرة أيضاً يتم فيها دفع مبلغ 20% من حصيلة المبيعات لكل فنان ، وبإلها من بداية للعبة .

ولايعنى ذلك أن الصلة بين الفن والمال ترجع إلى هذه الفترة بقدر ما يعنى أن هذا المزاد العلنى يحدد بداية الصلة الوثيقة بين تجار الفن لغرض الفن الحديث ، وبداية تكوين بورصة الفن التى ما زال نفوذها يتزايد حتى يومنا هذا .

وابتداء من عام 1917 سرى تعبير خاطف عبر أوروبا ليعلن موت الفن الحديث . ومع ذلك فقد حظى بنفوذ غير طبيعى لم يحظ به أبداً أحد الموتى ، إذ تغير الميزان وانقلب بدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب .

وهكذا ، ما أن أعلنت وفاة الفن الحديث حتى أسندت إليه مهمة تغيير إيقاع الحياة اليومية ، ليصبح من العناصر الأساسية فى تغيير المجتمعات والأفراد ، فى الاتجاه الذى تفرضه السياسة النفعية الأمريكية والمصالح الاحتكارية ، والأبداى الخفية فى هذه اللعبة المحكمة الصنع والسابقة التجهيز .

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى انهار سوق الفن المعروف باسم «الفن التقليدى» انهياراً مذهلاً ، واختفى تماماً من الساحة الفنية . بينما تضافرت جهود فريق من الفنانين بغية فرض المذاهب الحديثة . وسرعان ما سيصبح هذا الفن الجديد سلعة للمضاربة مثله مثل الجبن والسلع المختلفة من النبيذ إلى الحديد!!

وفى خضم أحداث فترة ما بعد الحرب ، حدث تغير جذرى فى المجتمع الفرنسى تجاه الرواد ؛ إذ أصبحت القيم الملعونة هى القيم الاجتماعية السائدة . وتم إنشاء سوق للفن فى مبنى دروه Hotel Drouot . وكان على بلييه Bellier ،

السمسار المثلث ، تنظيم جلسة مبيعات كل ستة أسابيع ؛ جلسات يتم خلالها بيع نصف اللوحات ، وشراء النصف الآخر ! ، وكانت جلسات المزاد هذه سبباً لانتقادات عنيفة ، كتبت عنها ريموند مولان Raymonde Moulin فى بحثها فى «سوق الفن الفرنسى» تقول : «لقد كانت عمليات غير نظيفة ؛ لأنها مختلفة مسبقاً ، وبذلك استطاعت أن تحتل مكانة فى النظام الاقتصادى ، الذى انتهى بإصفاء قيمة تجارية محددة للأعمال الفنية الحديثة» (91) .

وتعد الحقبة التالية ، من 1929 إلى 1939 ، ذات أهمية خاصة بما أنها شهدت نوعاً من تغيير البيادق ، وإعادة التنظيم على رقعة الواقع ، حتى تتم عملية الهدم هذه بشكل أدق . فابتداء من عام 1929 توقفت عملية النشاط التجديدى ظاهرياً لفترة بعينها سرعان ماستعود بعدها أشد وطأة . واعتبرت الأشكال الفنية المتدنية التى روجوا لها فى الحقب السابقة وكأنها أصبحت قيماً فنية مستقرة ، حان الوقت لاختيار ماهو عالمى منها ، أو ماتم تحصيله !! «فى بعض البلدان مثل إيطاليا ، وألمانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، طوّل الفنانون بالالتزام بفن سهل القراءة ، فى تناول الأغلبية ، على أن يعبر ويعرض - فى الوقت نفسه - القيم والمفاهيم الخاصة بالدولة التى أنتج فيها» (جان لود 76) . وكانت الأزمة الاقتصادية العالمية قد بدأت تلقى بظلالها .

بدأت أولى الظواهر الاقتصادية العنيفة لهذه الأزمة تتضح فى أكتوبر عام 1929 ، وتبلورت فى شهر نوفمبر ، حينما انهارت بورصة نيويورك فى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر ، والمعروف بيوم «الخميس الأسود» ! ومن المظاهر المتناقضة مع ذلك الحدث ، والتى تشير بجلاء إلى مكونات لعبة الفن الحديث وصناعاتها ، أن مجموعات الاقتناء الكبرى بدأت تتكون خلال هذه الفترة ؛ خاصة فى أمريكا ، بواسطة من يمتلكون السيولة المالية .

وكان لهذه الأزمة الاقتصادية التى امتدت إلى النمسا وأوروبا الوسطى (لكنها لم تمس فرنسا إلا فى عام 1932) آثارها وانعكاساتها الفورية على سوق الفن . وما أن قامت الحرب العالمية الثانية واحتلّ عديد من بلدان أوروبا ولم يعد يحق لغير فنانى البلد المحتل أن يقوموا بعرض لوحاتهم ، حتى تحولت اللوحات

أنذاك إلى قيمة استثمارية . وإن أدى الكساد الشديد الوضوح إلى إغلاق أكثر من نصف القاعات الفنية وفسخ العقود المبرمة مع الفنانين ؛ مما أدى إلى ظهور أسماهم في كشوف العاطلين .

لقد كان شبح البطالة قد مس العاملين بأوروبا ابتداء من الثلاثينيات ، وامتد تدريجياً إلى كل أنحاء العالم . وامتد أثره بضرارة على البلدان الصناعية ، ليفرض خيبة أمل ساحقة على كل الذين آمنوا بتحرير الإنسان بفضل التقدم العلمي ، وتصوروا نهاية عصر العبودية بفضل الآلة - العبد ! لكن هاهي ذى الآلة وقد استعبدت الإنسان بدلاً من أن تحرره . بل الأدهى من ذلك كله ، أنه ما أكثر الذين سيزداد حرمانهم من العمل بعدما أدت الآلة إلى الاستغناء عنهم . وفي حقيقة الأمر لا يمكن البحث عن سبب هذه الفاقة ، لا في فكرة التقدم ولا في موضوع الميكنة ، وإنما في كيفية استخدام النظام الاقتصادي السياسي لها .

ومن جهة أخرى ، بدأ التغنى بالميكنة وبالتقدم بشكل واسع خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية . وكان لهذا الموقف المتناقض أصداؤه الواسعة في تيارات الفنون التشكيلية ، وسرعان ما سيصبح مذهب المستقبلية Futurisme ، الذى ساد في مطلع القرن في مرحلة ازدهار الفن الثورى في روسيا ، الحليف الثقافى للفاشية في إيطاليا .

فوجد فن التصوير نفسه أمام مفترق طرق ؛ فمن جهة : ظل البعض يؤمن بفكرة التقدم العلمى ، والبحث عن تعريف ميكنة الحياة والقواعد الفنية ، ومن جهة أخرى : بدأ التجريد وكأنه الوسيلة الوحيدة لتصعيد الآلية ، وذلك بتفضيل حالة التعبير الصافى . ولسنا فى حاجة لأن نذكر - فى ضوء المعطيات السالفة وما سفزده عليها - أن تعبیر الصفاء تعبیر جد مضلل فى لعبة الفن ، أبعد ما تكون عن النقاء والصفاء ، وما أكثر الأيادى الملوثة التى تحركها .

ومع ذلك ، فإن إيقاع الميكنة حتى فى التشكيل الجديد والذى استمر جنباً إلى جنب مع التجريد ، حط من شأن الإنسان والأشياء ليبعدهم عن السياق الطبيعى لها . وأصبح إيقاع الآلة المتقطع ، الخالى من الإنسانية ، هو العنصر والحدث الأساسى الذى له معناه فى هذه الفترة .

ومن الطريف متابعة الحركة المكونية بين الفن والحياة ، فى هذه الفترة ، وملاحظة كيف حاولت تغيير وتبديل مظاهر الحياة اليومية بأى ثمن !

إن الانطلاقة التكنولوجية لم تكن مطلوبة آنذاك فى مجال التسليح فحسب ، بل استخدمت لتنفيذ أغراض كانت السياسة - يقيناً - بعداً أساسياً فيها ، ولكتف بالاستشهاد بالإذاعة على سبيل المثال .

ففيما بين عامى 1930 و 1939 ازداد استخدام أجهزة الراديو وانتشرت بين الناس بشكل واضح . ولاتكمن أهمية الظاهرة فى تحليلها من حيث الكم ، وإنما فى مغزها السياسى الأكثر أهمية ، فسرعان ما أصبحت الإذاعة هى الوسيلة الترفيهية الأساسية ؛ خاصة بالنسبة للطبقات التى ليس بوسعها التمتع بأى وسيلة ترفيهية أخرى .

ولقد عبر الأديب الفرنسى بول فاليرى Paul Valéry عن هذه الظاهرة بنظرة ثاقبة فى بحثه المعروف باسم «افتراض» Hypothèse ، والذى يتحدث فيه عن سرعة وسائل الإعلام ؛ إذ إن الأثر الناجم عن التقدم التقنى باستخدامه للإذاعة كوسيلة إعلامية ، قد أدى إلى إلغاء المسافات ومعايشة الأحداث فى حينها ، فها هم الناس يحاطون علماً بها لحظة وقوعها أو بعدها بقليل ، وعبر هذه الوسيلة التى تبدو فى ظاهرها ترفيهية وثقافية ، أصبح من الممكن للحكومات أن تسيطر عن بعد على المستمعين ونفسياتهم . وبذلك أصبحت السلطة تمتلك أداة إقناع تسمح لها قوة فعاليتها بالسيطرة على عقول الجماهير وتوجيه فكرها . وهنا يقول بول فاليرى :

«إن إنساناً مجهولاً ما ، أو موظفاً ما ، يمكنه أن يثير ويلهب عن بعد أعماق النفوس وأسس الحياة العقلية والعاطفية للجماهير ، ويفرض عليها آمالاً واندفاعات ورغبات ؛ وذلك مثل الكرونومتر الموضوع فى حقل مغنط أو الخاضع لتغيرات سريعة ، دون أن يتمكن من يراقبه أن يدرك المحرك الحقيقى له ، فهكذا وبالصورة نفسها يمكن فرض القلاقل أو أى تعديلات مطلوبة على أكثر العقول وعياً وإدراكاً ؛ بفضل تلك التدخلات التى تتم عن بعد ويصعب كشفها» (133) .

ولاشك أن الإذاعة مثل التليفزيون ، تعد في عصرنا هذا ، من وسائل التأثير والدعاية والضغط ، لكنها تمثل في الوقت نفسه أداة مثالية لتشكيل الذوق العام والتحكم فيه ، وخلق أنماط متماثلة ؛ أي إنها وسيلة توحيد نمطى من الدرجة الأولى فى يد أجهزة الدولة . ومن المسلم به أن ما يقال عن الإذاعة والتليفزيون كوسيلة سيطرة وتوجيه ، يقال أيضاً عن فن التصوير أو عن أى مجال ثقافى آخر ، يمكن للدولة أن تسيطر به عن مبعده ووسائل غير مباشرة .

أما الظاهرة الجديدة ، الجديرة بالذكر ، والتي ظهرت فى تلك الفترة ، فهي تجميع الفنانين فى هيئات دولية ؛ الأمر الذى يعد من أكثر الأحداث لفتاً للنظر ، وبخاصة أنه يستند إلى أطر فلسفية وتنظيرية ، تحتاج لإعمال الفكر والفهم لتعرف ما وراءها .

ففى عام 1929 تم تكوين جماعة «الدائرة والمربع» (Cercle et Carré) ، لتجميع كل المنتمين للفن التجريدى المتناثرين فى مختلف بلدان العالم . وهاهم معظم هؤلاء الأعضاء ينقلون إلى الجماعة المسماة «تجريد إبداع» (Abstraction Cr ation) ، والتي كانت تهدف إلى تكوين تنظيم تشكلى ذى اتساع دولى . ولم يمض بعد ذلك غير عام واحد ، حتى أُقيم أول معرض عالمى للفن التجريدى فى باريس .

وتم تزيين لحن الإنسان الجديد ببطانة لاحصر لها من النصوص والتعاريف ، جمعت فى جعبتها معظم نظريات فترة ما بعد الحرب .

إن ما يميز هذه الحقبة الزمنية بالذات ، هو ذلك التدفق الغريب لعدد ضخم من فنانى التجريد : فقد كانت المعارض تضم مئات الأسماء . إن هذا التدفق الفجائى فى كل مكان ، وفى وقت واحد ، إنما يعكس نوعاً من التوافق التنظيمى ، بقدر ما يعكس نوعاً من الانتصار الذى أدى إلى نوع من «الموضة» أو «التقاليع» ، تواكبت معها أعداد لاحصر لها من كتابات رسامى التجريد الذين يروجون لهذه «الموضة» الجديدة ، ذلك أن حاجة هؤلاء الفنانين إلى توضيح أساليبهم الذاتية دفعتهم إلى إطار تنظيمى يستند إلى عديد من التنظيرات ، أدى إلى اختلاق موضة التجريد التى سادت وتألفت فى الثلاثينيات .

ومن الواضح أن طرح ومساندة الفن التجريدى باعتباره «موضة» كان وثيق الصلة بنوع من البدع التى تنم عن مستوى اجتماعى معين ، ولا تنفك عند «موضة» الثياب وما إليها . ففى هذه الخليّة الدائبة الطنين ، كانت كل المجالات تتحرك فى كل الاتجاهات بغية فرض التجريد على السوق المحلية والعالمية . وما من وسيلة تسهم فى تحقيق ذلك الهدف إلا سلوكها .

إن ماتم فى مجال الفن التشكلى لشديد الشبه بما تم فى كل المجالات الفنية الأخرى : تكرار أسلوب التحرك والتأثير نفسه ، لكن أصحاب ومؤسّسات فلسفة التجريد وتنظيراتها لم يتنبهوا - لحسن الحظ - إلى أن أى بدعة جديدة قد تلفت النظر حيناً ، ثم تجذب أو تثير الانتقادات ، ومن ثم يكثر الحديث عنها وإثارتها ، وهكذا يألفها الكثيرون ويحاكونها ، فتنتشر ، لكن سرعان ما تفقد بريقها ، لتصبح مبتذلة وينتهى بها الأمر إلى إثارة الملل ! ومن الملاحظ أن اللوحات التجريدية قد عرفت خط السير نفسه ؛ بدعة «الموضة» الموسمية نفسها للملابس وتقلباتها ، رغم التنظير والفلسفات المصنوعة والمؤسّسات التى تساندها ! فلقد كان تدفق المذاهب الفنية يتم فى دورات سريعة الإيقاع ، تتجاور أو تتصارع وفقاً للتقدم الآلى المعاصر ، ثم تغوص فى الصمت ويأفل بريقها و«موضتها» ، وتموت فلسفتها وتنظيراتها لتعود من جديد فى «موضة» جديدة وشكل جديد وتنظير جديد لمحتوى واحد ، وإن تعددت ألوانه وموضوعاته .

لقد كان العاملون فى مجالى اللوحات والاستثمار - والمجالان متلازمان - يقومون بطرح فنانين أو ثلاثة ، سرعان ما تتوه أسماؤهم وأعمالهم فى غضون سنوات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وقد يتمتع هؤلاء الفنانون بنجاح سريع لكن لا أساس له ؛ لذلك سرعان ما يصبحون ضحية هذه الشهرة السريعة .

وكأن المعطيات التى كانت تجعل من الفن التجريدى نوعاً من «الموضة» ، هى نفسها التى أسهمت فى الوقت نفسه فى غرقه . لقد انتهت بهم المطاف فأخضعوا التجريد للتنظيم . وهكذا أصبح التجريد هندسياً وفقد قيمته المزعومة فى البحث عن المطلق . ولم يعد الشكل المجرد خلقاً إبداعياً ، وإنما أساليب ووسائل خالية من أى معنى ، تعتمد كل مقاييسها على الجانب الخارجى أو الشكلى للعمل ،

ولا تتوقف إلا عند سطح السطح ! وهكذا تمخضت الموضوعية المزعومة عن مجرد السهولة والاستسهال . بما أن كل الذين انساقوا في هذا التيار - وبعضهم بحسن النية وتحت وطأة المد الدعائي والفلسفات المغلفة بألفاظ جزلة وكلمات غامضة - تصوروا أنه يمكنهم أن يتأهلوا بين عشية وضحاها ! مما أدى إلى أول موجة انحسار للفن التجريدي ؛ ذلك أنه لا يبقى في النهاية غير الأصل كشارة للغد .

وعلى الرغم من هذا الانحسار الواضح ، فلقد استمرت اللعبة لتنتقل في أماكن أخرى ، فبينما كانت الأزمة الاقتصادية العالمية في أوجها ، تضافرت جهود كبار التجار لنقل الساحة الفنية من باريس إلى نيويورك - أو على الأقل ذلك كان مظهرها الخارجي ، ألم نقل إنها لعبة مؤسسات متعددة الأوجه ؟!

ورغم أن بإمكاننا أن نلاحظ في هذه الأثناء أن ردود فعل الأزمة لم تكن واحدة بالنسبة لكل الفنانين أو بالنسبة لمختلف مجالات الإبداع الفني ، فإن اللعبة بقوانينها ومؤسساتها ما كانت لتهزم بسهولة . فقد تم نقل محور الساحة الفنية إلى الولايات المتحدة الأمريكية بنفوذها واحتكاريها، الذين خططوا منذ البدء وتوجوا ذلك كله بإنشاء المؤسسة المعروفة باسم «موماء» ، أي «متحف الفن الحديث» ، (Museum of Modern Art) ، وذلك في عام 1929 في مدينة نيويورك. وتبعه إنشاء «مركز روكفلر بنيويورك» ، New York Rokecfeiler Center ، حيث توالى بهما معارض الفن الحديث بلا توقف . وفي تلك الأثناء ، بدأ الفنان شاجال Chagall ، الغارق في القلق بسبب اضطهاد الألمان لأبناء جلدته من اليهود، في إدخال العنصر الدرامي لليهودي «الهائم أمام المصلوب» في لوحاته !

وبعد عام 1937 ذروة الأحداث سواء في فرنسا أو في بلدان أخرى ؛ فقد كانت ألمانيا تضرب الرقم القياسي في الإنتاج الشهري للطائرات : 350 وحدة مقابل 35 وحدة في فرنسا و 200 في إيطاليا . ومن جهة أخرى كانت الحرب الأهلية الإسبانية تثير ردود فعل عنيفة ، بينما الرعب يسيطر على موسكو بسبب القضية الثانية المعروفة باسم «السبعة عشر» الخاصة بالتخريب الاقتصادي . وفي هذه الأثناء تم تغيير ميزان تحالف القوى بانضمام إيطاليا إلى جانب ألمانيا . أما في فرنسا ، فلم يكن ذلك التاريخ يعني سنة إقامة المعرض الدولي ، وإنما كان عام

القلق في كل المجالات . ولانذكر منها سوى الجبهة الشعبية والإضرابات التي يغص بها الواقع ، وصراع اليمين واليسار ، ولايمكن أن نغفل تلك المكانة المتزايدة التي كان يحتلها اليهود في حكومة ليون بلوم Léon Blum ، التي اضطرت إلى تقديم استقالتها في ذلك العام نفسه .

لقد أطلقت إقامة المعرض الدولي للفنون والحرف في باريس عام 1937 العنان لطموحات الفنانين الذين مستهم الأزمة الاقتصادية ، إذ يبدو أن مشروعاً ضخماً قد احتل ذهن الفنانين الغربيين في أولى سنوات هذه الأزمة التي لم يلقوا عليها جزافاً اسم «العودة إلى النظام» . ولم يكن هذا المشروع يعني سوى الرغبة في إعادة تقويم العادات الاجتماعية بثورة إصلاح تشكيلي على الصعيد العالمي .

كان ذلك هو الهدف المعلن ، ولكن ، ترى هل كانت لعبة هذا البرنامج (الذي أعد سلفاً مع سبق الإصرار والترصد بلغة القانون) تمر خلسة بالفعل ، وفي غفلة من الجميع ؟ إننا - مع الأسف - لانتقد ذلك فما أكثر الاتهامات، التي ارتفعت اعتباراً من هذا التاريخ . ومن السهل متابعة هذا الإصلاح التشكيلي من خلال أعمال ومؤلفات الفنانين ذاتي الصيت آنذاك . فكل واحد منهم كان مدركاً وواعياً لحقيقة أن : فترة ما بين الحربين هذه ليست في الواقع إلا حرباً أخرى ! وهنا يقول فرناند ليجيه Fernand Léger - والذي كان واحداً من جهازة التجريد- بوضوح وعن دراية - : «إن إنسان العصر الحديث يجد نفسه من الناحية الاجتماعية في حالة لا تمت إلى السلام بصلة ؛ إذ إن الحرب الاقتصادية تطحنه بلا هوادة ؛ إنها حالة حرب لارحمة فيها ، وهي أكثر قسوة من الحرب الحقيقية» .

لقد تميزت هذه الحرب الاقتصادية بوجود نوع من التماثل في المبادئ ، ونوع من المطابقة في الأهداف والأساليب بين رجال الصناعة ، والتجار ، والفنانين ، ووسائل الإعلام ؛ إذ إن التوجيه الجديد للجماهير كان يتطلب وسائل نظرية جديدة ، تعد معداتها الأساسية ، التي استعان بها كل من الفنانين ورجال الدعاية ، وهي : المطبوعات ، والمشاركة ، والإيحاء ، والتوحد .

ومع الأسف لم يصبح التصافر الفني - الدعائي هو شاغل الفنان وحدهم في الثلاثينيات ، وإنما انضم إليهم الكتاب والشعراء في موجة الشعارات الدعائية .

وهكذا ، ولأول مرة يتم افتتاح جناح خاص بالدعاية فى المعرض الدولى ، عرف باسم : «جناح الدعاية» .

ولقد كان هذا المعرض نوعاً من المسرح الساخر ؛ مسرح تواجه فيه الماردان إذ كان الجناح الألمانى فى مواجهة الجناح السوفيتى ! ترى هل كان ذلك مصادفة تزيد من سخرية الأقدار ، أم تخطيطاً من الإدارة الفرنسية للمعرض ؟!

أما على الصعيد الفنى والأدبى ، فقد كان مذهب السريالية - الذى يعتبره الأديب الفرنسى سلين Céline «أداة طغيان ونصب واحتيال يهودية» - قد بدأ يخبو - بينما ارتفعت أصوات بعض الأدباء لتكشف وتدين بعنف تلك الحيل والألاعيب التى تصافرت لإحياء تنويعات لاحصر لها للعبة الفن الجديدة .

ولقد كانت أكثر الأعمال إدانة لهذه الألاعيب كتاب الأديب سلين والمعروف اسم «تُرْهَة من أجل مذبحه» . ويعد هذا الكتاب من أعنف ماكتب فى كشف المؤسسات التى تحكم اللعبة ، وإن اتهم بمعادة السامية ، فى فترة ازداد فيها الصراع ضد اليهود ، وذلك ماسنراه فيما بعد .

وللحق لم تكن ثورة الأديب سلين ناجمة عن تحيز ما ، وإنما كانت ناجمة عن ذلك الوجود اليهودى فى المجتمع الفرنسى بشكل لاقت للنظر . إذ كتب يقول : «إنهم يقومون حالياً ، وتحت اللواء نفسه ، بغزو العالم ، وهم يدوسون بدأب وبضراوة لا حد لها على أبسط مشاعرنا ، وعلى فنوننا الأساسية والتلقائية ، كالموسيقى ، والتصوير ، والشعر ، والمسرح ، الخ . وذلك بمسخها وسحقها لإبادتها» (22) .

لقد كان سلين واعياً باللعبة مناهضاً لها ، كاشفاً لصناعها ومروجيها ، وكان طبيعياً ألا يسلم من هجومهم . ولقد حدث فى ذلك العام نفسه ، عام 1937 ، تغيير جذرى فى فرنسا ، وخاصة فى الأوساط الأدبية ؛ ذلك أنه ما من كاتب - باستثناء ندرة جد قليلة - قد أصبح قادراً على الحياة من معايشة قلمه . بل لقد اضطر عديد من الفنانين إلى تدوين أسمائهم فى كشوف المثقفين العاطلين . ومن جهة أخرى ، لم يكن فى وسع أى كاتب أن يطبع ويبيع عمله ، ولو فى نطاق ضيق ، إلا إذا

تناول أحداث الساعة ؛ مما يفسر تدفق السياسة في الأدب . وانتقلت الحرب المدنية إلى المجالات الأدبية ؛ إذ أصبحت الشتائم والاتهامات تتطاير بين كتاب اليمين واليسار !! وكان ذلك الخلاف جزءاً من قانون اللعبة لتمزيق الأواصر وخلق أطر من التبعية .

إن مايعنينا في هذا الموقف ، إنما هو توضيح جو التبعية الذي كان الكتاب والنقاد غارقين فيه . وهو جو يؤدي - بلا أدنى شك - إلى الانحراف المعنوي لكل الذين ألقوا بأنفسهم في مدح ومساندة الفن الحديث بشكل غير منطقي ، وإن كان في حد ذاته منطقياً تبعاً للسياق والتاريخ والقوى التي تساندته .

ولقد تباطأ إيقاع الفن الحديث في فرنسا ما بين عامي 1939 و 1944 ؛ لرفضه ونبذه وإدراك هشاشة قيمته وابتذاله للقيم الفنية ، إلا أن قيام الألمان بحرقه ، وبخاصة حرق الأعمال التي تمت مصادرتها في متحف جى دى بوم Jeu de Paume بباريس ، كان السبب الحقيقي في عودة بعض الفنانين ، ومنهم ديران Derain إلى التأثيرية الحديثة بأعمال عسيرة الهضم .

وفي هذه الفترة نفسها قام النازي بإغلاق «الباوهاوس» Bauhaus ، الذي تأسس في مدينة ديسو عام 1919 ، والذي كان ينشر أكثر الاتجاهات تطرفاً سواء في مدينة ديسو أو في مدينة فايمار التي انتقل إليها فيما بعد ، لكن ما أن أغلقه النازي في ألمانيا حتى أعيد إنشاؤه في مدينة شيكاغو عام 1937 تحت اسم «الباوهاوس الجديد» New Bauhaus !!

ويلى إنشاء الباوهاوس الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية في العام التالي ، ظهور قانون «الدفع والتسلم» Cash and Carry ، وهو القانون الذي سمح بتزويد بريطانيا العظمى بالمعدات الحربية التي يتم دفع ثمنها فوراً ، وهو القانون نفسه الذي قام عليه الباوهاوس الجديد ، بل والنظرية النفعية الأمريكية كلها !

ولعام 1939 دلالة خاصة على الصعيدين السياسي والاجتماعي . فلايشير هذا التاريخ إلى البعثة العسكرية الرسمية المرسلة إلى موسكو فحسب ، ولا إلى الأزمة القائمة في الحزب الشيوعي الفرنسي ، واحتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا ، ثم

احتلاله لبلندا ، ولا إلى الاتفاق الألماني السوفيتي ، والنجاح الساحق لفيلم «ذهب مع الريح» ، وإنما يشير - كذلك - إلى ذلك الحديث الذي دار لأول مرة بين أينشتاين وروزفلت حول الأسلحة النووية ، وبزوغ أداة تدميرية تفنى الشعوب . وهكذا يتناغم تدميران : تدمير بالسلح النووي ، وتدمير بلعبة فن حديث يقضى على قيم الجمال ويشوه صورة الفن والإنسان .

وأثناء الحرب العالمية الثانية ؛ أى فيما بين 1939 و 1944 ، بدأ الوضع وكأنه قد تم بذر الفنانين التجريديين عبر مختلف بلدان العالم . واستتبت سوق اللوحات بفضل وضع شديد الوضوح هو : تحديد القيمة أو الوظيفة الاقتصادية لفن التصوير ؛ إذ تم تحديد قيمته كقيمة ادخارية وكقيمة استثمارية ، وهنا تقول ريموند مولان عن سوق الفن :

«لقد أصبح فن التصوير قيمة استثمار ومضاربة ، لابد من حمايتها من التضخم وإبعادها عن رقابة الدولة ، وذلك مثل الذهب ، والعملات الحرة ، وأوراق العقود فى البورصة ، والنوعيات الأخرى من الأشياء النادرة الثمينة . ذلك أن اللوحة يمكن إخفاؤها وتبادلها بسهولة ؛ أى يمكن أن تسلك طريقاً بعيداً عن رقابة البوليس والقانون ، بل ويمكن للوحة أن تكون مجال تهريب على النطاق الدولى . ومما لاشك فيه أن الاضطرابات الاقتصادية ، والمكاسب غير المشروعة ، والعوز ، وترشيد الاستهلاك ، والبحث عن وسائل استثمارية يمكنها أن تدخل فى مجال اختلاسات مالية قد ساعد على توسيع نطاق سوق فن التصوير» (91) .

وما أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى تجتاح موجة من الانحلال مختلف المؤسسات الثقافية . وعرف فن التصوير تدفقاً صاخباً من المحاولات ، والأبحاث والمذاهب المتناقضة العابرة بصورة أو بأخرى ، وأدى ذلك التآرجح إجمالاً إلى عزل فن التصوير عن تاريخه الطويل الممتد والراسخ ، بنوع من الأساليب السابقة التجهيز .

وها هو معرض صالون الخريف لعام 1944 يمثل مراجعة شبه تامة لكل القيم المستقرة ؛ ليفسح المكان لقيم التجارة والألعاب والتدهور . وبدأ يتجلى فن متدن منذ نهاية الحرب هو نقيض التراث ، أطاح بكل منجزات الماضى ليرتقى

فى أحضان مستقبل هائم غير واضح المعالم ، لكن من خلفه مؤسسات تدعوله وتدفعه لوجه آسن ، وتنزع فنانيه من خميلة قيمة الجمال ؛ لتكثر الأشواك التى تزحف على أفق الفن لتغيم سماؤه وتتبدد قيمة المستقرة .

إن فترة ما بعد الحرب تعد بمثابة نقطة تحول حادة فى مسار فن التصوير؛ فالأشكال التجريدية - كما سبق أن أشرنا - لاتعرف أى استمرار ، وها هى تتناقض مع مفهوم التجريد السائد فى مطلع الثلاثينيات ، وهو تناقض تتضح معالمه من خلال عديد من الأبحاث ، وذلك العدد المتزايد من الفنانين ، والتغيرات التى خضع لها الشكل فى العشرين سنة الماضية .

لقد بدأ الفن التجريدى وكأنه يضارع ضد عدااء شديد ، وبدأ وكأنه سيتقهقر مستسلماً للضربات التى تصوب إليه من الخارج بجانب وهنه الذاتى ؛ إذ إن مذهب الدادية بتفكيكه ظاهرة الفن ، وببتره بتلك العشوائية المسعورة قد ألقى بأنقاض القيم بعيداً بحيث أصبح من المستحيل التحدث عن أى نظرية ، وقد مهد لهذه الصياغات ذلك الموقف العالمى المعادى للألمان ؛ خاصة فى الدول الأوروبية المحتلة ، وإبانها كانت الأبحاث التجريدية مستمرة فى الخفاء . وما أن أتى عام 1945 حتى أدت هذه الأبحاث إلى إقامة المعرض المعروف باسم «الفن العيانى» (Art concret) . وفى الآن نفسه تم إنشاء قاعات فنية أخرى ، وأصبح تدخل القيم الجمالية بالقيم المالية أكثر وضوحاً بازدهار السوق الفنية بين الاحتكار والمضاربة .

وهنا توضح رموند مولان : «أنه بينما كانت تتم عملية تحويل الفن إلى تجارة ، كانت تتم عملية ترويض الجمهور . كان هواة الفن يعرفون أن عبقریات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد أثارت الفضائح دوماً . فكان الإغراء شديداً بأن يؤخذ كل ما هو مثير للفضائح على أنه عبقرى . وبذلك أدى سباق السوق الفنية وانضمام بعض الزبائن الذين يعتمدون على سوابق تاريخية ، إلى التهافت الشديد على تلك الأشكال المغامرة للفن فى فترة ما بعد الحرب» (91) .

ولاشك فى أن تعبيرى «تتجير» و «ترويض» ليسا كل ما يجب تذكره من هذا التاريخ ؛ إذ إن عام 1945 ، الذى بدأ بنشر الجيش الأمريكى لتقليعة «فتاة الغلاف»

Pin up girl فى العالم ، اعترته أحداث أخرى منها انتحار هتلر ، وانسحاب الجيش الألماني ، والجيش الياباني ، كما شهد قمة الدمار بتفجير أول قنبلة ذرية ، تلك التى ألقاها الأمريكيون على مدينة هيروشيما ، مبيدين بذلك مائة وخمسين ألف نسمة دونما حاجة لما اقترفه .

ولقد شهد ذلك العام نفسه مؤتمرا لانا ، الذى تقاسمت خلاله القوى العظمى العالم فيما بينها ؛ فأصبح لكل مذهبه ، وحقل معاركه وسلاحه ، سواء أكان ذلك معلناً أم لا . وهنا ليس من الغريب أن تبرز فى الأفق تلك اللعبة التى تسود سماء الفن ، وبالمثل لم يكن صعباً أن نلاحظ كيف عرف الفن التجريدى صحة حيوية بدخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى الساحة بكل مفاهيمها .

وفى عام 1946 افتتح فى باريس صالون الوقائع الجديدة ، وقد ضم حوالى ألف لوحة لاشكلية . ومنذ ذلك التاريخ تتابعت المذاهب بلا توقف ، وفتحت الصحف اليومية والأسبوعية صفحاتها لمقالات النقد الفنى ، التى راحت تتغنى بمدح التجريد . ويشهد العام نفسه انتشاراً شديداً للسريالية فى نيويورك . ويبدو أن سنوات الحرب - التى تمثل قطعاً حاسماً أو وقفة واضحة فى تطور الحياة الفنية فى أوروبا - قد استثمرت بصفة خاصة لتطور وازدهار الفنانين الأمريكيين ؛ فهامى مدينة نيويورك قد أصبحت المركز الفنى الوحيد الذى ينبض بالحياة . وكما سنرى فيما بعد ، هاجر عديد من الفنانين الأوروبيين إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث سيلعب وجودهم هناك دوراً فعالاً فى تغيير اتجاه الفنانين الشبان ، والذين سرعان ما انتهى بهم المطاف إلى رؤية لامعقولة للفن ، وعلى رأسهم بولوك Pollock .

وفى العام التالى ، سنة 1947 ، تم إنشاء جمعية فناني الطليعة المعروفة باسم «النادى» The club ، وإن لم يتضمن عام 1947 ذلك الحدث الفنى فحسب ؛ لقد كان عام «مشروع مارشال» ، وحرب الهند الصينية ، ولا يمكن أن ننسى هنا أنه عام تقسيم فلسطين ، الذى سيتبعه فى العام التالى إنشاء الكيان الصهيونى على الأرض العربية فى فلسطين .

أما عام 1948 فيمثل عام المعارك على كل المستويات ... ومنها اغتيال

غاندى ، وتعين الجنرال الخائن تشن كاي تشيك زعيماً للصين ، وحصار برلين ، واكتشاف اليورانيوم فى الكونغو البلجيكي ، واختراع الأمريكان للترانزيستور . إنها لعبة السياسة التى تصنع تلك الرموز الشائنة وتقضى على الشامخين بقدر ماتهم بأدوات الدمار سواء فى مجال الحرب الواقعية أو النفسية . وهنا يبرز التجريد كأداة دمار مساعدة بجانب اليورانيوم والترانزيستور . لكن - ويا لغرابية الظروف - فى فترة الانتشار المفروض هذه نفسها، بدأ الفن التجريدى يتعرض لأعنف الهجوم والإدانة . فما أكثر الذين أدركوا اللعبة عن بعد ، وراحوا يتهمون الفنانين بأنهم «مبيعون» للأمريكان . إن مبولان Maublane ، وسلين Céline ، وجازافا Guazava ، وكوستون Coston ، وبيمجان Pemjean ، وجمبيل Guimpel ، وموكليير Mauclair ، ليست إلا بضعة أسماء من بين كثير غيرها ، تضافرت لتعلن وتدين لعبة الفن الحديث ، وقد أمسكت بالحقائق فى أيديها . لكن ما أصعب الثمن الذى دفعوه لمجرد أنهم لمسوا الحقيقة وحاولوا الكشف عنها !

وفى الوقت نفسه ارتسمت فى المواجهة معالم معادلة ، مكونة من ثلاث كلمات هى : «التدمير - الحرب - أمريكا» وهى افتراض سيتصدر الكثير من المعارك .

وفى ذلك الجو الصاخب ظهر فن التصوير الحركى Action Painting ، كما سيلقبه الناقد اليهودى الأمريكى هارولد روزنبرج Harold Rosenberg فى مقاله المنشور فى مجلة «أخبار الفن» Art News بعدد ديسمبر 1952 . ويعد هذا المذهب بمثابة المساندة الأساسية التى ساهم بها الأمريكيون فى الفن الحديث الذى جردوه من أى معنى أو منطق ، ولم يقف الأمر لديهم عند حد «التجريد - التدمير» ، بل تجاوزوه إلى «الإفساد - التدننى» ، والتقاليع التى تغيب عنها قيم جمالية حقيقية ، هبوطاً بالفن والقيم معاً . أما فى فرنسا ، فإن التبدل قد تم بشكل سافر ، فى لوحات الفنان الألمانى المعروف باسمه المستعار «فولس» Wols ، والتى قام بتنفيذها فيما بين عامى 1946 ، 1951 . وقد زعم البعض أن الفن اللاشكلى قد وصل بالصيغ الجديدة إلى فجر ثورة جمالية لامثيل لها .

وفى حوالى عام 1950 انتشرت بدعة استخدام اللون على اللوحة من

الأنبوية مباشرة . إلا أن هذا الأسلوب الحرفي الذى لم تسانده أى مشاعر انفعالية سرعان ما خبا فى تكرارتيه . وإن انتهى الأمر فى نهاية المطاف بأن ابتلع فن التصوير ، ذلك الطعم المسمى باللاشكلى ، والذى أفرغه ممارسوه من أى كيان أو محتوى ، وغدا الأمر أمر لعبة لألاعيب لا تنتهى .

ومن الواضح جلياً أن الفن الحديث ليس فى الواقع إلا وسائل تقنية زخرفية ، خالية من المعنى ، وأنه لم يكتب له الاستمرار إلا بفضل تلك الأبحاث التشكيلية المزعومة المتضافرة ، والتي تساندها الدعاية الملحة والأموال المغدقة على لعبة مقصودة ، تبهر بما تزعمه من تجديد ، وتجاهد كيلا تقع ضحية ضيق إمكاناتها وحدودها ، لذلك تبارى الفنانون فى مضاعفة المواد المستخدمة ، وفى إخفائها أو مواراتها ، وذلك فى محاولة اختلاق أشكال جديدة . ورغم هذا فإن العين البصيرة تستطيع أن تدرك أنهم كلما تكالبوا لتلافى الرتابة والملل ، غاصوا فيهما وظهر الافتعال فى أعمالهم وتعددت ألعابهم فى زخم لا يحصى .

وحيال هذا الكم الهائل من الإنتاج ومن المسميات ، لا يمكن للمرء إلا أن يرى مدى الخلط الفنى الشبيه بقصر التيه .

إلا أنه على الرغم من ذلك الخلط وتدفق تيارات اللامعنى ، فإن اللعبة كانت مستمرة من خلال إغداق المؤسسات التى تديرها ، لطرح ومساندة «المهر» ، تلك التسمية التى راحوا يطلقونها على صنائعهم . وتعتبر حالة بولياكوف Poliakoff فى الولايات المتحدة الأمريكية من أشهر الحالات ومن أكثرها إيضاحاً: فبعد أن غاص بولياكوف فى الإهمال والنسيان حتى من زملائه ، هاهو يظهر فجأة فى عام 1954 . وهنا يقول راجون Ragon : «وسرعان ما بدأ يقيم الولائم والحفلات فى منزله .. ثم عين سائقاً بقبة لسيارته الرولزرويس . وأخيراً اقتنى حظيرة خيل سباق مثل مواطنه تريتكوفيتش Teretchovitch . إن هذا النجاح الباهر جعل كثيراً من المترددين يتجهون إلى الفن التجريدى ، ويأخذونه بعين الاعتبار» (112) .

وفى عام 1959 ، لم تكن أوروبا القلقة قد هدأت بعد ، إذ إن تجارب القنابل الهيدروجينية قد بدأت عام 1952 . وأصبح الاتحاد السوفيتى يمتلك القنبلة الذرية

عام 1955 ، وأنشأ فى ذلك العام نفسه حلف وارسو ، فى مواجهة حلف شمال الأطلسى ، الذى كان قد تم توقيعه عام 1949 ، إلا أن ألمانيا الاتحادية لم تنضم إليه إلا فى عام 1955 .

وفى ذلك الجو المتوتر على الصعيد الدولى ، يتم تحقيق تقدم مذهل فى تقنيات الأسلحة غير التقليدية . وعلى الصعيد الاقتصادى ، كانت اللعبة تتم بالانطلاقة نفسها . وكأن هناك رباطاً عضوياً بين المستويات المتعددة لواقع بعينه .

إن الموقف الاقتصادى الذى تميز بغياب الضرائب على فائض رأس المال ، أدى إلى إنعاش صفقات المضاربة ، كما أدى - فى الخمسينيات - إلى حمى اقتناء الأعمال الفنية . ومن جهة أخرى ، أدى ارتفاع أسعار اللوحات إلى تعميم عقود الاحتكار وتحويل الفنانين التجريديين إلى تجار . ولقد بدأت عملية رفع الأسعار بشكل مفتعل فيما بين وعى 1945 و 1950 . وتوضح ريموند مولان الأمر قائلة : «وكانت عملية الرفع حاسمة ، سريعة ، ومتزايدة من شهر لآخر ، فيما بين عامى 1945 و 1956 . واستمر تصعيد الأسعار حتى عامى 1959 و 1960 ؛ إذ تعد هذه السنة أعلى ما وصل إليه الانتعاش الاقتصادى» (91) .

من الطبيعى أن تكون عملية رفع الأسعار حاسمة ، سريعة ، وملحوظة ، بما أن الثناء على العشوائيات ، وإيادة المهارات الفنية جعل من العمل الفنى مجرد نتاج للصدفة والعفوية ، ولأوعى القوى الغامضة نتيجة للمخدرات وعقاقير الهلوسة ، كما أن البتر الإرادى لكل الروابط المنطقية والمهارات الفنية قد أصبح الناموس الذى وصل إلى ذروة الخلط فى الستينيات .

إن «الفن الحركى» Action Painting ، «وفن الحدث» Happening Art ، و«الفن الجسدى» Body Art إلخ .. ليست فى الواقع سوى إيادة قصدية للفن والمعرفة والقيم الجمالية بعامة . ولقد تمت الاستعانة بأكثر النظريات خطأ للمفاهيم ، وأكثرها تداخلاً وأكثرها لامعقولية لتفسير وتبرير وفرض «ثورة التجريد» أو ثورة الفن الحديث المزعومة ، وهى الثورة التى تم تتويجها بغزو مدرسة نيويورك لباريس كما أسلفنا القول .

فقبل منتصف القرن ، لم يعد الموضوع الذى يقدمه الفنانون قائماً على رمز شكلى أو لاشكلى ، أو تجريدى ، وإنما الرمز إجمالاً . فاستعانوا بكل الرموز وتنويعاتها التى لم يتم تصويرها ، وضاعفوها من المنطلق نفسه ؛ مما أدى إلى مشكلة الآلية والتكرارية فى الفن التشكلى . وهى مشكلة أدت بوادرها إلى خلط جديد ، بل وإلى عمليات تزييف جديدة ، حالت دون المحافظة على وضوح رؤية تطوّر فن التصوير .

وما أكثر الفنانين الذين أعماهم ثناء النقاد القائم على مساهمة المؤلف والذين وقعوا فى الفخاخ المنصوية ، فانساقوا عشوائياً فى مجال العتة ؛ إذ جهلوا المدى الذى يمكنهم معه استخدام الميكنة فى الفن . وهنا يقول الناقد الفرنسى رابيين R. Rabbin : «بعد فترة من التردد ، ورغم عملية التسويق الهائلة التى أحاطت بالفنانين المضللين فى الأبعاد الدنيا للفن ؛ أى فى العملية الميكانيكية التى يعملون بها بأسلوب شبه مجنون ، فإن ذواقه الفن التشكلى الحقيقيين تبينوا أخيراً خلف هذه المعدات والمواد المثيرة للدهشة أحياناً ، تلك الأشكال القديمة للتجريد ، بل وما هو أكثر من ذلك ، تلك الأشكال التى سبق واستهلكها مبتدعوها السابقون فى الماضى البعيد» (111) .

ومع ذلك فقد استمرت اللعبة فى تصاعدها .

فإذا ما كانت الخمسينيات تمثل مرحلة سوء التفاهم ، فهى المسائل تطرح بمزيد من الحدة والوضوح بعد ذلك بعشر سنوات ؛ إذ إن الأزمة الجمالية التى تفجرت فى حوالى الستينيات ، متوازية مع الأزمة التجارية ، كانت وراء الكثير من الخلط ، وإن تميزت بإدانة المذاهب الفنية التجريدية . «فأسرعوا بدفن الفن التجريدى ، الذى كان يبدو لممارسيه أنه بصحة جيدة» (111) .

وفيما بين عامى 1962 و 1963 عرف الفن التجريدى الانحسار بنسبة لا تقل عن 40٪ .، ذلك ما أعلنته جريدة «لى فيجارو» Le Figaro الفرنسية فى عددها الصادر فى 6 أكتوبر 1962 ، وإن أضافت أنه : «لأول مرة يقام فى متحف الفن الحديث فى نيويورك ، معرض للفن الواقعى Figuratif ؛ إذ إن أصحاب عديد من القاعات أصبحوا لا يساندون سوق التجريد إلا بشكل مفتعل» .

وانخفضت النسبة لتصل إلى ما بين 60% و 80% ، كما يوضحه المقال نفسه إذ يقول : «رغم مؤامرة الصمت الذى تلتزم به قاعات العرض التى لاتود انتشار هذا الخير قبل أن تنتهى من اتخاذ إجراءاتها . فمنذ الشتاء الماضى ، بدأ هواة جمع اللوحات - وهم عادة مايكونون مجرد مضاربين - يتشككون فى الأمر ، لقد بدأ الوضع يتضح فى باريس . ألم نر على يد السمسار ريمس Rheims ، لوحات لكل من سيناك ورنوار ومونيه ترتفع أسعارها بشكل مدي ، بينما لوحة الفنان ماتيو ، التى كانت تساوى مليونين منذ قليل ، لم تجد من يفتنيها بمبلغ ثمانمائة ألف فرنك قديم ؟ ومنذ ذلك الوقت وإيقاع الحركة يزداد . وفى الوقت الراهن ، فإن سوق الفن التجريدى قد انخفض إلى ما بين 60% و 80% .

ومن جهة أخرى . فإن مانشرته مجلة «فنون» Arts فى عددها رقم 888 ، بقلم شارميه R. Charmet يتميز بأهمية مزدوجة ؛ إذ إنه من ناحية يكشف عن حقيقة الموقف ، ومن جهة أخرى يوضح الاتجاه الجديد ؛ إذ يرى «أن الانتصار الرسمى للفن التجريدى كان واضحاً تماماً منذ عدة سنوات ؛ لذلك كان رد الفعل تجاهه عنيفاً . وها هى المؤشرات تتضاعف لدرجة أن الظاهرة تأخذ شكل المد والجذر» .

«إننا نعرف الآن أن كبار هواة الفن الأمريكيين والذين لهم ثقلهم الشديد فى السوق الفنية ، أمثال روبير لمان Robert Lehmann ، وروكفلر Rockefeller ، وهانتنجن - هارتفورد Huntington Hartford ، ودانيال برايت Danial Bright ، قد باعوا لوحاتهم التجريدية التى تعد بالمئات . إن قاعات العرض تفتح أبوابها فى هذا الشهر ، ولايمكننا عدم ملاحظة التقهقر الشديد لمعارض الفن التجريدى ؛ إذ إن عددها أقل من ربع المعارض ، بعدما كانت تمثل مايزيد عن النصف فى الموسم الماضى . ولقد تم منح جائزة مانجان Manguin الطليعية هذه الأيام . وكانت شروطها بالنسبة للمتقدمين لها جد واضحة ؛ إذ نصت على : «أننا نود منح هذه الجائزة لاتجاه واقعى ؛ لأننا نعتقد أن هناك تعبيراً جديداً سينبثق فى جيل الفنانين الذى نبحث عنه» .

«ولم تكن المؤشرات أقل وضوحاً لدى أصحاب النظريات ولدى النقاد ؛ فلقد

توصل واحد من جهابذة التجريد ، هو جورج دويت Georges Duthuit في كتابه العميق حول «الصورة المرضية» ، إلى إدانة جذرية للتجريد ، قوبلت بصمت حريص في الأوساط «الفنية» (42) . كما قام بازين Bazaine - وهو الذى كان واحداً من أعلام الفنانين التجريديين وكاتباً متعمقاً في الوقت نفسه - برفض اللاتشكيل بلا أى مواربة . وهاهى صيحة إحدى الصحف التى كانت تعد بمثابة منبر لأكثر الاتجاهات تطرفاً ، تكتب في عددها الصادر في 2 يوليو الماضى : «فى عام 1962 يبدو أن نوعاً من التجريدية الدكتاتورية قد كفت عن احتلال الساحة الرئيسية» .

«مما أثار العديد من التساؤلات : إلى أى مدى ستصل هذه المراجعة ؟ وما الذى سيحتل مكانة فن فى حالة أزمة شديدة ؟» .

وفى مواجهة لحمى الخمسينيات ، ارتسمت حالة حرص شديد منذ عام 1962 ؛ فقد قل الإقبال على التجريد بشكل واضح . وكان الأساس المباشر لأزمة نهاية العشرينيات هو أزمة وول ستريت Wall Street بلندن ، والتى تبعتها بعد ذلك بشهرين ، فى مايو 1962 ، حدث له مغزاه فى قاعة عرض سوزبى Sotheby ؛ إذ تم سحب لوحين تجريديتين من المزاد إحداهما للفنان ميرو Miró والأخرى للفنان ستال Staël .. وذلك لعدم تقدم أى مشترٍ لهما . وربما قال البعض إن ذلك أمر عادى ، إلا أن للمسألة وجهاً آخر يرجع إلى أمر محدد ، له دلالاته فى عالم المضاربة والاستثمار ، هو : تخلى بعض كبار هواة الفن الأمريكيين مثل لحيان وروكفلر وبرايت عن مجموعات لوحاتهم التجريدية ، كما سبق أن رأينا .

وللوهلة الأولى يبدو وكأن ملامح اللعبة قد تقلصت ، إلا أن حقيقة الأمر - كما سيتضح بعد حين - هى أنهم تخلصوا من مجموعاتهم لخفض الأسعار فى أوروبا ، ثم قاموا بفتح حوالى مائتى قاعدة عرض فى نيويورك لعرض أعمال الفنانين الأمريكيين ذوى الاتجاهات الأكثر تطرفاً !!! إن اللعبة ما زالت مستمرة وملامحها التى تغيب هونا تعود أكثر شراسة ؛ فإذا ما كانت أمريكا تقوم حتى ذلك الوقت بدور المشتري ، وهى مزودة بقوة شرائية تفوق السوق الباريسى ، فهأى قد أصبحت المورد لنفسها والمصدر الكبير لأوروبا ومختلف البلدان !

ولقد أثارت هذه القوى الأمريكية المنافسة الجديدة حملات مذعورة ، لم يسبق لها مثيل في الصحافة الفرنسية . وتمت إدانة هذه اللعبة الأمريكية بتقويضات شديدة من الاتهامات من قبيل : «الإمبريالية الأمريكية» ، «الطابور الخامس الأمريكي» ، «المؤامرات الخارجية» إلخ .. وعندما يختلف اللصوص يظهر جسم الجريمة ، ويتيح للمتابع أن يجد مايدل على مصادرها .

إن ماكتبه بارينو A. Parinaud عام 1964 لشديد الوضوح : «إن فن البوب PoP'art أشبه مايكون بسلاح سرى أنجلو أمريكي . ولقد لحق بعد عشرين عاما بخط سير الكوكاكولا نفسه ، كمحاولة لأمركة العقول والعادات . إنها لمنافسة شديدة ، لانتقل إمبريالية أو عدم رحمة عن الحرب الباردة ، التي ستحسم في غضون الشهور القليلة القادمة ، والتي ستحدد الكثير من الأشياء» (مجلة «جالرى للفنون» العدد 18 ص 9) .

ومنذ ذلك الوقت لم تعد أمركة العقول والعادات شيئاً مجهولاً أو خفياً . فلقد شهد عام 1964 الكثير من المعارك بين مدرستى باريس ونيويورك . وسرعان ما لاح عقم هذه الاتجاهات المتزاحمة ؛ إذ كشفت السهولة المفتعلة التي يعتمد عليها الفنانون الذين حاولوا الإثراء . ورغم ذلك ظل التجريد قائماً ، وذلك بمساندة السلطات الرسمية في معظم البلدان ، وقبلها دور تلك المؤسسات الخفية التي تمسك بخيوط اللعبة .

وما أن اندلعت ثورات الشباب عام 1968 في كل مكان تقريباً ، حتى ارتفعت علامة استفهام كبرى تتساءل عن غاية المجتمعات الأوروبية ، بل وتتساءل عن جدوى الحياة نفسها .

ولقد أدى إلى هذا الهرج والصياح مسيرة طويلة من الإجهاضات ، ابتداء من آمال عصر النهضة إلى الوعود الزائفة التي قدمتها العلوم ، وإذ ببعضها يطور أدوات الدمار التي بلغت أقصاها في العقود الأخيرة من القرن العشرين . هذه الوعود كان من نتائجها : تدمير الإنسان ، وتدمير البيئة بل وتدمير الحلم ! ، مما أدى إلى تلك الحاجة الماسة للبحث عن صلات جديدة بين الإنسان والإنسان (المجتمع) ، والإنسان والطبيعة (المجال) ، والإنسان والحلم (الأمل) .

ورغم أن مشارف السبعينيات قد شهدت عودة ما إلى أصول المهنة ، فإنها فصلت بين الشكل والمضمون ، وأهدرت قيمة المضمون لحساب الشكل ، وهكذا لم يدرك أصحاب تلك «اللعبة الدرامية الهزلية» - كما أطلق عليهم جان كلير - أنهم أتوا على مقدسات المهنة وأصولها بقضائهم على الموضوع ، وبتفضيلهم العشوائية الهستيرية ، واستخدام النفاهاة ، واستعراض الخزعات التقنية التي لا معنى لها . وهاهو يقول في كتابه المذكور آنفاً : «إن الفن الحركي التجريدي الذي ساد في سنوات ما بعد الحرب ، بدءاً من «بيخ» اللون الواحد إلى التجريديات الحديثة في السبعينيات ، يمثل عملية ضمور واضمحلال للفن لا مثيل لها . إن كم المعلومات والخبرة التقنية التي تراكمت عبر القرون قد انهارت خلال ثلاثين عاماً ، لتصبح مجرد ردود فعل عشوائية ، حقيرة . وما أكثر عدد الفنانين الذين أدركوا هذه الخسارة الضخمة وبدأوا يتعلمون اليوم المبادئ الأولية للفن» (26) .

ويقدر ماكانت هذه الرؤية واضحة لدى أولئك الذين استنارت بصائرهم ، فإن صنّاع اللعبة قد نجحوا في بليلة الواقع الاقتصادي السياسي ، ومن ثم ظهرت مواقف مختلفة لرجال السياسة حيال الأزمة : فلقد تنبأ بعضهم بالخروج من هذا المأزق ، وقال البعض إنها محنة طويلة المدى ، بينما راح فريق ثالث ينكر حتى وجود أي أزمة !

وتضافرت مع ذلك كله أزمة الطاقة ، ومشاكل البطالة والتضخم ، وعدم الاستقرار الاقتصادي ، والضغط التجاري إلخ ؛ فبدت الساحة الدولية ، وكأنها تمر بفترة إعادة ترتيب وتنظيم ؛ إذ انتقل مفهوم السياسة الجغرافية إلى ما أطلقوا عليه السياسة الفضائية الأكثر اتساعاً والأكثر شمولاً . وكان ذلك كله دافعاً أكثر شحذاً لاستمرار لعبة الفن ، والتي تمثل حجر زاوية في أيدي صناعها ، وإن دفعتهم الوقائع التي تفلت من خيوطهم إلى متجهات أخرى ، يستردون بها أي رقعة تخرج من أيديهم ، وهكذا كان عليهم أن يعيدوا ترتيب أوراقهم ، وبخاصة أن الدور الأمريكي كان قد تقلص نفوذه هوناً بعد ماكان في الثلاثينيات أكبر القوى العالمية .

لقد أفاق المجتمع الدولي على مشارف الثمانينيات ، وتجاوز مرحلة الشك في دور الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصبح يشير إليها بالبنان كمتهمة أولى

بسبب انكشاف أهدافها التي لم تعد تخفى على أحد .

لقد كانت الحضارة الصناعية الغربية في عام 32 تمر بأزمة حادة - كما سبق أن رأينا - إذ عانت من الضياع وغمات الرءوس ، واتخذ عدم اليقين فيها أحجاماً رهيبة ، وأصبح القلق من الانعكاسات الأساسية التي تمخض عنها هذا النظام الصناعى المنهار تحت وطأة الأزمة الاقتصادية العالمية ، التي انعكست آثارها - عبر صنّاع اللعبة - على الثقافة والفنون بعامه ، وحظى الفن التشكيلي بعناية خاصة في هذا السبيل . وفي بداية الثمانينيات ، لم يكن الموقف مماثلاً فحسب، بل تجاوز التطابق ليقود أكبر فوضى ثقافية يمكن تخيلها .

لقد بدا كل شيء وأهناً عابراً وضاعت أصول الأشياء، بل لم يعد هناك أساس لأي شيء . لقد طغت النمطية الشكلية المفروضة في كل مكان تقريباً ، وهي نمطية تؤدي إلى ضياع الأصالة التقليدية لكل بلد بشكل غير ملحوظ . عملية تخمر رهيبة تثير دائماً مشاكل الأوس، بينما يتم ارتجال مشاكل أخرى لاتقل افتعلاً، تساندها تنويعات لاحصر لها، تتسلل بالإيقاع النشاز الجديد ؛ لتحكم من جديد قوانين اللعبة .

وهكذا أخذ فائض غريب من النصوص واللوحات يفرق السوق ، وهو فائض إنتاج لا يتسق والطاقة الاستيعابية للاستهلاك ، لكن هذا الفائض كان جزءاً من اللعبة التي تصاعد نجمها في سماء مليئة بغيوم التنظير ، والمال المنهمر على أرض الواقع ليهدم البقية الباقية من نسق القيم ، ويهدر كل ما يتصل بالجزور والأصالة . وكيف لا يكون الأمر كذلك وصنّاع اللعبة لا أصول لهم أو تاريخ(*) ، وكيف لا يكون ذلك مصير الفن التشكيلي وهو المستهدف والوسيلة معاً ، وكان الفن التجريدي هو الأداة والمسيرة .

إن كان ما تقدم هو مثال الفن التجريدي إجمالاً وبعمامة ، فمن المهم متابعة مسيرته في أهم البلدان ؛ حتى نتبين ذلك التشابه فيها وذلك التماثل ، الذي يصل

(*) يرجع تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية علي سبيل المثال لأقل من ثلاثمائة عام .

إلى حد المطابقة في وسائل انتشاره في كل البلدان على اختلاف أصقاعها .

روســــــــــــــــيا :

وهانحن نبداً بروسيا ، فلقد تميز الفن الروسى فى القرن العشرين باتجاهات متباينة تأثرت بالموقف السياسى الاجتماعى للدولة .

ففى عام 1910 ، قام لاريونوف Larionov بتكوين جماعة طليعية ، عرفت باسم «فاليه دى كارو» Valet de Carreau . وفى ذلك العام نفسه ، قام كاندنسكى Kandinsky الروسى المهاجر إلى برلين بتصوير أول لوحة تجريدية . وفى هذه الفترة نفسها ، قام كل من ستشوكين Stoshoukine ، وموروسوف Morosof ، وهما من كبار جامعى اللوحات الروس ، بشراء لوحات مجموعة كبيرة من فناني الطليعة الفرنسيين ، منها لوحات لكل من ماتيس Matisse ، وبيكاسو Picasso ، وديران Derain .

وبدأ من هذه الحقبة ، بدأ الفنانون الروس ينحرفون إلى أكثر التيارات جسارة وتطرفا . ومن الغريب ملاحظة أنه فى بداية الثورة السوفيتية أخذت الحكومة تشجع هؤلاء الفنانين بترحاب ، وتسند إليهم مهمة قيادة المؤسسات الحكومية . وهكذا لعب كل من شاجال Chagall وكاندنسكى دوراً مهماً بإتاحتهم فرصة انتشار المذاهب التجريدية باتجاهاتها المختلفة ، وقاما بإنشاء متاحف لهذه النوعية من الفن ، وتم تكريس جماعات من الفنانين الداعين لهذه الاتجاهات .

وما أن أتى عام 1921 حتى غيرت الحكومة السوفيتية موقفها تماماً ، بعد ما أدركت الدور التخريبى الذى يقوم به هذا النوع من الاتجاهات التى لاتتفق مع الدولة الجديدة . وهكذا تبنت مذهب الواقعية الاشتراكية لتدين الفنانين التجريديين ، لذلك أثر معظمهم اللجوء إلى المنفى سواء فى فرنسا ، أو فى ألمانيا ، أو الولايات المتحدة الأمريكية .

وليس من الغريب ملاحظة أن هؤلاء الفنانين كانوا من أصل صربى أو يهودى ، وهامم يزددهرون ويؤسسون ما عرف باسم «مدرسة باريس» L'école de Paris ، ولندكر من هذه الأسماء على سبيل المثال : سوتين Soutine ، وكيكويين

Kikoine وزاك Zak ، وبوليأكوف Poliakoff ، وجاريل Garbell ، وشارشون Charchoune ، وكلها أسماء تكشف عن مساهمة الروس البيض في ازدهار حركة الفن الحديث بعد خروجهم من بلدهم ؛ الأمر الذى يتضح بجلاء عبر أولى المحاولات التجريدية وتطورها ، والتي لعب فيها هؤلاء دوراً كبيراً لا يمكن إغفاله .

فرنسا :

أما فى فرنسا فقد عرف فن التصوير انفصلاً متزايداً بين الجمهور والفنانين فى أواخر القرن التاسع عشر . ولقد قام نابليون الثالث بحسم الموقف حيال صرخات الاحتجاج التى أطلقها أعضاء لجنة التحكيم عام 1863 ، وقرر عرض الأعمال التى استبعدوها من العرض . وهكذا عرف جمهور «صالون المرفوضين» لوحة «الغذاء على العشب» للفنان مانيه Manet ، وهى اللوحة التى كانت تعبر عن الفن الحديث آنذاك ، والذى تميز بالابتعاد عن كل مايتصل بالواقع .

وفى عام 1874 ، يمثل المعرض الأول لجماعة التأثيريين أول شرح رسمى ، أو أول خط فاصل فى تاريخ تطور الفن الفرنسى .

وما أن أتى عام 1888 حتى كان جوجان Gauguin يقدم مذهب «السنثتيزم» أو التآلفية Synthétisme ، بينما أعاد سيزان Cézane بناء لغة فن التصوير من جديد . وتلا ذلك مذهب التأثيرية - الجديدة - Néo - Impressionnisme ، والرمزية Symbolisme ، والنابية Nabis ، ثم مذهب الحوشية Fauvisme ، الذى بدا فى وقتها أشبه بألعاب الصواريخ الصاخبة أو أكثرها صخباً فى ذلك الوقت .

ولقد اهتز جمهور المشاهدين برمته فى عام 1911 عند مشاهدة أول معرض للتكعيبيين بزعامة كل من بيكاسو وبراك Braque ، وقد اكتفيا باستخدام البعدين على اللوحة ، مستبعدين البعد الثالث ؛ مما اعتبر أكبر تطور ثورى تشكيلي منذ عصر النهضة .

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى تم فرض المحاولات التجريدية التى كادت تختفى فيما بين عامى 1911 و 1912 . وعاد صناع لعبة الفن ليغمروا

الواقع التشكيلي بأشكال متعددة، تستعيد أرضاً كانت قد فقدتها بقدر ماتستعيد اللعبة ضرورتها، وتظهر أسماء جديدة من قبيل مدرسة الفن الفطري Art Naïf ، التي تدخل الساحة بتجميع عدد كبير من الأنصار، وإن كانوا يحملون الأسماء نفسها !!

لقد أحدثت الحرب شرخاً عنيفاً ، سرعان ماتم استثماره وعلا الضجيج الصاخب ليملاً السماء بغيوم مذهب الدادية Dadaïsme ، الذي انتشر بشكل تخريبي على الصعيد الدولي منذ نشأته . ولم تكن الدادية سلاحهم الوحيد آنذاك ؛ إذ تعد السريالية Surréalisme واحداً من أهم المذاهب التي ظهرت في فترة ما بين الحربين ، والتي انتشرت مثل الدادية على الصعيد الدولي .

وابتداء من ذلك الوقت اختفت بعض القيم من المجال الفني مثل الوطنية ، والشخصية الذاتية ، والأصالة التاريخية ، والتراث القومي : ولم يعد ممكناً تحديد أى فرق فى الشكل أو فى أسلوب التعبير بين الفنانين فى أى مكان ، فلتحمل اللوحة توقيع الألمانى ماكس إرنست Max Ernst ، أو الكاتلانى جوان ميرو Joan Miró أو الرومانى براونر Brauner ، أو الفرنسيين تانجى Tanguy أو براك Braque ، ما من شئ قد عاد يفرق بين أعمال هذا أو ذاك أو هذه اللوحة أو تلك غير قراءة التوقيع !!

لقد ضمت مدرسة باريس خليطاً كبيراً كان جلهم من اليهود . ولابد أن نذكر هنا أنه عندما تم تكوين هذه المدرسة فى الربع الأول من القرن العشرين ، فيما بين 1905 و 1925 ، لم يتنبه لها أحد ، ولم يعيروها أهمية تذكر ؛ إذ كانت تضم عدداً ضئيلاً من الفنانين ، من أصل أجنبى هاجروا من أوروبا الوسطى ، إلى حى مونبارناس بباريس ، وإن ضمت شاجال Chagall وباسان Pascin ، وسوتين Soutine ، ومودليانى Modigliani ، ثم انضم إليهم بعض البولنديين مثل زاك Zack ، وكرينجن Krenegne ، وجوتليب ، والأكروانى مينتشن Mintchine ، والليتوانى ماكس باند Max Band . ويبين لنا شارميه Charmet فى قاموسه عن «الفن المعاصر» : «أن جميعهم كانوا من اليهود»!! (24) الأمر الذى لا يحتاج منا إلى تعليق لا يغيب عن فطنة القارئ ، دون أن نتهم بمعاداة اليهودية (التي نسلم بها ديانة) ، أو السامية (التي ترجع أصولنا إليها) .

وسرعان ما انضم إلى هذه الجماعة بقية الفنانين الأجانب المقيمين في باريس، مثل بيكاسو نصف اليهودي، وكل من جرى Gris وفوجيتا Fougita، اللذين ساهما في دعم هذه المدارس الحديثة وتكريس دورها؛ مما أدى إلى أن تبدو العاصمة الفرنسية وكأنها المركز الرئيسي الذي تدار فيه رحي هذه الاتجاهات؛ لتبذر مصائر الفن الحديث ونخالته في أراضٍ جديدة، تزرع فيها الشوك وتدمر قيمها.

لقد تأكدت ظاهرة إبادة الشخصية القومية بتكوين الجماعة المسماة «الدائرة والمربع» Cercle et Carré، والتي أشرنا إلى أنها تأسست عام 1939، وكان هدفها تجميع كل ممارسي الفن التجريدي. وتبع هذه الجماعة، في العام التالي - تكوين جماعة أخرى تحمل اسم «التجريد الإبداع» Abstraction - Création. لقد كانتا جماعتين مصنوعتين بأياد واحدة وإن بدتا متنافستين !!

وهكذا ما أن اندلعت الحرب العالمية الثانية وتهايا الواقع لتحقيق أهداف اللعبة حتى تبارى الفريقان - كل بأسلوبه - في المزايدة والمغالاة في لغة التجريد. فكان الجمهور ينظر مصدوماً، ثم يدير ظهره لكل هذه الاتجاهات، التي دخلت في لعبة جديدة مع النازية والاحتلال الألماني، واستثمرت دعايتها بعد ذلك لتبالغ في تصوير معركتها.

وفي حوالى عام 1960، كانت هناك عملية فصل تام بين الجماعتين، وإن توالى الجماعات التجريدية تحت مسميات متعددة في مختلف بلدان أوروبا، وكان قانون صناع اللعبة يقوم في هذه الحقبة على أساس سيكولوجي، يتميز بإيجاد صور من التعارض والتصارع بين التيارات المختلفة، التي لم تع أن فى التصارع البادى على السطح دعاية محسوبة ورواجاً متحققاً لأهداف واحدة، وإن تعددت تياراتها التى أكسبها التنظير المتعدد الأوجه والصراع فى ذاته إمكان البقاء، وتحقيق الأهداف المرسومة بعناية فى عالم تشكلى غاص بالمتدنى الذى تجذبه هذه الصراعات المحمومة عن الأصول الفنية الراسخة وتبحره إلى هوة مالهها قرار.

وهكذا تميزت هذه الحقبة بعدد لا حصر له من المذاهب التى تدير وتحكم

حلقاتها الأصابع الخفية التي استترت خلف الصراع وصنعتة وروجت له . وليس غريباً - والحال هذه - أن تكون مدرسة نيويورك في هذه الحقبة نفسها ، وهي تحمل في كنفها شقى الصراع (المتوهم) والتجارة معاً لينصهر في بوتقتها سباق مبادرة التجارب الفنية الآسنة ، على المستوى المحلى والصعيد العالمى .

ألمانيا :

أما فى ألمانيا ، فيمثل مذهب «دى بروك» Die Brücke ، أو القنطرة ، الذى تأسس عام 1905 ، نقطة انطلاق الفن الحديث . إن مؤسسى هذا المذهب الذى يشبه الحوشية إلى حد كبير ، كانوا ينوون الربط بين مختلف الاتجاهات المسماة بالطليلة آنذاك . إنها تلك الحقبة التى أصبحت فيها ألمانيا ، ولعدة سنوات ، من أكبر المستودعات الأوروبية لأعمال الشعوب البدائية .

وقبل ذلك بأربع سنوات ، قام كاندنسكى ، الروسى الأبيض الذى تجنس بالجنسية الألمانية عام 1928 ، ثم بالجنسية الفرنسية عام 1939 !!! ، قام بتأسيس مدرسته الشخصية عام 1901 والمعروفة باسم «فالانكس» Phalanx ، لكنه سرعان ما سيفضها عام 1904 ليقوم بجولة طويلة قبل أن يستقر فى مدينة ميونخ ، حيث سيقوم بتأجير شقة واسعة ذات أربع حجرات ، وهناك فى هذه الشقة ، سيكتشف لوحته المائية الشهيرة ، والتى كان قد وضعها مقلوبة ، وهو إذ يراها بهذا الوضع المقلوب ، تتم له عن صرخة دهشة ، ليدعى بعدها أن هذه اللوحة بوضعها المقلوب هى ملهمته ، التى أوحى إليه بإلغاء الموضوع من فن التصوير !! وبذلك افتتحت لوحة الألوان المائية هذه بداية عهد التخريب ، أو حكم التجريد كما يسمونه ، وبدأ هو بتكوين جماعة أخرى عرفت باسم «الفارس الأزرق» Der Blau . Reiter

وقامت هاتان الجماعتان ، بالاشتراك مع جماعة برلين المعروفة باسم «نيوسيزيسون» New Sezession ، بفرض الفن التجريدى فى ألمانيا عام 1912 ، عندما أقاموا ذلك المعرض الشهير فى مدينة ميونخ ، والذى تكدست فيه أعمال كل من بيكاسو ، وبراك ، وديران ، وديلونى ، ومالفيتيش ، ولوريونوف ... إلخ .

ولقد أدى الانهيار العسكرى لألمانيا إلى تهئية المناخ وانتهاز الفرصة من قبل صناع اللعبة ؛ كى تنتشر هذه الاتجاهات ويستقر دورها التخريبي . وفى عام 1919 قام الفنان جروبيوس Gropius بتأسيس «الباهاوس» Bauhaus فى مدينة فيمار - كما أسلفنا القول - ولقد قام بنشاط ضخم ومؤثر لنشر التجريد فى مختلف الفنون ، وإن خضعت كلها للروح التركيبية Constructivisme ، وامتد تأثير مدرسة الباهاوس هذه إلى العالم بأسره ، إلا أنها اضطرت إلى الانتقال إلى مدينة دساو عام 1923 ، حيث قام النازى بإغلاقها عام 1933 .

وليس من الغريب ملاحظة كيف أن معظم هؤلاء الفنانين قد لجأوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم كيف قام جروبيوس هذا نفسه بمساعدة كل من فايننجر Feininger وموهولى ناجى Moholy Nagy بتأسيس الباهاوس الجديد New Bauhaus فى مدينة شيكاغو عام 1937 .

لقد كانت أمريكا - وبحق - أخصب أرض للوافد الجديد ، لتعاون تتحد فيه الأهداف والفلسفة والرؤى ، وتذوب فى خصمه وتختفى المؤسسات التحتية ذات الهوى الواحد «تجارة بالفن (كأى سلعة) للتدمير» . وكان على العين البصيرة أن ترى فى هذا التوافق الجديد بأهدافه غير المعلنة ، التى لم يبد فى سطحها غير قشورها ، التى يقول عنها شارميه على سبيل المثال : «إن طموح هذه المنظمة ، كما هو معلن فى بيانها الافتتاحى ، يرمى إلى الربط بتوافق بين فنون العمارة والنحت والتصوير . بينما كانت نهاية البيان تحدد «إن هدفنا النهائى ، والبعيد المنال حالياً ، هو تحقيق العمل الفنى التجميعى ، العمل الأعظم Le Grand Oeuvre - حيث لن تكون به أى فوارق أو تمييز بين العمل الضخم والعمل الزخرفى» (24) .

إن مايلفت النظر ويستوقف الانتباه فى هذه العبارة التى استشهد بها شارميه فى نهاية البيان ، ليس ماتحويه من رغبة إذابة أى تمييز بين مجالين فنيين مختلفين تماماً ، ويشكل مسبق متعمد ، وإنما تعبير «العمل الأعظم» Le Grand Oeuvre المكتوب بالأحرف الكبيرة ، وهو تعبير ماسونى بحت ، سنعود إليه فيما بعد . ألم نقل إن الأهداف المعلنة قد صرفت النظر - حتى بعارضيتها - عن رؤية ما وراءها .

وفى كل الأحوال ، فإن وصول النازى إلى الحكم قد أنزل ضربة قاضية - غير مقصودة - بالفن التجريدى الألمانى ، الذى اعتبره الحكام الجدد «فناً منحلاً» وتم تحريمه . ثم قام النازى بحل مدرسة الباوهاوس التى هاجر أتباعها إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وما أن تضع الحرب أوزارها حتى يستثمر صناع اللعبة سنوات الضياع عبر إعلان محموم ومبالغ فيه لتصبح الخمسينيات نقطة تحول واضحة ؛ إذ إن أعمال ذلك الجيل ستندمج إلى الحركات التجريدية الدولية . وتكسب كل الاتجاهات التى صنعت تحت أعينهم - بما فيها تلك الاتجاهات التى مضت فى شوط التطرف لما هو أبعد - تكسب أتباعاً مخلصين ، فما أكثر العيون المغمضة منهم والمنساقة والتابعة ، وإن ظنت أنها تبدع الجديد .

إيطاليا :

أما فى إيطاليا ، فهنا هى قنبلة «المستقبلية» Futurisme تنفجر فجأة فى عام 1909 ، وهى الحركة التى بدأت فى مجال الآداب ، ثم امتدت إلى المجال الفنى التشكيلى ، وحاول فنانون المستقبلية التعبير بشتى الوسائل عن الديناميكية المميزة للعصر الحديث ؛ فقاموا بعملية انفصال تام عما يمثل الماضى ، مستخدمين الألوان بشكل عدوانى ، ومدخلين بعض العبارات أو المصطلحات على لوحاتهم !!

وبهذا المذهب الفوضوى ، وجدت إيطاليا نفسها فى طليعة الفن الأوروبى ، بقيادة مارينيتى Marinetti الذى تزعم ثورة المستقبل !! ولقد اتجه أولاً ليعلن عنها فى موسكو عام 1914 ، ثم بعد ذلك بعشرين عاماً راح يتغنى بها فى برلين !! .

وفى الوقت نفسه قام دى كيريكو De Chirico عام 1911 بالإعلان عن مذهبه فى «التصوير الميتافيزيقى» Pittura Metafisica .. ولحق كان دى كيريكو قارئاً نهماً لأعمال كل من شوبنهاور Schopenhauer وفايينرجر Weininger ونييتشه Nietzsche . ولقد تخيل نوعاً من الفن يمكنه التعبير عن ذلك الجانب الغامض فى الوجود الإنسانى ، أى بالتعبير عن الجانب الشبحى للأشياء ، وما هو يقول : «لكى يصبح العمل الفنى خالداً حقاً يجب أن يبتعد تماماً عن كل ما هو إنسانى ؛ إذ إن الصواب والمنطق يضرانه ؛ وبإلها من عبارات تخدم

صناع اللعبة ومحركيها .

لكن ما أن يأتي عام 1922 حتى يتفتت المذهب ليلتقى أعضاؤه من المصورين والشعراء في مذهب السريالية ، وباله من تحول !!

لكن هاهم فناني المستقبلية ينضمون في أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى الفاشية ؛ مما أدى إلى عرقلة تطور الحركة ، ومن ثم تبلور مذهب المستقبلية الثاني حوالى عام 1928 ، وإن لم يحقق ازدهاره إلا بابتعاده عن الخط الثقافى للفاشية وبالانضمام كلية إلى التجريد .

ومنذ عام 1933 بدأت معارض الفن الحديث تنتشر في إيطاليا ، إلا أن أول معرض شامل للفنانين التجريديين لم يتم إلا فى عام 1935 . ومع بدايات معارك الحرب العالمية الثانية بدأت قوة انتشار التجريد تعاني من بعض الجمود . وتم وقف المجلة الفنية «كورينتي» Corrente (التي تأسست عام 1938 والتي تساند هذه التيارات) فى العاشر من شهر يونيو عام 1940 ، عند إعلان إيطاليا على يد موسوليني مشاركتها لألمانيا فى الحرب .

وكالعادة ، هاهى التجريدية تستعيد أراضيها المفتقدة ، وتصل ذروة بريقها عام 1940 ، ومع الستينيات عرف التطور الفنى سرعة إيقاع فجائية مثلما حدث فى أوروبا . لقد غاص الواقع فى فيضان من التجريد ، احتل فيه مذهب البوب آرت الأمريكى مركز الصدارة .

إنجلترا :

أما فى إنجلترا فلقد تمت محاولة القضاء على فن التصوير الأكاديمى فى القرن العشرين مع تكوين «جماعة مدينة كامدن» Camden Town Group ، عام 1911 ، ثم «جماعة لندن» London Group عام 1913 .

وكانت الجماعة الأولى تهدف إلى العمل ضد موقف الفنانين والنقاد البريطانيين المناهضين للأفكار الجديدة السائدة فى أوروبا . أما الجماعة الثانية ، رغم أن وجودها كان عابراً ، فلقد أدت إلى الانفجار الثورى المعروف باسم «الحركة الدوامية» Vorticism ، والتي كانت ترمى ، على حد قول مخترعها

وينددام لويس Wyndam Lewis ، إلى خلق لغة نظرية لانتقل تجريباً عن الموسيقى .

ثم سادت أفكار وتيارات مدرسة باريس في إنجلترا في فترة ما بين الحربين . وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى وصلت أعمال فرانسيس بيكون Francis Bacon إلى ذروة انتشارها ، برغم كل ما تتضمنه من صور مقززة ومبتذلة ، ودافعة لليأس ، يدور معظمها حول الجنس وتخلص الإنسان من فضلاته الطبيعية ! وفي الخمسينيات ، اتسع حقل النشاط الفني فجأة لتستقبله المدرسة الأمريكية بصخب واضح وحفاوة بالغة يشيان بما وراءهما . ومن الطريف - والحال هذه - أن يتم نطق لفظ «البوب آرت» Pop Art في لندن لأول مرة فيما بين عامي 1955 و 1956 ؛ ليتم نقله بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع كل الازدهار المدوّى الذي صاحبه .

وليس من الغريب إذ نتابع تطور مذهب «البوب آرت» ، أن نرى كيف أنه قد نقل الكثير من مبادئ الكولاج الدادى ، مع إضافة بعض الملامح الشعبية للمدن الكبرى ليختلقوا لأنفسهم نوعاً من الجذور وشيئاً من التاريخ أو الأصالة .

اليهود :

ورغم الأصابع الخفية التي نرى فيها بوضوح - ضمن مانرى - مخالفات الصهيونية (عبر اليهود الذين يعتنقونها) ، فإن المساهمة الثقافية للشعب اليهودى - كما اصطالحوا على تسميته - فى مجال الفنون التشكيلية ، وخاصة فى فن التصوير ، كان يفترض أن تكون ضئيلة للغاية . ويرجع هذا الافتراض إلى الوصية الثانية من الوصايا العشر ، والتي يجئ نصها فى العهد القديم هكذا : «لاتصنع لك تمثالاً منحوتاً ولاصورة مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض ، (العهد القديم ، سفر الخروج ، الإصحاح العشرون) (*) .

(*) تجدر الإشارة هنا إلى أن فكرة تحريم فن التصوير وردت أساساً فى الوصايا العشر للدين اليهودي ، ثم نسبت تلفيقاً عبر «الإسرائيليات» إلى الإسلام .. إلا أن دراسة هذه القضية تخرج عن نطاق هذا البحث .

وكان المفهوم فترة طويلة أن هذا التحريم قاطع ، إلا أنه قد أثار فيما بعد عديداً من التفسيرات ، التي أدت إلى مولد نوع من فن الأيقونات ؛ لذلك سادت - حتى مطلع القرن العشرين - فكرة أن اليهود «شعب بلا فن تصوير» (الموسوعة الدولية لفن التصوير الجزء الرابع)⁽¹²⁴⁾ ، وإن أدت الأبحاث التي أجريت في مطلع هذا القرن إلى الكشف عن مقتطفات بعض النصوص ، التي تبيح التصوير ، ولكنها تحرم النحت .

ولقد بدأ فن التصوير اليهودي يتطور كمجال زخرفي في المعابد في العصور القديمة . وفي منتصف القرن الثاني عشر ، بدأت السلطات الحاخامية تمنع تصوير الحيوانات في المعابد ، وانحسر عمل الفنانين إلى زخرفة النصوص العبرية ، وكان أسلوبهم الزخرفي مطابقاً للأسلوب الزخرفي للبلدان ، التي تقيم فيها الجاليات اليهودية .

ومع مطلع القرن التاسع عشر ، الذي يسمونه «عصر تحرير اليهود» ، نلاحظ خطأ كبيراً حول فن التصوير لدى الجماعات اليهودية المتفرقة فيما أسموه الدياسبورا (الشتات) ، وفي كل الأحوال فقد حدث تغيير جذري حتى في تفسير النصوص المقدسة ، مادام اليهود قد بدأوا يسهمون في مختلف التيارات الفنية في البلدان التي يعيشون فيها - ومن ثم بدأوا يطلقون نفثات مذاهبهم في مختلف الفنون ، التي يجمعها في النهاية ، ما اصطلح على تسميته بالتجريد ، «لعبة الفن الحديث» ، وكانت لهم اليد الطولى في صنع اللعبة في مجال الفن التشكيلي .

ومع بداية القرن العشرين ، لجأ عدد كبير من اليهود إلى فرنسا ، وكان طبعياً أن يصبحوا أعضاء شديدي الحيوية والنشاط في «مدرسة باريس» . ثم ساهم هؤلاء المهاجرون أنفسهم في إرساء قواعد عدة مذاهب وتيارات - كما سبق أن رأينا - وأخيراً قاموا بإرساء قواعد فن تصوير قومي صهيوني ، مع إنشاء دولة الكيان الصهيوني المسماة «إسرائيل» . وهكذا تلاشى التحريم الديني لخدمة الأهداف الخفية التي يستخدمون فيها عديد من الأبرياء لتدمير تاريخ طويل ممتد للفن بدعوى التطوير والتجديد ، وهدم القيم الفنية الأصيلة ، وتحويل الفن إلى سلعة وتجارة ودعاية ووسيلة انهيار لكل قيمة جمالية ، ومن ثم «أنسقة» القيم بعامة ...

ويالها من معركة شرسة سلاحها الفن التجريدى ! .

وهكذا تركزت مساهمة اليهود فى الفن فى إشباع روح المذاهب ، التى كانوا ينشرونها .

وإذا ما انتقلنا إلى الكيان الصهيونى فى المسماة «إسرائيل» فى فلسطين المحتلة ، فإن تاريخ الفن فيها يرجع إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ، حينما هاجر بعض الفنانين جرياً وراء تحقيق الحلم الصهيونى . ولقد تم تأسيس مدرسة الفنون الجميلة «بيزاليل» Bezael عام 1906 ، أى فى ذلك العام نفسه الذى تم فيه تأسيس «متحف بيزاليل الوطنى»(*) فى القدس ، والذى أصبح جزءاً مما سمي «بمتحف إسرائيل» ابتداء من عام 1965 .

وبعد الحرب العالمية الأولى ، تكون مناخ جديد مع معركة هجرة اليهود الواسعة ، فقام طلبة مدرسة «بيزاليل» بإنشاء «جمعية الفنانين اليهود» عام 1923 ، التى تغير اسمها فيما بعد ليصبح «جمعية المصورين والنحاتين اليهود» ، وكان طبعياً أن يرددوا المذاهب التجريدية نفسها وتفرعاتها فى الخمسينيات ، ألم يكن صانعوها وأصابعها الخفية هم أنفسهم أبناء جلدتهم ؟

وبعد إنشاء متحف تل أبيب عام 1931 حدثاً مميزاً فى تاريخ فن التصوير بفلسطين المحتلة ؛ إذ إن كل المعارض المقامة فيه كانت على صلة مباشرة مع مدرسة باريس تحت زعامة سوتين .

وبعد استيلاء النازى على الحكم فى ألمانيا ، ومع هجرة عديد من فناني أوروبا الوسطى ليستقروا فى القدس ، كان هؤلاء القادمون الجدد من أولئك الذين تم تكوينهم فى «الباهاوس» أو فى غيرها .

وفى غضون الحقبة الممتدة بين عامى 1933 و 1943 ، كانت كل أشكال

(*) وهو المتحف المكتوب عنه فى «دليل إسرائيل» أنه «هيئة تابعة للمنظمة الصهيونية العالمية ، وتدعمها الهيئة التنفيذية للمنظمة بالاشتراك مع الوكالة اليهودية ، وتدعمه من الولايات المتحدة الأمريكية المؤسسة الثقافية الأمريكية الإسرائيلية» !! .

الفن الحديث ممثلة في فلسطين (*) . ويعد وصول مارسيل يانكو Marcel Janco ، الذي كان واحداً من مؤسسي الدادية في سويسرا ، بمثابة حدث تاريخي عام 1942 ؛ إذ قام بتأسيس ما أطلق عليه «قرية الفنانين» في «عين هود» ، وهي تعد من أكثر المراكز الفنية الحديثة نشاطاً .

ولم تؤثر الحرب العالمية الثانية ، ولا صعوبة الاتصال التي فرضتها على أوروبا على الحياة الفنية لدى يهود فلسطين . ففي عام 1948 تم تكوين حركة طليعية جديدة باسم «آفاق جديدة» . ولن تكف هذه الجماعة عن تنظيم المعارض المخصصة كلية للتجريد طوال خمسة عشر عاماً ، منذ إنشاء الكيان الصهيوني . وبذلك شاهدت الخمسينيات تكوين أول جيل من الفنانين ، الذين تم تكوينهم كلية في مدارس فلسطين المحتلة ، في خضم تعدد المذاهب التجريدية التي لم تكف منذ عام 1948 - وهو عام إنشاء الكيان الصهيوني - عن أن تكون هي بذاتها أشكال الفن السائدة المفروضة .

وتلا ذلك ، في الستينيات ، تدفق «البوب آرت» الأمريكي نفسه ، الذي ساد في مختلف البلدان .

وإذا انتهينا من تطور لعبة التجريد في الكيان الذي استولى على «أرض الميعاد» ، ذلك الوهم الذي حولته الصهيونية إلى حقيقة لتمارس أبشع استعمار استيطاني في التاريخ ، لدولة بلا تاريخ ، كان أبناء جلدتهم ركيزة الأصابع الخفية للقضاء على تاريخ الفن الممتد من قبل التاريخ ، وهانحن نكتفي في هذا الجزء بالإشارة إلى أمريكا ، التي يتسم تاريخ فن التصوير فيها بحدائث تكوين البلد ذاتها ؛ أي إنه يرجع إلى أواخر القرن الثامن عشر . ونظراً لأهمية الدور الذي لعبه على نطاق المجتمع الدولي ، ونظراً لصلته المباشرة والأساسية بأطروحة هذا البحث ،

(*) لم يشارك عرب فلسطين في هذه التجمعات ، فقد كان الوعي العربي في الثلاثينيات والأربعينيات في فلسطين شديد الإحساس بترائه ، ومن ناحية أخرى كان تواطؤ حكومة الانتداب البريطانية مع السكان اليهود علي قلة عددهم آنذاك باعثاً للريبة عند عرب فلسطين ، زائداً أواراً وضوح دلالة الحلم ، الكابوس الصهيوني ، وأخيراً كانت المواجهة مع الصهيونية في فلسطين عاملاً أساسياً في عدم مشاركة الفنانين الفلسطينيين في هذه اللعبة.

فإنى أرجئ دراسة تطوره إلى الفصل الأخير حيث يتصاعد لحن أخير يكشف تنويعات النشاز . ويكفى أن أشير هنا إلى أنه فى حقبة جد قصيرة ، فى لازمن تقريباً ، انتقل تطور الفن الأمريكى من مجرد التبعية الساذجة فى مذاهب الحضارات القديمة إلى السيادة المتميزة ، اعتماداً على التصدير والفرض . وبألها من مفارقة تتم دوماً على أيدى أولئك الذين لا تاريخ أو تراث لهم لتشويه كل تاريخ وكل تراث .

نظرة على بعض من تيارات لعبة الفن الحديث :

كان لا بد - فى ظنى - لإضفاء الوضوح اللازم لخط المسيرة الزمنية للعبة الفن الحديث ، أن نقدم نبذة تاريخية عن أهم تياراته ، وإن اكتفينا بالتعبيرية ، والدادية ، والمستقبلية ، والسريالية ، و«البوب آرت» .

التعبيرية :

ونحن إذ نشير إلى التعبيرية فى البدء ، فإنما لنبين كيف أن صناع اللعبة ، لعبة الفن الحديث ، قد استثمروا الطابع الفورى للتعبيرية لتنتقل خطاهم فى الاتجاه الخاطئ الذى نبرئ التعبيرية منه .

لقد قام الألمان بخلق كلمة التعبيرية Expressionnisme كى تعنى كل المظاهر الثورية للفن فيما بين عامى 1910 و 1920 ، وسأهم هرفارت والدن Herwarth Walden رئيس تحرير مجلة «دير ستورم» Der sturm بنشرها قبل وبعد الحرب العالمية الأولى .

ويعتمد هذا المذهب على تأكيد العنف التلقائى الثورى للتعبير الفنى فى الذاتية التشكيلية وتشويه الأسلوب ، كما اعتمد على أولئك الفنانين المتفردين المدفوعين عن طيب خاطر إلى حافة الجنون .

وكانت هناك موجة أولى قد ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وإن لم تكن لها صلة تقريباً مع تلك الموجة الثانية التى ظهرت فى مطلع القرن العشرين والتى ولدت فى ألمانيا ، ثم انتشرت فى فرنسا مع وصول الفنانين اليهود إلى

باريس ، وكان بعضهم - كما رأينا - مهاجراً أو مطروداً من روسيا . ويعد كل من مودلياني وسوتين وشاجال وباسان من أكثر الذين ساهموا في إرساء معالم هذه المدرسة الثانية ، ومنذ ظهورها اندفعت الأصابع الخفية لتستثمر الثورة ، التي أرهست بها التعبيرية ، والتي كان يمكن أن تتطور بالفن التشكيلي في مسارات حيوية ترتفع بروئ الفن إلى ذرى جديدة ، استثمروها في اتجاه معاكس لقيم الفن الذي كانت التعبيرية قد خطت به خطى واسعة في ثورة حقبة ، ولم تغفل المضمون ، بل أثرته وقدر لها عديد من الفنانين المبدعين المتفريدين ، حتى أن البعض يعد هذا المذهب بمثابة المحرك الأكثر دواماً والأكثر حيوية في الفن التشكيلي والآداب والموسيقى والسينما .

وهكذا تكشف لعبة الفن الحديث عن أهدافها منذ البدء ، عندما تستند إلى قوى الموجود في الواقع وتجنح به لحساب لعبتها ، بدلاً من أن يأتي الميلاد الجديد مولفًا Synthèse في اتجاه الأمثل .

ولقد وجد تيار التعبيرية في أمريكا بالعنف والحيوية نفسيهما ، كما انعكس على مختلف البلدان بصور متفاوتة من الحدة ، واستثمرت بذور نمائه التي كان يمكن أن تزهر شجرة خلود - وقد أزهرت بعض ثمارها عبر الأسماء الأولى الشامخة مثل فان جوخ - كي تصبح معول هدم ؛ ذلك أن التعبيرية كانت في وجه من أوجهها تطويراً للتراث ؛ فأصبحت على يد لعبة الفن الحديث بتجاره وصانعيه من أدوات هدم الفن وتدمير كل أصيل ، ضربة أولى لقطع الصلة بالتراث الفني ، ومعول هدم لقيمه الراسخة ، بدلاً من أن تكون تطويراً وإنماء وحلقة من حلقات التطور في مسيرة الفن وقيمه الجمالية .

لقد كان لمعرض «جماعة ميونخ» المقام في برلين عام 1892 وقع القنبلة في الأوساط الفنية والأكاديمية . وبدأت اللعبة مع نهايات الحرب العالمية الأولى عندما بدأ رد فعل عنيف ضد التعبيرية في ألمانيا . وما أن تأتت الحرب العالمية الثانية حتى يكون تأثير التجريد والسريالية قد تضافرا معاً ؛ ليمتخضا عن تيار جديد هو التعبيرية التجريدية L'Expressionnisme Abstrait .

المستقبلية :

أما المستقبلية Futurisme ، فكانت حركة فنية وأدبية فى آن واحد . وقد لاحت فى سماء الحركة الفنية الإيطالية عام 1909 ، واعتبرت أكثر المذاهب ثورية وحسماً آنذاك ، وذلك بتأكيدھا أولوية السرعة !! ولقد انضم الشاعر الفرنسى أبولينير Apollinaire وكتاب آخرون إلى هذا المذهب . وساد الشعر والمسرح بعض التعبيرات المستقبلية ، إلا أن الحرب العالمية الأولى أدت إلى تفتته السريع .

وكان مذهب المستقبلية بكل ماتضمنه من عنف وصراع ، ومظاهر صاخبة يزعم إلغاء فن الماضى ويطالب بهدم المتاحف . ويقدر اتسامه بالعنف والصخب كان تأثيره شديد المرارة ، ويكفى أنه يعد أول أشكال الدادية .

الدادية :

أما مذهب الدادية ، فيقع فيما بين التكعيبية والسريالية ، ولقد ولد فى مدينة زيورخ عام 1916 ، فى «كباريه فولتير» ، أثناء اجتماع لعدد من الشعراء والمصورين ، وكلهم من النازحين من مجتمعاتهم الأصلية أو الهاربين منها . ومع التسليم بأن الدادية ظاهرة ثقافية لايمكن فصلها عن الحرب العالمية الأولى ، فإنها بالغت - من خلال الأيادى الخفية التى استثمرت الواقع السياسى الاقتصادى - فى التعبير عن العدمية فى الفن بشكل جذرى لاموارية فيه . لقد كان المذهب فى البداية عبارة عن حركة احتجاج لبعض الشعراء والفنانين الشبان ضد عبث الحرب ، التى كانت قد قامت منذ سنتين بتحطيم كل آمالهم الأساسية - أو على الأقل ذلك هو ما زعموه وما استثمره صناع لعبة الفن الحديث .

إن روح المقاتلة والعنف الفوضوى الذى صاحب مولد هذا المذهب تكشف عن فوضى الروح العامة السائدة إبان الحرب ، كما تدل على الحاجة العاسة لخلق مجتمع مفلس اجتماعياً ومعنوياً .

أما من وجهة النظر الجمالية ، فإن هدف هذه الجماعة من الفنانين إنما هو هدم وإنكار كل الأشكال الفنية ، داعين إلى العبثية والفوضوية بشكل دائم . وفى الوقت نفسه الذى كانت تتم فيه هذه الأحداث فى باريس وفى ألمانيا ، كانت

الفوضى تتجاوز نطاق العاصمة لتنقلب إلى مظاهرات ثورية سياسية ، فقد كان طبيعياً ، وتبعاً لقوانين اللعبة وأساليب ومخططات صناعتها ، أن يسود المذهب نفسه ويحتفى به فى نيويورك .

لقد ظهر بيان هذا المذهب عام 1918 ؛ أى أثناء الحرب العالمية الأولى . ويعكس البيان تأكيداً لقوى الهدم والتدمير التى تطالب بها هذه الجماعة . وكانت المعارض الدادية المقامة فى كل مكان تدفع التعبير إلى حد السب والإباحية . وفى هذه الأثناء كانت تتولد تبعاً تيارات أو تشعبات أخرى ، وذلك مثل «الكولاج» Collage أى اللصق ، و«الفروتاج» Frotage أى الدكك ، و«الجراناج» Grataje أى الكحت ، و«الاسيمبلاج» Assemblage أى التجميع ...إلخ . وسيظهر جزء من كل هذه الوسائل بعد الستينيات فى مذهب «البوب آرت» ، ولم لا .. فدائرية اللعبة متصلة ، مهما تعددت حلقاتها وتنوعاتها .

السريالية :

ويعد مذهب السريالية ، الذى تلا الدادية ، آخر المذاهب الفنية التى رفعت شعار الثورية المزعومة فى القرن العشرين . ومثله مثل كل المذاهب الفنية انعكس أثره على الفلسفة ، والشعر ، والفنون بل والسياسة ؛ إذ اهتم أولاً باستكشاف منظم للاشعور والحلم ، ليس بغية أهداف فنية وأدبية فحسب ، وإنما بقصد غايات تزعم الثورية بما أن صناعه قد ادعوا أنهم كانوا يرمون إلى «تغيير الحياة» ، ولقد كانوا يريدون ذلك فعلاً ، لكن فى أى اتجاه كانت ترمى سهامهم ؟!

إن تاريخ السريالية يقع إجمالاً فيما بين عامى 1919 ، 1969 ، وإن كان البيان الرسمى للحركة قد أعلن فى عام 1924 . وعلى الرغم من نسب هذا المذهب من الناحية التشكيلية إلى الرمزية والتكعيبية .. فإنه ينتمى أساساً إلى الدادية من حيث إنه - هو أيضاً - قد استعان بالمظاهرات الموصومة بالعنف ، وبالثورة ضد النظامين الاجتماعى والأخلاقى . وترادف كلمة «الأخلاقى» شتى الأهداف الحقيقية للسريالية ، بقدر ماتشى رواهم الفوضوية بمراميمهم .

وفى عام 1929 ، قام أندريه بريتون André Breton بنشر البيان الثانى

للمذهب ، كما قام بفصل عدد كبير من أصدقائه ، ثم انضم إلى الشيوعية مع أراجون Aragon وإيلوار Eluard ، وكتب كتابه المعروف باسم «السريالية في خدمة الثورة» ، ولكن سرعان ما سيقترك الحزب الشيوعي ويتصل من انتمائه الماركسي .

وفيما بين عامي 1922 و 1929 ، تم تجميع عدد هائل من الفنانين تحت لواء هذا المذهب . ومنهم ماكس إرنست Max Ernst ، ومان رى Man Ray ، وأندري ماسون André Mosson ، وجوان ميرو Joan Miró ، وهانز آرب Hanz Arp ، وسلفاتور دالي Salvator Dali إلى جانب أسماء دى كيريكو ودى شان وبيكابيا وبيكاسو .

وفى غضون سبع سنوات ، استطاع هذا المذهب الذى كان قد صاغ برنامجه عام 1924 ، أن يجذب مثل هذا العدد الضخم من الفنانين ؛ مما يثير الفضول ، خاصة أن هذا التجمع كان أشبه مايكون بلواء من المحاربين فى كتيبة تتسم بمبادئها بالقوضى والتدمير ، ورغم ذلك كان تماسكهم - ولو إلى حين - حلقة تهدر بشعارات براقة وتعمق مجرى التمرد فى تشابك غريب ، وإن كان سهل التفسير ، عندما نعى طبيعة الدور والأيدى المحركة . لقد انقسمت الطليعة الفنية فى فترة ما بين الحربين بين السريالية ، وكانت عاصمتها باريس ، والفن التجريدى ، ومقره «الباهاوس» . إلا أن إغلاق النازى له عام 1933 - كما سبق القول - جعل الكفة تميل تجاه السريالية ، وقوى الجانب اللاشكلى للاتوماتيكية Automatisme التى سادت بشكل مطلق عام 1939 .

وابتداء من عام 1936 ، امتد انتشار السريالية على الصعيد الدولى حتى الولايات المتحدة الأمريكية . بينما ظلت ثلاث دول فحسب مناهضة لهذا المذهب وهى : ألمانيا هتلر ، وإيطاليا موسوليني ، وروسيا ستالين . وهكذا ما أن أتى عام 1938 حتى تم الخصام مع المذهب الشيوعى ، وكأنه لم يكن أمراً عفوياً أن يقوم أندريه بريتون فى ذلك العام نفسه بتحرير بيانه الشهير مع تروتسكى ، والمعروف بعنوان : «من أجل فن ثورى مستقل» .

لقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى نفى عديد من الفنانين السرياليين إلى

الولايات المتحدة الأمريكية ؛ مما نجم عنه ازدهار جديد فى القارة الأمريكية ، خاصة أن التجريدية الغنائية Abstraction Lyrique والفن اللاشكلى Art informel و «التأشزم» Tachisme أو البقية وغيرها من المذاهب قد استمرت فى تغذية هذه الانبثاق بقدر ما انبثقت عنها .

ومت تغذية أكثر الأشكال غرابة بشكل منتظم ، معتمدين على عناصر المفاجأة ، والفضيحة ، والبحث عن الإثارة الفورية والخيالات الجنسية ، وشذوذ الملذات الحسية ، وغزو الواقع بأعمال ناجمة عن الهلوسة والاضطراب والفوضوية .

وفى حوالى الستينيات ، ظهرت موجة جديدة من موجات الهدم الحضارى بواسطة الفن بانتشار ظاهرة «الردى مبد» Ready Made ، أو الفن القائم على الأشياء السابقة الصنع ، وظاهرة البوب آرت Pop'Art ، أو الفن القائم على عناصر شعبية ، وبالحا من أسماء . وإذا كان المصنّع سلفاً لاحتاج منا إلى بيان ، فإن فن البوب بزعمه لاستثمار عناصر شعبية ، يحتاج إلى بعض الإيضاح حتى لاتخذعنا كلمة شعبية .

البوب آرت :

يقع مذهب البوب آرت فيما بين عامى 1950 و 1970 ، وهو يعد بمثابة تطوير «الردى مبد» ، وهو نتاج للأيدى الخفية التى استغلت واقع الحضارة الصناعية . فلقد استعان هذا المذهب بمجالين : أحدهما يستخدم الأشياء الصناعية فى العمل الفنى ، والثانى يلجأ إلى أسلوب الصورة الدعائية التليفزيونية أو السينمائية وغيرها .

ويعد عام 1959 عاماً حاسماً بالنسبة للبوب آرت ، عندما قام متحف الفن الحديث فى نيويورك بتقديم معرض تحت عنوان : «فن التجميع» Art of Assemblage ، الذى تمخض عن عدة مذاهب ، مستعيناً بالمساندة التجارية ولعبتها الدعائية التى لم يسبق لها مثيل ، ليفرض سماته المميزة .

ولقد أدت بدعة «عبادة» الصورة الدعائية إلى تجميع نجوم هذا الفن فى

حشود مجمعة ؛ إذ تعد ضخامة اللوحة من علاماته المميزة ؛ مما أدى إلى التحدث كثيراً عن «ضخامة العمل ، التي لم تكن فى الواقع إلا ضخامة عدد أمتاره !

إن سوقية هذا الفن الذى تم فرضه على الجمهور بصخب وفظاظة عكست ملامح أخرى لها مغزاها الحضارى ؛ إذ إن عرض لوحات مكونة من علب الصفيح الفارغة ، وصور فتيات الإغراء ، والصدور العارية ، وشفاة تدخن ، وقطع ضخمة من «المخلل» أو «قراطيس البطاطس المحمرة» ، بل و«دورات المياه» بمحتوياتها ، ليس كل مايمكننا ذكره من العناصر التى استعان بها فنانو هذه الفوضى المبتذلة وقاموا بتوليقيها . إن مثل هذا الفن الأهوج يعد بمثابة صفة للذوق والمنطق والمشاعر النبيلة للفن والإنسانية ، كما أنه يعكس ، من جهة أخرى ، حقيقة المجتمع الاحتكارى الرأسمالى المتهرئ والمنحل الذى أنتجه .

لقد كان طبيعياً أن تنماشى السوقية المبتذلة فى اختيار الموضوع مع الأسلوب نفسه ، الذى كانت ترسم به اللوحات فى أمريكا . وهانحن نراه ينقل بشكل منتظم إلى البلدان الأخرى ؛ ليتألق فيها البوب آرت مصحوباً بالصخب نفسه والدعاية والمقالات النقدية والحفاوة المبالغ فيها و.. الأموال المنهزمة لفنانيه .

إلا أن كل هذه المذاهب المصنوعة والمتكررة إلى ما لانهاية سرعان ما أقل نجمها ، بعد ما أظلمت سماء الفن من ضباب سوء استخدامها . وكان هذا النوع من الفن الخالى من المضمون ومن المثل قد تضمن فى جنباته بذور هدمه ؛ فعلى حد قول فرانك إلجار Frank Elgar : «لقد ارتبط انهيار هذا الفن - رغم استخدامه لبعض العناصر الطبيعية - بالسهولة والاستسهال الذى كان يسمح به ؛ مما أدى إلى ظهور وتدفق عدد مهول من الفنانين الذين لادراية لهم بالأمر الفنية . ولقد تصافر كل ذلك لتهيئة الطفرة الفريدة ، التى أتت على العصر الذهب لفن التصوير اللاشكلى» (92) .

ولايمكن أن نغفل هنا أن الوسائل نفسها المستخدمة لنشر هذه المذاهب لعبت دوراً هياً الأخرى فى انهياره وأقوله ، وعلى الأقل بسبب المبالغة فى الإطراء التى عادة ماتؤدى إلى عكسها ، كما أن الإعلام المبالغ فيه بجانب الخواء الإبداعى ،

كان وبحق مأزقاً للأيدى الخفية وصناع اللعبة . وما هي هيلين بارملان Hélène Parmelin تقول في هذا الصدد : « لقد قاموا باختلاق العباقرة بشكل مفتعل ؛ إذ إن هناك دائماً بعض الأسماء التى تقف الصحافة حيالها دائماً فى حالة تردد ... وهناك أسماء لفنانين يتم الإجماع حولها بأسلوب أشبه مايكون بصرخة افتتاح ، وكأن الكلمات عاجزة عن وصف المكانة العليا التى يجب أن يوضعوا فيها ؛⁽¹⁰⁾ .

لقد استخدم صناع اللعبة وتحالفاتها الممتدة منذ بدايات هذا القرن تقريباً مختلف الوسائل ؛ لمدح كل ماهو غامض وغير مفهوم وفوضوى وعبثى ومموج وسخيف ومتدنٍ ، وتغوا بنظريات غريبة لامنطق فيها ، وتجاوز صهيلهم كل شوط فى دفع صبيتهم وصنائعهم فى الاتجاه الذى يهدر كل قيمة للموضوع ، مع فرض عدااء واضح على العقل والمنطق . لقد كانت حرباً متعمدة ترمى إلى خنق كل منابع التواصل الوجدانى ، واستخدموا أبواق الاتصال بكل أشكالها ليشيدوا فيها بكل غامض غير مفهوم ، أو متدنٍ يفتقد أى حسن جمالى أو حتى ذوق ، بقدر مايفتقد أى مثل أخلاقية أو معنوية .

لقد كانت حرباً قاهرة ومحاصرة لقيم الفن وجمالياته الراسخة ، التى استبدلوها بقيم ومفاهيم لا اجتماعية ولا إنسانية ، وبيدها وبين قمم الجمال - أو حتى عتبة الدنيا - مسافات ملاؤها بكل غث ومتدهور تحت اسم الفن التجريدى أو الفن الحديث . وقد استعانوا فيها بكل وسائل الإعلام لمدارة عملية النصب والاحتتيال الكامنة خلف هذا الذى أسموه بالفن الحديث ؛ فأنشئوا حشداً من المؤسسات مابين تجارية وإعلامية ، تواكبها أقلام نقدية وتنظيرات صاخبة فى سيل منهمر ومتجدد يدفع فى طريقه بكل ما هو أصيل . لكن هذا التخطيط الجهنمى لم يتمكن من اجتياح روح الفن الحقيقية إلى مالا نهاية ..

لقد نمت اللعبة حقاً ، وكانت لعبة شرسة فى حربها لكل القيم ، ومن ثم كانت الخسائر جسيمة فادحة ، وهنا كان مأزق التحالفات الشيطانية ، وإن كان من حق الشيطان نفسه أن يدفع عن نفسه نسبته إليهم - كان مأزقهم الفعلى أن القضاء على روح الخير والجمال ، التى ابتلعها المجتمع الدولى لايمكن أن يتحقق ، هيات للقوى الشريرة أن تنتصر ، فلم يخل الأمر من يقع ضوء هنا وهناك ، تحاول إعادة

ربط الحوار بين الماضي المبتور والتراث المقتلع ، بين قيم الفن الأصيل في تواصل حلقاته في ديالكتيك يبتعث الجميل والخير ، نقيضاً للـ Antithèse يخرج من زخم القديم ، وجماعاً أو ولافاً Synthèse يجدد روح الفن مضموناً يرتبط بالشكل ، وشكلاً لايفصل عن المضمون . وما أكثر الأيادي التي كان عليها أن تتكاتف وتجاهد في إصرار بقاماتها العالية ممسكة بشمس الحقيقة غير هيابة ، لتبدد ظلمات البدع المدمرة للقيم قبل الفن ، وللفن مدخل لتدهور القيم . وماذا يبقى للإنسان إذا اغتالت قوى الظلام شمس الجمال والخير وروح الإبداع الحق ؟!

وهكذا أظنه واجباً علينا قبل إنهاء هذا الفصل ، الذي كان «إلماحة تاريخية» كنظرة عجل على مسار تكوين الفن الحديث وعملية «غرسه» في أهم البلدان الأوروبية ، وبعض من المذاهب التي طرحها . وما أكثر ما أغفلناه ولن يغيب عن فطنة القارئ . أظن أنه قد يكون مفيداً أن نرى معاً كيف تم إدخال وفرض هذا الفن على المجتمعات ، وكيف استقبله الجمهور .

إن كشف الأسماء التي انبثقت من الفن التجريدي أو ماسمي بالفن الحديث يتضمن أكثر من مائة اسم لمذاهب وتيارات وروافد وحركات ومدارس !! وكلما حاول المرء مجرد الاقتراب من إحدى هذه البدع وفهم ماوراءها ، يجد نفسه حيال كم من النصوص الغريبة ، التي يغيب عن مضمونها أى فهم إنساني ؛ إذ هي عبث لفظي أو كلمات ضخمة ومصطلحات مشوبة بغموض مقصود وعبارات تتفلسف لتهدر معنى الإنسان وشرف الكلمة .

ومع الأسف ، فقد تدفق تيار بأسره من النقد المدافع لمجرد إبعاد ذلك التعبير الوحيد ، الذي يليق بكل هذه التجريديات وهو : «الافن» أو فن المحاولات الزخرفية العشوائية . فما أكثر المذاهب التي بدت كقفاعة عابرة ، ولم تكن أكثر من محاولة عشوائية لاقيمة لها ، لكنها حظيت بنصوص نقدية تساندها ولاتقل عنها بهلوانية . وما أكثر ما غصّ مجال النقد الغنى بهذه العبثيات من اللجوء إلى تعبير النقاء الصفاء ؛ لإضفاء صفة التقديس على بعض المذاهب التجريدية بمختلف تطبيقاتها ، ومن قبيل تعبير «الفن الصافي» Art Pur ، أو فن التصوير

الصافي Peinture Pure ، أو «التجريد الصافي» Abstraction pure ... إلخ . وهو موقف لانملك إلا أن نسأل حياله مع زاهر Zahar : «كيف يمكن التمييز وفقاً لهذه اللوحات لمعرفة من الصادق ومن المحتال ؟ فنظراً للتماثل الغريب المتكرر من شخص لآخر لانرى سوى حلقة كهنوتية مغلقة خلف هذه الفيارات» (142) .

ومع هذا الكم المبالغ فيه لتلك الكتابات المخصصة لشرح وتبرير ونشر وتثبيت دعائم الفن الحديث ، لا يمكننا إلا أن نسلم بصدق مع ملاحظة زاهر حين يقول : «إن الأعمال التافهة أو غير المفهومة وحدها هي التي بحاجة ماسة إلى عديد من النظريات والتفسيرات ، لإغراق عيوبها في مياه عكرة ، تحت زعم فلسفى ، لا يؤدى إلى إضافة بعض البريق على اللافقة» (١٤٢) .

وإذا ما كان من الممكن جداً استخدام لفظ «مذاهب» أو «مدارس» على ملامح الفن الحديث فى النصف الأول من القرن العشرين ، فإنه من المستحيل بعد هذا التاريخ تجميع هذه الملامح أو حصرها ، تحت مسمى واحد نظراً لتداخلها الشديد وتعددتها وتكرارها معاً ؛ فلم يعد هناك حالياً أى اتجاه محدد تتصدره جماعة ما ، أو أى مذهب بعينه يمكن التحدث عنه ، وإنما يبدو الوضع وكأنها مجرد روافد تخرج من روافد أخرى ! أى إن الوضع يبدو وكأن كل فنان يحاول اختلاق أجروميته التشكيلية واختلاق المواد والأشكال التى يود تجسيد انفعالاته من خلالها رغم المسخ والتكرار . وكانت النتيجة كمأ مهولاً من المفردات التشكيلية الموازى للكم نفسه من الفنانين تقريباً ، وإن أمكن القول فى تعبير واحد ، يبدو الموقف وكأن الفن الحديث برمته يخرج عن أى تعريف .

ورغم ذلك ، فيمكن استشفاف بعض الملامح الثابتة الكامنة فى كل هذه التيارات ، والتى تكشف عن قاسم مشترك ، هو : تشويه الشكل الإنسانى ، وانتهاك

شكل المادة ، ومحور وطنية فن التصوير وانتمائه إلى تراثه القومي (*) ، وتدمير كل قيمة جمالية وإنسانية بعامه .

ومن الغريب ملاحظة كيف تصافرت جهود كل هؤلاء الفنانين لمحو آثار مسيرة الفن الطبيعية وتحريفها عن مسارها ، تماماً كما قُصوا على آثار الطبيعة واختزلوها إلى أقل عناصرها الهندسية مما أوجد شرخاً عميقاً ، بل هاوية سحيقة في التطور المنطقي للفن التشكيلي .

إن التتابع السريع لهذه التيارات يكشف عما وراءها من أيادٍ تقودها عن بعد ، فرغم قصر مدة وجود أغلبها ، فإن تزامم كل هذه التيارات في تدفقها الذي لا يتوقف يبين كيف أنها مدفوعة بضرورة ماسة لا تكف عن التزايد والإلحاح ، ذلك التزايد والإلحاح والإعلام المحموم ، الذي لم يغير من طبيعة اللوحة ، الذي ظلت واحدة ، وهي : عملية خلط عشوائية لأمثل لها ؛ الأمر الذي تقف معه كل المعلومات التاريخية عاجزة عند محاولة فهم أو تفسير ما أطلقوا عليه : الفن الحديث أو التجريدي .

ولقد كتب جان إيلول J. Ellul عن حق عام 1980 في كتابه عن «إمبراطورية اللامعنى» قائلاً : «إن الفن الحديث قد صنع ليفرقنا في البشاعة والهلع والجنون والانحلال والردائل والوحل والسادية والمازوخية ، وما إلى ذلك من انحرافات . ولا توجد به أى سعادة حقيقية» (46) .

وهاهو الناقد جيمبل Gimpel يضيف قائلاً : «إن رغبة فناني الفن الحديث في المهاترة ، وافتعال اللجوء للشعور والتخلص من المتراكمات الحضارية وكأنها شيء منبوذ ، أدت بهم إلى اختلاق آلاف الأعمال عبر العالم ، منذ أكثر من

(*) لا يخفى علينا أن مؤتمر بازل ، والذي نوّدي فيه بإنشاء وطن قومي في فلسطين كان عام 1898 ، وكان وعد بلفور عام 1917 ، ومنذ إنشاء الكيان الصهيوني عام 1948 في فلسطين المحتلة وهم يبحثون عن تراث لهم في الأرض المغتصبة ، وهيئات أن يجدوه ؛ إذ كيف يوجد ما لا وجود له أصلاً ؟! وهنا ألا تستوقفنا التواريخ السابقة بقدر ما يستوقفنا محو كل تراث قومي وإنساني ؟!

خمسین عاماً ، وكلها أعمال لا تنقل شذوذاً بعضها عن بعض ، وتعتبر - بفضل نجاحها نفسه - شهادة لارحمة فيها عن تخلف روح النقد في الغرب، (64) .

ومن المحزن رؤية ماتوصل إليه فن الاختلاق ، هذا الذي يصعب وصفه بأقل من الإفراط في العبث والابتذال : ففي عام 1912 قام بيكاسو ببلصق بعض قصاصات الجرائد القديمة على إحدى لوحاته . كما قام براك في ذلك العام نفسه ببلصق بعض الشرائط من النسيج ، مقلداً بذلك جذوع الأشجار ! وقام جوان جري ببلصق قطع من المرايا ، واعتبرها رائعة لوحاته . وفي عام 1913 كان دوشان Duchamp قد وضع «مقود» دراجة على مذراة مقلوبة فوق كرسي مطبخ . وهاهو تاتلين Tatlin ، في روسيا ، يقوم هو الآخر عام 1914 بتعليق علبة من الصفيح بين بعض قطع الخشب والحديد والزجاج المجروش على لوحة متمعدة رديئة الصنع من الخشب .

وفي عام 1916 كتب دوشان على مشط شعر تلك العبارة الخالية من المعنى : «ثلاث أو أربع نقط من الارتفاع لاعلاقة لها بالوحشية!»، وأيضاً سمح له ذوقه الزرى أن يسميها لوحة !! وفي عام 1917 انتقى مبولة ليعرضها في صالون الأحرار في نيويورك تحت عنوان «النافورة» .. وكله تجريد ! وفي عام 1919 كان شفيتزر Schwiters قد صمم «أهم» أعماله الفنية ببعض المخلفات التي انتقاها من وعاء قمامة .. نعم «صفيحة الزبالة» التي أخذ منها النعال البالية والدوبار والأسلاك والخرق القذرة وأوراق الجبن وتذاكر الترامواي ... إلخ . وصنع منها إحدى خوالده التي تغص كتب النقد المواكب لهذا الفن بالإشادة بها !!

ومن المعروف أن الشاعر الفرنسي أبولينير كان قد حث الفنانين المحيطين به إلى أعمال بعينها تدمر كل روح للجمال والفن ، وهاهو يقول لهم : «يمكنكم التصوير بكل ما تريدون ، بالغليون ، بطوابع البريد ، بالبطاقات البريدية أو أوراق الكوتشينة ، وأجزاء الشمعدانات ، وقطع من المشمع والياقات المستعارة ، والورق أو الجرائد . إلا أن الأتباع قد فاقوا أمرهم ، وتخطوا نصائح سيدهم في ذلك السباق المعتوه الذي تحركه الأصابع الخفية وتدفع له وتحثي به ، وكأن شعارهم «مزيد من الابتذال» !!

إن النص الذى كتبته هيلين بارملان عام 1969 فى كتابها عن «الفن واللافنانين» تصف فيه أحد معارض الفن الحديث يعد مثلاً واضحاً على ذلك الابتذال : «إن كل شئ موجود ، من أكثر الأشياء حذقاً إلى أشدها سذاجة . إن البالونات تتطاير حول قصر من أعقد قصور التيه المصنوعة من الكهرباء الهندسية . أما فراغات المعرض فيملؤها الأشخاص المصنوعون من الكاوتشوك والذين يقفون على الأسرة ، والأقفاص المصنوعة من البلاستيك حيث تموج بداخلها أشياء لايمكن تبينها ، هناك اللافتات الكبيرة التى يطالبون فيها كل الزوار بتوقيع أسمائهم ، وقطع السكر المعلقة فى خيوط رفيعة ، وآذان ضخمة معلقة ، وكل الغرائب المصنوعة من النيون ، والضوضاء ، والحركة .

«أى إن المعرض عبارة عن مربعات وأشكال هندسية من كل الأشكال ، أضواء الكترونية ، وذبذبات يسمونها كونية ، هناك بوليستر وكريلون ، أجزاء من قطع الملابس ، أشياء محوطة ، خشب مصقول ، تماثيل ذات أساليب متعددة بحركها الترانزيستور عن بعد ، ألياف زجاجية ، ألواح من النحاس ، وقد عالجوها بالمتفجرات ، صمغ بوليستر ، أحبال مصنوعة من ألياف نبات عود الهند ، ورق فوسفورى ، فوانيس إضاءة متقطعة الإيقاع توحى بالحركة ، زجاج «مخريش» ، تكرينات يمكن نفخها بالهواء ، أشياء عديدة تزحف بطول الجائط أو تتسلقه ، ماكينات وأشياء مستوحاة من العلوم أو من العدم أو من العمارة المعتوهة التى ربما قد تنفع ذات يوم ... خليط غريب من كل شئ ومن أى شئ .. مجرد سوق صاخبة لأفكار غريبة !! (101) .

بعد هذا السرد الغريب لأشياء لاعلاقة لها بالتراث الفنى أو الحضارى للإنسانية ، فلقد وضع فنانون الجيل التالى نصب أعينهم تخطى من سبقوهم ، وباله من سباق يبدو أنهم لم يكتفوا فيه بكل هذا التشويه للفن والمهدر للقيم الجمالية والمنطق والمألوف ، فانساقوا فى عبث هدام ، مقتنعين بأنهم «يبتدعون» أعمالاً فنية .. وبالحال من بدعة !!

لقد أخذ فونتاننا Fontana يشق لوحاته بالسكين ، وقام نيكى سان فال Niki st. Phalle بثقب لوحاته بالبندقية ، أما إيف كلاين Yves Klein فلجأ إلى

قاذفات الذهب ، بينما سحق سيزار César هياكل السيارات القديمة تحت ضغط المكابس الصناعية الضخمة ، وفقت أرمان Armand آلات الكمان على قارعة الطريق من الدور السادس ليقوم بجمعها كعمل فنى !! بينما قفز رالف أورتيز Ralf Ortiz بقدميه على أشياء قديمة مصنوعة من الخشب المنخور ! ولجأ البعض الآخر إلى صناعة أعمال بمواد لم يسبق استخدامها فى تكوينات بصرية مثل بودرة البلاستيك ، أو ببقايا الأطعمة ، والنحت المعدنى النارى أو السائل . وتجاوزوا ذلك كله بالتصوير بالبراز .. وبالحا من رائحة عفنة ، لأيد عفنة ، ومصالح وأهداف خفية عفنة ، وفنانين غمرهم العفن ، وكانوا أدوات فى لعبة التدمير .

وهنا لابد أن يتساءل المرء : هل يمكن لكل هذا التدمير المتعمد أن يكون مجرد انعكاس بسيط لمجتمع آلى ممزق ؟ أم أن ذلك يعكس أبعاداً أخرى وأسباباً أكثر عمقاً ؟ إن السؤال يزداد إلحاحاً إذا ما نظرنا إلى التوقيت وتضافر الجهود لنشره .

لقد سبق أن أشرنا كيف أن مثل هذا «الفن» لا يكشف عن عمق أزمة المجتمع الذى نتج عنه فحسب ، وإنما يكشف بوضوح عن عملية احتيال مقصودة ، منظمة ، ومفروضة بمهارة تستثمر الواقع والوقائع إلى هوة بلا قرار ..

لقد كانت عملية احتيال شديدة التعقيد والتداخل مع كيان ذلك النظام السياسى الاجتماعى ومع لامعقولية الذين يديرونه . فعلى حد قول ج. إيلون : «إن الكشف عما يعمتل فى عصرنا من لامعقول ، وما يصنعونه من تضاد للفن يكشف عن لامعقولهم نفسه ، ويؤدى إلى تصرفات غير سوية . إنه ينتج نماذج صريحة وواضحة من الهذيان الجماعى ، وتسلب فكرة الموت ، وغياب أى معنى ، والرغبة المروعة فى التدمير . إن الفن الحديث هو فن النفي والعدمية ، أى إنه فن عدم القدرة على السيطرة على الموقف .. إن هذا الفن يعد الخراف للذبح . كما أنه صرخة دائمة يائسة تقول إنه لا يمكننا عمل أى شىء» (48) .

إن فن الهرب هذا ، فن الهذيان والهلوسة ، يبدو وكأنه يحمل بذور تمزقاته وتناقضاته إلى مالا نهاية - وهو ماسبق أن أشرنا إليه ، فهاهو يبدو كأنفجار يندفع تظليخه فى كل اتجاه ، عجيب من «أى شىء» و «كل شىء» متماشياً مع فكرة «ما

من شيء غير مباح ، . إن ثمة علاقة بين مدارسه وتياراته وروافده ، ألا وهى :
الاستخدام الأهوج للعناصر الأكثر سخفاً ، مما نجم عنه هذه الفوضى ، وذلك
الشعور بأنه ليس إلا مجرد أفئدة يلصقونها على واقع يودون حجبها ؛ الأمر الذى
بات بسببه مكشوفاً حتى أن مامفور Mumfort يقول : «إن هذا «اللافن» أو «ضد -
الفن» ليس غير مجرد أساليب لاستبعاد الجماهير العريضة ، التى روضوها على
الابتعاد عن الواقع حتى تركوا أنفسهم للذاتية الجوفاء ، فهم لا يكادون يدركون
خباياه .. إن العلامة المميزة لتجربة اليوم والمسماة «أصالة» ليست فى الواقع إلا
استبعاداً لكل ماهو خير ، وحقيقى وجميل .. ويفضل هجمات عدوانية ضد كل
ماهو صحى ، ومترن ، ومعنوى ، وعقلانى . وفى عالم القيم المقلوبة هذا يصبح
الشر هو الخير الأعلى ، إنه حقاً منطق مقلوب، (وارد فى 46) .

وليس هذا المنطق المقلوب - فى الواقع - سوى نتيجة لقلب لاحد له لكل
القيم الإنسانية . لقد أرادوا غرس هذا الوباء مستخدمين كل الحيل والأساليب التى
رأينا بعضها . وما أكثر الفنانين وكاتبى النظريات الذين حاولوا أن يجعلوا من
التجريد علامة مميزة للروح الإنسانى فى الوقت الذى يغتالونه فيه ، بل لقد ذهبوا
إلى محاولة إثبات أن هذا التجريد هو «أصدق ما فى الوجود» ، وأن له «جذوره
التاريخية» ، و«الدينية» ، و«الكونية» ، و«الفضائية» ، و«الموسيقية» ،
و«الصوفية» ، و«الميثولوجية» و«البدائية» و«الفلكية» و«الزراعية» و«الريفية»
و«السحرية» الشديدة الارتباط بالتراث والأساطير القديمة (*) ! باختصار ، لقد هللوا
ونظروا وتسللوا وأدعوا وما أكثر ما قالوا ويسهل كشفه ، لكن أخبث ما ادعوه وصدقه
البعض هو أن للتجريد مداً فى التاريخ ، وشواهد عليه ! مدأ وشواهد وهم ينكرون
الأصول ، وينادون بهدم كل الماضى .

ومع ذلك ، فلا أحد يجهل أن المحاولات السابقة التى يمكن عبرها
استشفاف شيء من التبسيط فى استكشافات بعض كبار الفنانين القدامى أو فى
الحضارات القديمة ، بعيدة كل البعد عن التجريد وفقاً لمفهومه فى القرن العشرين ،
بكل شطحاته وتوسعاته وتطرفاته والأيدى الخفية والتدنى المتمعد ، الذى لم يكن

(*) كل هذه الكلمات مأخوذة من موضوعات الكتابات التى صاحبت محاولة نشر التجريد !

موجوداً من قبل ؛ فالفن الحديث ، كوسيلة تعبير وكمحاوله للتخريب المتعمد والمهانة المقصودة لاسابقة له على مر التاريخ .

فأيا كانت الأشكال التي تم استخدامها عبر العصور ، في مختلف الحضارات القديمة ، وأيا كان ابتعاد العناصر المصورة عن الواقع ، فلم تكن أبداً تجريدية بالمعنى وبالمفهوم الحالي للفن ؛ إذ إن المضمون الذي لا يمكن فصله عن الشكل ، لم يستبعد مطلقاً بهذه القصدية التي تخفى وراءها أهدافاً أخرى .

إن ذلك التجريد النسبي ، المنبثق من فلسفات بدائية أو قديمة ، منذ العصر الحجري أو العصر البرونزي ، أو عند رحالة الاستب أو برابرة القرون الوسطى ، لم يكن أبداً هدفاً في حد ذاته ، وإنما كان دائماً نقطة انطلاق متسقة ومساوية بدرجة أو أخرى مع وسائل الإدراك ، والعقائد والتعبير في حدود درجة الوعي بالواقع الذي يمر به الإنسان .

إن الفن الإسلامي ، الذي يعتبر قمة التجريد ، والذي لا يعبر عن واقع فلسفي يرتبط بالعقيدة فحسب ، وإنما يعبر عن واقع طبيعي وحياتي ، نرى فيه وحدات الزهور والطيور أو الحيوانات النمطية . حتى العناصر الزخرفية الخطية التي يطلقون عليها «التجريد» ، سواء أكانت خطوطاً أم دوائر ، إنما هي ذات قيمة رمزية أو طقسية محددة ، قائمة على المركز والإشعاع ، ويتضافر فيها الشكل مع المضمون بلا انفصال .

وعلى العكس من ذلك كله ، هانحن نرى بوضوح عبر التجريد في الفن الحديث تلك الرغبة الملحة في قطع كل الروابط مع الماضي والتراث الحضاري والفكري ، ومعاول الهدم التي حققت نصراً مؤقتاً فيما هدمته . إن زاهر - وهو ممن كشفوا زيف هذا العبث - يقول : «لقد عرف الفن المسمى بالـ «تجريد» النصر المفاجئ للانتصارات المدوية ، وذلك بعد أن غلفوه بالعبارات البيراقية ، وساندوه بالحجج الدامغة ، وزينوه بالنظريات العويصة ، شاهرين رايات العشوائية والارتجال ، وكلها أسانيد غير مفهومة تماماً للعقل الإنساني . إن عنصر عدم الفهم هو الذي لعب الدور الرئيسي في هذا الموضوع ؛ فلكي يحرروا العقول من الفكر القديم المستأصل فيها ، بفضل فلاسفة المنطق ، لم تكن هناك وسيلة أخرى سوى

تفجير ذلك الحاجز المنيع مستعينين باللافهم، (142) .

لقد قام هؤلاء العلماء مخترعو النظريات، كما يطلق عليهم زاهر ، ببناء قصر تيه شديد التعقيد فى غضون أربع سنوات ، من 1946 إلى 1950 ، عاشت فى دهاليزه ، وتدفقت من حجراته الخفية موجات من أعمال الفن الحديث التجريدى ، الذى ولد رسمياً عام 1910 ، إلا أنه لم ينطلق فى انتشاره إلا بعد الحرب العالمية الأولى - كما سبق أن أشرنا . ولسنا فى حاجة إلى أن نشير من جديد إلى الوسائل التى اكتسب بها أراضيه وناسه ، والتى تواكب معها توافق محسوب وضار لشتى الوسائل فى مختلف المجالات .

لقد كانت معارض بينالى فينسيا ، وساو باولو ، أو باريس تعتبر بمثابة القانون الأساسى للعبة ، واتبعت المسابقات الدولية أو المحلية المثل نفسه ، وتبنت متاحف الفن الحديث فى مختلف عواصم العالم النظام نفسه . ولم تكن لجان التحكيم تقبل فى المعارض الرئيسية (الصالون) سوى مصورى التجريد ، قاصرين الجوائز عليهم ، لكى يوهموا الجمهور بأن الفن التجريدى أصبح ، منذ الآن فصاعداً، هو التعبير الوحيد وصاحب الكلمة العليا فى مجال فن التصوير .

ومع ذلك ، ورغم أن التجريد قد عرف البعض ممن صنفوا له من باب التحذلق أو الانسياق وراء الشائع والمكرر ، فإن الجماهير العريضة لم تقبله أبداً ، وكان ذلك أحد مآزق الأصابع الخفية ؛ إذ ظل يعرف على أنه فن الخاصة ، رغم أنه ما من أحد يجهل وجوده . فالدعاية لا تكف ، أخباراً ودراسات وحلقات بحث ومعارض وتجارة ، ورغم ذلك فإن فطرة المتلقى لم تسترح عيونها على رؤاه . وكان من آثار هذا كله على حد قول زاهر : «تساؤلات تحيط بغاية داكنة شرسة من المتناقضات ، حيث يلعبون فيها حالياً [النص مكتوب عام 1969] على المكشوف ، وسراً ، وعلى المقابر المفتوحة ، أكبر وأضخم مأساة هزلية عرفها تاريخ الفن . ترى لم كل ذلك ؟ لم ؟!! ، (142) .

لسوف نحاول الإجابة عبر أطروحة هذا البحث عن هذا السؤال الذى ذكرنا بعضاً منه فى الصفحات السابقة .

الفصل الثاني

جهاز الغش

الفصل الثانى

جهاز النش

خلال هذا الفصل سنرى عن قرب مختلف العناصر التى تكون الجهاز الذى كان بمثابة المحرك لمجال الفن والذى تم بواسطته التحول الرهيب الحزين والمأساوى معاً .

الفنان :

إن أول هذه العناصر ، مع الأسف ، هو الفنان نفسه ، الذى تحول بإرادته أو رغماً عنه ، من فنان مبدع إلى تاجر أو بهلوان .

فإذا ما كان تعريف الفنان يرجع إلى أواخر القرن الخامس عشر فإن معنى هذا اللفظ كما نعرفه اليوم يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر ؛ إذ إنه حتى العصور الوسطى وبعدها بقليل ، كان المصور يعتبر واحداً من العمال ؛ فقاموس الأكاديمية الفرنسية ، فى طبعته لعام 1694 يبين أن كلمتى فنان وحرفى مازالتا تحملان معنى واحداً كالقرن السابق تماماً . ولا نلتقى بتعريف لكلمة فنان ، بمعناها العصرى ، إلا فى طبعة عام 1762 فى القاموس نفسه ، حيث يتحدد تعريفها كالآتى : «إنه الشخص الذى يعمل فى فن ما ، حيث لا بد أن تتضافر فيه جهود عبقريته ويديه ؛ فالمصور والمهندس المعماري من الفنانين» .

ولم تتجل هذه الكلمة بأجمل معانيها إلا فى القرن التاسع عشر ، حيث اتسعت روعة الإبداع لتصف الفنان بأنه أشبه ما يكون بالفنار ، من ثم تقع عليه مهمة قيادة الشعب . فهو ينير السبيل للشعب بما يحمله من علم ومعرفة وبما يتمتع به من قيم وأخلاقيات تضعه فى مصاف الأنبياء . لكن هذه القيمة والقامة

الشامخة أهدرتنا تماماً فى القرن العشرين على يد صناع اللعبة الخفية ؛ إذ لعبت أموالهم وسياساتهم التى تخدم أهدافهم ذلك الأثر المدمر قضى على روح الفنان وإبداعه ، فبقى منه التاجر والمهرج متعدد الأقنعة .

لقد كان الفنانون ، على مر العصور ، يكونون جماعة اجتماعية مميزة ، وحتى من قبل أن يحظوا بمكانتهم الدالة على قامتهم ، فقد كانت قيمة الفن دوماً سبيلاً لدور محدد فى حضارة بلادهم ؛ إذ تقع على عاتقهم مهمة التعبير عن احتياجات وإمكانات مواطنيهم عبر أشكال ، تتميز بوضوح المعنى ، وتتسم برهافة الحس . لقد كان العمل الفنى يمتلك طابع الاكتمال ، طابع الكيان الواقعى الذى يجسد أهداف ورغبات المجتمع الذى أنتجه ، ويعبر عن وجدانه وآماله وطموحاته .

ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر أن علماء النفس والاجتماع قد استقرت دراساتهم على أنه يمكن التوصل ، من خلال العمل الفنى فى حقبة بعينها إلى المكونات الأساسية للعقل الإنسانى ، فى هذه الحقبة .. فالفن عبارة عن نظام من العلاقات ، يسمح بربط التجارب المعاشة فى العالم بالعناصر الناجمة عن المعتقدات والمعرفة وقوى الإنتاج فى المجتمع .. إنه أسلوب إنسانى ، بناء فوقى يلعب دوراً مزدوجاً ؛ إذ يؤثر على المجتمع بكل مكوناته ويتأثر به . وبفضل هذا الحوار المتبادل فإن كيان المجتمع يتجدد ، بما فى ذلك السياسة والاقتصاد ونفسية الجماهير .. إنه ركيزة أساسية فى البناء ؛ بناء الفرد والمجتمع معاً .

ومع ذلك ، فإن عملية الانفصال بين الفنان والجمهور ، والتى تميز الموقف الراهن لا ترجع إلى أيامنا هذه . لقد بدأ هذا الانفصال يتحدد فى أواخر القرن التاسع عشر مع بزوغ مذهب الرمزية ؛ إذ لم يعد الكتاب والفنانون يتغنون فى تداخل واحد ونغم محلق للتعبير عن أحاسيسهم ، لقد أصبح الكون بالنسبة لهم ، نوعاً من الإعراب عن رؤى الذات الخالصة ، أو نوعاً من الإسقاط ؛ بغية اكتشاف الرموز والتوافقات بين المرئى واللامرئى .

لقد أغلق غالبية المثقفين الرمزيين على أنفسهم فى برج عاج ، محددين غايتهم بأن القيم الجمالية يجب أن تظل عقيدة عدد ضئيل من المختارين والنخبة؛ مما أعطى الأولوية فى أعمالهم للحلم ، واللاشعور ، والحدس . وما أكثر الذين

انساقوا من بينهم ليغوصوا في تيارات غامضة أو شبه علمية كالجماعات السرية Esotérisme والغيبيات والصيغ البدائية .

أما في القرن العشرين ، فقد اتسع هذا الانفصال بين الفنان والجمهور بسبب الدور الاقتصادي والجانب التقني الآلي في التعبير التشكيلي ، الذي تم فرضه بعامل السوق التجاري والمضاربة ، وإن لم يكن ذلك كله إلا شكلاً ؛ لأن الأيدي الخفية التي وراء هذا السباق أكثر تعقيداً من ذلك .

إن الحديث الذي تم بين المصور الأمريكي مذرويل R . Motherwell في جريدة «الموند» الصادرة في يونيو عام 1977 يكشف عن ذلك التغيير الذي تم ، كما يكشف عن المؤامرة الإدارية الرهيبة التي تدير المجال الفني ؛ مما يعطى نموذجاً لذلك المجتمع التجاري ، الآلي التقني ، الذي أبرز هذه النوعية من الفنانين وأعمالهم .

إن مذرويل لا يكف طوال هذا الحديث عن اللجوء إلى المثل العليا ، ومحاولة استخراج ناموس منظم من الخواء الذي يحيط به ، والعودة إلى الطفولة وما أسماه بالثلقائية الإبداعية الخلافة ؛ إلا أنه ما أن يتعرض في حديثه إلى ظروف عمله حتى تتغير لهجته سريعاً ليعترف بصراحة مزهوة بأنه : «أشبه ما يكون برجال الأعمال ، فله أربعة مساعدين ، وسكرتيرة تعمل طيلة الوقت ، وتسعة أستديوهات يصنعون فيها لوحاته ، ومئات المكالمات التليفونية . وهكذا تفقد الصورة الملائكية براءتها وتفقد سحرها لتتحول في ذهن القارئ إلى مجرد مؤسسة تقنية تجارية للإنتاج بالجملة !

لذلك كتب جان إيلول بحق عن الفنان التجريدي في كتابه عن «إمبراطورية اللامعنى» ، قائلاً : «إنه مسبق التجهيز بدرجة كبيرة ، مثله مثل رائد الفضاء في كبسولته . فهو يعلم تماماً ما الذي يجب عليه أن يفعله في كل حالة وفي كل لحظة . إنه يعرف ذلك ؛ لأن الضرورة التقنية أصبحت بداخله ، وقد توحد بها بشدة حتى أنه لا يعبر حقيقة إلا عما شحن به . ومع تجهيزه في المستوى النفسي فإن المستوى الخارجى جهز وفقاً للضرورة الأيديولوجية المفروضة أو وفقاً للحاجة التجارية ، لذا فإن الفنان لا ينعم بأى قدر من الحرية :

إنه ينتج ما يناسب هذا الوضع المزيج بشكل أفضل» (46) .

أما جمبيل ، فيتحدث بمرارة أكثر عن الفنانين التجريبيين إذ يقول : «إن المرء يظن أنهم زاهدون في ماديّات هذا العالم . فهم يظهرون وكأن النقود لا تعنيهم . لكن ذلك مع كل أسف غير صحيح . فما أن يقترب النجاح من الفنانين المعاصرين ، حتى يتصلوا من كلمات ارتباطهم ومن عرفانهم بالجميل . وما أسهل أن يتخلوا عن التاجر الذي ساندتهم طويلاً بإخلاص ليرتموا في أحضان تجارة غيره ممن يقدمون لهم عقوداً أفضل أو أكثر سخاءً . وعادة ما يصبح الفنان نفسه هو خير تاجر ، ألم يعلن بيكاسو ذات يوم قائلاً : «واكتشفت أنني مصور أيضاً» (ضد الفن والفنانين 64) .

والأكثر من ذلك ، أن معظم هؤلاء المصورين سيهدفون إلى ما أسموه بنوع من السيادة الموضوعية الصافية العليا !! ولكي يصل الفنان إلى هذه الحالة المزعومة فإنه يضع نفسه في حالة لا وعى تامة ؛ ليقوم بتنفيذ أعمال غير مفهومة . بمساعدة سيل من الألفاظ الهاذية ، وكم من التحذلق اللغوي الأكثر تجريداً مما يرسمون . إن عملية الغش الكبرى هذه كانت تتطلب من الفنان أن يتخذ موقفاً متحذلقاً ، يضعه في منأى عن أى مقارنة وتبعده عن أى منافسة .

الأمر الذي يفسر ، إلى حد ما ، تدفق المدارس والمذاهب والتيارات التي تبدل فيها نهائياً دور الفنان ، ليتحول من إنسان مبدع حاد البصيرة ، مرتبط بواقع مجتمعه وقضاياها ، إذ هو ضميره الذي يسبق الأحداث ويتنبأ بها - إلى أن يكون مجرد ترس في الآلة ، أو خيط في الأصابع التي تحرك دمي اللعبة ، إذ وقع على عاتقه تنفيذ عملية الغش الكبرى التي تتم في عالم الفنون .

* * *

جامعو اللوحات وتجّار الفن :

إذا ما كان ذلك النوع من الفنانين الذين رأينا مثلاً منهم ، يعد بمثابة الدمية التي يتم تحريك خيوطها في لعبة الفن الحديث ، فمما لا شك فيه أن جامعي اللوحات والتجار والسماصرة هم محركو هذه الخيوط الذين نقابلهم في الصف

الأول، وخلفهم ، فى الصف الثانى - وهو الأوسع من ذلك كله - توجد مؤسسات وقوى ، توجد مجموعة أخرى أكثر تأثيراً وأشدّ حسماً فى هذا المجال .

قد لا نختلف فى أن الولوج باقتناء الأشياء والأعمال الفنية كان قائماً على مر العصور .. إلا أن هذه الظاهرة بدأت تتغير معالمها من منتصف القرن التاسع عشر، مع تصاعد الطبقة البرجوازية وتقليدها لأمراء ونبلاء العهود السابقة ؛ ولذا فإن أغلبية جامعى التحف أو الهاوين لها - اليوم - إنما يكونون مقتنياتهم بغية الاستثمار دون ذوق أو حس جمالى .

وما أكثر العناصر التى ساهمت فى التداخل المعقد المتشابك الذى لا يمكن فصله بين القيم الجمالية والقيم المالية . ذلك أن تطور الفن - وتعدد مذاهبه ، واختلاف الآراء والتقييم لمدارسه وتياراته ، وتشوش النقاد ، واللعبة المالية التى لاشك فيها ، والاحتكار والاستثمار ليست كل العناصر التى تمثل خلفية الفن الحديث الذى يحتل الصدارة ، ولا تمثل كل المعطيات التى حولته إلى مجرد تجارة . فهناك الأهداف السياسية والأغراض الخفية التى يمكن الإمساك بدلائلها ، من خلال ذلك الموج المتلاطم من زخم التيارات والروافد ، والذى تحركه قوى عديدة - علينا بأن نسلّم بأنها - أخفت خططها وتدققت بمؤسساتها .

ولقد كتب ريبمون - ديسينى Ribemont Dessaigne عام 1985 «آنذاك، من الدادية إلى المكان التجريدى» يقول عن يقين : «لقد انتهت اللعبة . إن سادة المجتمع هم المديرون الأقوياء لكازينو القمار الشاسع هذا . إنهم يمسون «البنك» ولا يسمحون لأحد اللاعبين بأن يفلسهم . يخيّل إلى أن عالم الفن كما نراه بأعيننا وكما ساهمت فى عمله لم يعد إلا عملية تفتيت بأوسع معانيها . إنها سوق للروبايكيكا حيث لا يمكن التمييز فيها بين ما هو مزيف ، وما هو قديم ، وما هو جديد» (122) .

إن خيبة الأمل الكبرى هذه ليست إلا تقريراً للأمر الواقع : إذ إن الفن الحديث - فى حقيقة الأمر - كان أكثر من مجرد كازينو للقمار . إن الأعبى هذه العملة التشكيلية الزائفة التى ساهمت فى التضخم ، وفى الرفع الجنونى للأسعار ، تكمن بلا أدنى شك كما يوضحه جازافا Guazava : «فى مخالفات اقتصادية

يعاقب عليها القانون ، قام بها تجار لا يمكنهم الإثراء إلا باللجوء إلى عمليات تخريب وقلب للقيم الثقافية والمعنوية ، التي وصلت إلى التطرف والعنف ، (احتياال الفن التجريدى) (66) .

لقد تمت عمليات الاحتياال هذه داخل دائرة مغلقة ، تجمع فى نطاقها الفنانين ، والتجار ، وجامعى التحف ، والنقاد ، والبنوك ، والمتاحف وقوى كبرى ومؤسسات بعينها إلخ . إن تصعيد استمرار اللعبة قد احتل مكان تقدير القيمة الجمالية للوحة ؛ إذ بدا استمرار اللعبة وكأنه قيمة فى ذاتها ، وبتعبير أدق أصبحت هى الكلمة الناهية ، أيا كانت قيمة العمل المنتج أو المتراكم . لقد حاصروا كل جميل وأصيل ينتمى للفن الحقيقى الذى يتلاحم بمجتمعه ، ويعبر عنه ويرسى فيه قيم الجمال ورؤى الوقع والمستقبل .

لقد بدّل هذا الاستمرار المحكم من طبيعة الفن بصفة عامة ، وجعل من الفن الحديث واحداً من أكبر مجالات المضاربة والابتداع لا الإبداع . وذلك بجانب تلك المعايير التى تنصدها ، وهى البورصة والممتلكات العقارية . وأكثر من ذلك ، إن الهواة المستثمرين لم يعودوا بحاجة إلى معاينة ما يقتنونه : إنهم يشترون ويبيعون تليفونياً - مثلاً يتم الاستثمار فى الكاكاو ، (ج . جرابان J. Grapin ، جريدة «الموند» الصادرة فى 23 مارس 1976) .

وما أكثر المضاربات التى تمت فى جلسات سرية فى عالم المضاربة الفنية التى أصبحت جزءاً من عملية الاستثمار ، لقد أصبح الفن الحديث باختصار تجارة الاستثمار والمضاربة الفنية ، ومن الصعب تخيل أرقام المبالغ الطائلة التى تدار بين آلاف التجار والسماسرة ، الذين يتعاملون مع الفن باعتباره بورصة !!

إن الدعاية الضخمة التى تتم فى الصحف اليومية حول المعارض التجريدية ، والأسعار التى وصلت إليها اللوحات فى المزادات العلنية تعد من الأسباب المباشرة للنمو البشع للإنتاج التجريدى ؛ مما أدى إلى النظر إلى العمل الفنى كسلعة دولية تنتج المكاسب والعملات الحرة . ووفقاً للأرقام الرسمية التى أوردها ريمس Reims فى كتابه الشيق عن هواة «جامعى التحف» ، فإنه يرى أن التصدير الفرنسى للأعمال الفنية تعدى مبلغ الستة ملايين فرنك عام 1981 .

إن هذا الرقم يمكن أن يكشف عن مضمون آخر ، حينما نعلم أن هناك خمسة عشر ألفاً من المصورين ، ومائة وخمسين ألفاً من اللوحات التى يتم تصويرها فى العام ، أى إن إنتاجية هذه الآلة العصرية تدور جيداً ؛ خاصة أن النظام التقنى الحديث يساعد على سرعة الإيقاع !!

لقد بدأ سوق اللوحات بما أطلقوا عليه فن التصوير الجديد ، أى أنه بدأ بلوحات التأثيريين ، من جيل فان جوخ ، وجوجان ، وسورا ، ثم جيل الحوشيين والتكعبيين .

ولقد وصف الأديب الفرنسى إميل زولا Emile Zola خبايا سوق الفن ، الذى أقيم حول التأثيريين فى روايته المعروفة باسم «العمل الفنى» . وهو سوق كبير الشبه بما يجرى حالياً من قبيل : اعتبار اللوحات مثل الأسهم والسندات ، فقد تدخل أصحاب البنوك ، كجزء من اللعبة فى طريقة فرض الفنانين ؛ ذلك أن الدور الرئيسى الذى يلعبه التاجر فى رفع الأسعار لا يمكن إغفاله . إلا أن البداية جرت فى نطاق ضيق جداً ، لم يكن شديد الارتباط بالنظام العالى للدولة ولا بسياستها . الأمر الذى سيتطور - فيما بعد - من خلال القوى التى تجمعها المصالح الواحدة والهدف الواحد .

ومع تكوين نمط جديد من تجار الفن ، تكون أيضاً نمط جديد من جامعى التحف ، الذين قاموا بتكوين مجموعات فنية بأقل التكاليف الممكنة . لقد فرضت القوة الشرائية لجامعى اللوحات وضعاً حاسماً على سوق الفن وكيفية تشغيله ؛ إذ إن المقتنين سواء أكانوا «مغرمين» فعلاً أم «متحذلقين» أم مجرد «مستثمرين» ، فإن ذلك لم يقلل من اتساع نطاق هذه الحركة .

لقد كان بعض جامعى اللوحات يقتنونها حباً ، أو من باب المنافسة ، لكن أكثرهم تمرساً فى المجال هم الذين كانوا يشترون اللوحة لإعادة بيعها بعد ذلك بقليل ، وقد تضاعف ثمنها عدة مرات .

ولاشك فى أن أقوى جماعة فى ذلك المجال كانت جماعة المليونيرات ، الذين يمكنهم شراء لوحات تحدد أسعارها بالآلاف . إن المجموعات الكبرى التى

تكونت فى فترة ما بين الحربين ، قام بتكوينها أحفاد الطبقة البورجوازية الكبرى المالية أو الصناعية أو التجارية للقرن العشرين ، والذين كان أكثرهم ثراء يقيمون فى الولايات المتحدة .

ولم تكن المنافسة التى تقوم بين كبار المشترين الدوليين من باب العبث ؛ فمن السذاجة افتراض أن رفع سعر لوحات أحد الرسامين فى مزاد علنى يعنى - من الناحية الاقتصادية - تحقيق فائض قيمة ، خاصة حينما يمتلك المشتري بالفعل مجموعة كبيرة من لوحات ذلك الفنان ، وليس من العبث أيضاً أن أغلى اللوحات فى يومنا هذا تقتنيها قلة من المليونيرات الدوليين ، الذين يعملون تحت شعار واحد هو : الشراء بثمن بخس لبيعه بثمن غال جداً ، بجانب أن شراء عدد كبير من اللوحات يمكن من فرض قوة تتحكم فى سوق الفن وتحكمه !! ورغم ذلك كله فإن علينا أن نرى أن عملية الشراء المنتظمة أو الكلية لأعمال أحد الفنانين قد تؤدي بتراكمها إلى أشكال بعينها من قبيل مايشير إليه ليونس روزنبرج Léonce Rosenberg ، إذ يقول : «حينما يقوم الشخص بشراء كل إنتاج فنان ما بشكل منتظم أو إجمالى ، فكأنه يحصل فى الوقت نفسه على الأعمال الجيدة والريثة . وعليه أتأكد أن يتخلص من هذا التالف بشكل غير معلن ، تاركاً للمصادفات مهمة إيواء هذه الأعمال المولودة مية ، الأمر الذى يجعل عديداً من المؤلفين ، فى يومنا هذا ، يعتبرون كبار التجار وكبار جامعى لوحات الفن الحديث قوى تمثل عناصر مافيا شرسة شديدة التغفل .

لكن ترى كيف تبدو مافيا التجار هذه ؟! إن الأرستقراطية الدولية لهذا المجال كانت تتضمن نماذج متباينة بدأت حتى عام 1914 بتجار ينتمون إلى جماعات اجتماعية ورأسمالية محددة تماماً من وارثى كبار الملاك الزراعيين ، وأثرياء الطبقة البورجوازية ، ثم انضم إليهم بعد ذلك حشد من رجال المال أصحاب البنوك والمصانع وكبار التجار .

إن ماكانوا يمتلكونه من رأس مال كان يسمح لهم باقتناء مجموعات بأسرها ، وكلهم كانوا على صلة بشبكة دولية من السماسرة والوسطاء ، الذين يحيطونهم علماً بخط سير سعر اللوحات . كما أنهم كانوا يمتلكون أقساماً منتظمة

للمعلومات والأرشيف والبيانات ... إلخ .

وما أكثر الأسماء التى تظهر على قائمة مافيا التجار هذه ، نذكر منها أشهرها على سبيل المثال : بول ديران رويل - Paul Durant (1831-1922) Ruel ، والذى يمثل النموذج الجديد لتجار الفن فى فرنسا . ولقد خلف والده عام 1865 ، وقاد أولى معاركه التجارية لصالح فناني مدرسة باربيزون L'Ecole de Barbizon ، ولكنه فقد عملاءه إبان هذه المعركة بسبب عديد من المصاعب التى أحاطت به ، ولانذكر منها إلا فترة انخفاض قيمة العملة التى اعترت فرنسا ، وكانت أزمة طويلة المدى عام 1882 ، أدت إلى إنهيار مالى عام ، لكن ديران - رويل لم يستسلم . لقد ضاعف مبادراته فى إطار مخطط ومرسوم ، فأنشأ عام 1869 «المجلة الدولية للفنون والغرائب» ، وبدءاً من الثانى والعشرين من شهر نوفمبر 1870 إلى الثانى من مايو 1871 ، أصدر جريدة أسبوعية باسم «الفن فى العالمين» .

وابتداء من 1883 ، قام بتنظيم مجموعة من المعارض الخاصة للفنانين الذين كان يسانداهم . وفى ذلك العام نفسه قام بعرض لوحات فنانيه فى كل من لندن ، وروتردام ، وبوسطن . وفى عام 1886 افتتح قاعة عرض جديدة فى مدينة نيويورك ، التى أصبحت ، منذ ذلك الوقت ، المركز الجديد لجذب تجار اللوحات الأوروبية . إذ إن أمريكا بدأت فى هذه الحقبة بنهم لا يحد لاقتناء كل تراث فنى يمكنها اقتناؤه .

وسرعان ما أصبح ديران رويل على رأس قائمة كبار تجار الفن الحديث ، للاحتكار الفنى الذى قام به بغرض أعمال لم تكن مطلوبة أو ذات قيمة ، حيث إن مخزونه المتراكم كان يسمح له بكسب الجولة النهائية . كما أنه كان أول من طبق ومارس نظرية احتكار لوحات فنان ما ، وذلك بالسيطرة على كل إنتاجه .

وإذا ما انتقلنا لاسم آخر فإننا نلتقى بفيلدنشتاين Wildenstein الذى يمثل فى هذا المجال مايعنيه اسم عائلة روتشيلد Rothschild بالنسبة للبنوك ، وإن كان واحداً مثل كاهنفيكر Kahnweiler بما يملكه من أربعة عشر ألف لوحة ، والتى قام بتسويقها ، لا يقل عنه أهمية ، حتى وإن لم يصل رصيده المالى إلى ما يملكه

فيلدنشتاين . ورغم ذلك فقد قام كاهنفيلر في مطلع القرن العشرين ، بتنظيم استخدام عقود الاحتكار التي كان يسن قوانينها بخطابات متبادلة ؛ مما دفع السوق لهوة نظام الاحتكار ، فباحتكاره كل إنتاج الفنان ، كان التاجر يجد نفسه وقد أصبح صاحب الامتياز المطلق في تحقيق عملية تجارية رابحة .

ومع اقتناعه بأن السوق قائم على عملية العرض والطلب ، وأن الطلب يتحكم في سعر السلعة ، فإن كاهنفيلر لم يرفع الأسعار بشكل جنوني ، ومن خلال خطة بعينها يصبح معها اسمه في السوق محل ثقة كبيرة وهو ماكانت دعايته تنفخ في أبواقها .. لقد كان يبيع اللوحات بالثمن نفسه تقريباً الذي اشتراها بها ، مع مراعاة المصاريف بالطبع !!

ومن أوضح الأمثلة على أسلوبه هذا ، والذي يحفظه له التاريخ ، ذلك المزاد العلني المعروف باسم «جلد الدب» ، والذي أقامه في الثاني من شهر مارس عام 1914 في مبنى دروه . ويمثل هذا المزاد حدثاً تاريخياً ؛ إذ إنه يعد بداية عهد الاستثمار الفني بأوسع معاني هذه الكلمة وبكل شراستها معاً .

لكن الحديث عن كاهنفيلر لايمكنه أن يحجب زميله الحميم ليونس روزنبرج Léonce Rosenberg اليهودي الفرنسي الجنسية الألماني النشأة ، والذي أصبح زعيماً يشار إليه بالينان من زعماء مدرسة الفن الحديث التي كان شديد الولع بها ، اعتباراً من 1908 . لقد كان يقاسم كاهنفيلر شغفه بهذه المدرسة ، إلى أن اضطر الأخير للانسحاب من السوق إبان الحرب ؛ إذ تمت مصادرة كل ممتلكاته باعتباره يهودياً ألمانيا ، واضطر إلى الرحيل إلى سويسرا .

وطوال عدة سنوات ، ظل ليونس روزنبرج ، اليهودي أيضاً ، وإن كان فرنسي الجنسية ، هو الوحيد الذي يمتلك ويتحكم في عقود ذلك الجيل من الفنانين الشباب ، الذين كانوا يحاولون إثبات وجودهم ومنهم جوان جري Joan Gris ، ليبشتز Lipchitz ، متزينجر Metzinger ، بيكاسو وغيرهم . ولكي يؤسس لتجارته ويدعم مكانته ويستطيع إغراق السوق ، فيما بعد بالمصنوع والمنتج تحت ناظره ، وفي الاتجاه الذي يدعمه ويروج له ، تبعاً للخطة التي يمثل إحدى حلقاتها ومتجهاتها ، جمعهم في دائرة واحدة معروفة باسم «جماعة المجهود

الحديث ، وقام بإخطار بنك لويد بخطاب موقع منه فى الثانى والعشرين من شهر نوفمبر عام 1918 ، لدفع أجور ثابتة كل ثلاثة أشهر للأسماء المرفقة بالكشف ، الذى قام رايمس بنشره فى صفحة 245 من كتابه المعروف باسم «جامعى اللوحات» . وهكذا أصبح الفنان أجيراً وخاضعاً لرأس المال وفى خدمة أهدافه !! (121)

أما حياة التاجر المعروف باسم لورد دوفين Duveen ، والذى توفى عام 1939 ، فهى لافتة للنظر بصفة خاصة . فقد استطاع دوفين ، حفيد أحد الحدادين اليهود فى قرية ميبيل Meppel ، فى أطراف هولندا ، أن يخلق أسطوره الذاتية وسط تلك الآلة الجهنمية التعقيد المسماة : سوق اللوحات .

وما من أحد ، فى هذا المجال ، يجهل المخطط الذى اتبعه مع عملائه ، من المليارديرات الأمريكيين بصفة خاصة ، لكن يكفى أن نذكر - لإيضاح مدى اتساع تجارته - أن جوزيف دوفين قد وصل أمريكا عام 1886 ، وكان فى السابعة عشرة من عمره . أما الثروة التى خلفها عند وفاته فتشهد على حيويته الاستثمارية؛ ذلك «أن التبرعات التى أهداها لكل من «التيت جالرى» Tate Gallery ، ومتحف «ناشيونال جالرى» National Gallery بلندن - والتى نال بفضلها لقب لورد - كانت قيمتها الإجمالية عشرة ملايين دولار . وكان رصيده فى البنك خمسة عشر مليون دولار ، كما كانت مجموعته الخاصة تقدر بعشرة ملايين دولار» (103) .

أى إنه ترك بعد وفاته مبلغاً يقدر إجمالاً بخمسة وثلاثين مليون دولار . وحينما نضع فى الاعتبار أن هذا المبلغ كان فى سنة 1939 ، فلنا أن نتصور فى مخيلتنا مايمثله حقيقة الأرقام !! .

ولكى نعرف طرفاً من عالم هذا الكيان المتصل بمجموعة اللوحات الخاصة بتاجر ما ، يكفى أن نشير إلى أن أى مجموعة من اللوحات لاتعرض أبداً برمتها؛ ذلك أن كبار المحترفين - وهو التعبير الذى استتب فى النصوص والوثائق اعتباراً من منتصف القرن العشرين - يمتلكون عدة مساكن خاصة ، ولوحاتهم مثل ثرواتهم لاتوضع فى مكان واحد أو بنك واحد أبداً ، وإنما تحفظ فى أماكن متفرقة ،

بعيد بعضها عن بعض ، بل إنه فى المسكن الواحد هياها أن علاق اللواها كلها معاً ، وإنما يتم حفظ أغلبها ملاصقة فى مازن مهبأة لذلك ، تحفظها بعيدة عن أعين الزوار .

ويعد تخزين اللواها ظاهرة عادية فى هذا السوق ، وله أهمية مزدوجة ، إذ إن ذلك لا يعنى فقط تكديس أعمال فنان ما ، وإنما يمثل نظاماً محكماً شديد الأهمية لمواجهة الموقف عندما تأتى الرياح بما لا يشتهون . وعندها فإن هؤلاء المحترفين يقومون بوضع مقتنياتهم «فى الثلاجة» على حد التعبير السائد فيما بينهم .

وأياً كان الأمر ، فمنذ الحرب العالمية الثانية ، لم يعد هؤلاء التجار يعبئون باللواها التى يشترونها ؛ فهم يقومون بوضعها فى صناديق بلا إطارات ، أو يكسونها فى إحدى غرف المازن ، فالأمر فى حقيقةه إنما يعنى فحسب معرفة كيفية الانتظار واقتناص الوقت المناسب ! ولقد استتب أسلوب هذا الاستثمار منذ أن أدرك بعض رجال الاقتصاد أن الفن أيضاً ، بل وأكثر من أى شىء آخر ، يعد وسيلة استثمارية من الدرجة الأولى ، كما سبق أن أشرنا .

إن تعبير «تاجر لواها» واسع المعنى ، من حيث إنه يتضمن عدة حقائق متداخلة ومتنوعة ، يمكن تقسيمها إجمالاً إلى نوعين : التاجر المقاول ، والتاجر المشتري ، وإن كان الفصل الدقيق بينهما يصعب فى كثير من الأحيان ؛ نظراً لأن عديداً منهم يقومون بالوظيفتين فى الوقت نفسه .

إن نوعية «التاجر المقاول» تمثل النموذج الجديد فى هذا المجال ، من حيث إنه يكشف ويساند فناناً غير معروف . فهو يراهن على إنتاجه برمته ؛ لتحقيق غاية بعينها ، هى : فرضه على السوق .

فبعد أن يقوم التاجر بتحديد المواصفات والمقاييس وفقاً للظروف العامة للسوق ، ووفقاً لإمكاناته المالية ، ووفقاً لاحتمالات العرض والطلب بما يتضمنه ذلك كله من معلومات متوافرة لديه من المؤسسات المعاونة ، يشرع فى تكوين فريقه الخاص من المصورين . وعادة ما يختلف حجم هذا الفريق من خمسة إلى

ثلاثين شخصاً على الأكثر . ولأن التجار يهتمون في مقام أساسي بالناحية الاقتصادية ، فقد كان يتم اختيار أفراد الفريق من جيلين من المصورين ، على أن يكون بعضهم من الأسماء اللامعة التي حظيت بالشهرة .

وبعد أن يقوم التاجر باختيار فنانيه ، فإنه يبدأ في عملية الترويج لهم والدعاية المنظمة لتلمع أسمائهم ؛ كي يحققوا الشهرة المرجوة ، واضعاً نصب عينيه أن يبتدع لهم اسماً ليصبح لتوقيعهم قيمة مالية في حد ذاته . ولكي يصل التاجر إلى تحقيق أغراضه بشكل ناجح ، فإنه يلجأ إلى تشغيل عدة عناصر في آن واحد ، وكأنه عمل أوركسترا ليضخم ، وإن كان عزفه نشازاً يفسد الذوق ويروج للأهداف الخبيثة الخفية .

إن التاجر من هذا الصنف يبدأ بتقديم المصور في معارض جماعية ، ثم ينظم له المعارض الخاصة ، ويساند أسعار لوحاته في المزادات العامة ، ثم يبدأ بتقديمه في المحافل الدولية ، مسانداً إياه بمختلف الوسائل الدعائية ، بدءاً من كتالوجات المعارض حتى جامعي اللوحات ، مروراً بالدراسات والمراجعات النقدية والضغط العلنة أو الخفية على أعضاء لجان التحكيم وتوزيع الجوائز !

وما أن يتم احتكار الفنان ، حتى يكون للتاجر كل النفوذ في السيطرة على إنتاجه - حتى وإن لم يعلن عن ذلك صراحة - وهنا توضح ريموند مولان كيف «أن بعض التجار لا يفلتون من الإغراءات ، فما أن يقعوا في براثن اللعبة حتى يذهبوا إلى نهايتها بالسيطرة الشاملة على إنتاج الفنان ، ويفرض نوع معين من الإنتاج» (91) .

وتعد ضرورة تكوين مخزون ما من لوحات الفنان ، والتحكم في عملية انتظار الفرصة المواتية التي يقومون باقتناصها بعد الإعداد لها ، من أهم الخطط التي يلجأون إليها ، وتعتبر محكاً لديهم في نجاح خططهم ؛ خاصة إذا ما قام التجار بشراء إنتاج فنان شاب يقوم بصنعه والدعاية له . وما أكثر تنوع الوسائل التي يستخدمونها للوصول إلى أغراضهم ، والتي يحركونها في تضافر غريب مع سياسة المرحلة التي ينتمون إليها .

لقد أدى المناخ العام أثناء الحرب العالمية الثانية ، إلى ضرورة تعديل هذا

النهج . فمع نشوة فترة الخمسينيات والستينيات ، حيث كانت اللعبة في أوجها ، اندفع التجار إلى أقصى درجات المضاربات القصيرة المدى لإشباع نهمهم في الكسب السريع الذى يتفق ومعطيات تلك الحقبة ؛ إذ إن هذه الحقبة كانت تتطلب ضرورة توزيع الأعمال وليس تخزينها ، سرعة الإيقاع وليس بطئه أو تجميده ، أو الاستثمار بعيد المدى بالإضافة إلى توسيع رقعة السوق ، وما صاحبه من دعاية وتنظيم مصرفى لكل أبعاد اللعبة ، وذلك كله بجانب تنظيم عملية التمويل اللازمة ، التى تلعب دوراً رئيسياً فى تحقيق الأهداف الخفية لتدمير نسق القيم والرباط الحتمى بين الفن والمجتمع .

لقد كان جامعو اللوحات المستثمرون ينظرون إلى اللوحة - بجانب ذلك كله - وكأنها الموازى البحت لاسم البورصة ؛ فيستعينون فى نشاطهم بحسهم الذاتى والحسابات المعقدة التى تقوم عليها المراهضات . بينما ظلت أكثر الأساليب انتشاراً هى عملية الاحتكار ، القائمة على دفع راتب شهرى للمصور مقابل الحصول على كل إنتاجه .

ويتزايد أنفسهم - مسبقاً - بهذا الكم من الإنتاج ، لايبقى أمام المستثمرين غير هدف واحد هو : نشر هذه اللوحات . فتقوم إحدى القاعات باحتضان الفنان وعرض لوحاته ، ويسانده الخبراء (مدفوعو الأجر) ، ويثار حوله نوع «من الجنون الذى يلهب خيال جامعى اللوحات ويؤدى إلى عملية شراء بالجملة ، وتنتهى مسرحية القربان المقدس التى يلعب فيها رفع الأسعار الدور الرئيسى . وبعد التوصل إلى فرض أو تحديد القيمة المالية المرغوبة ، يسارع التاجر ببيع كل ماله ؛ إذا كان الأمر يتعلق بعملية استثمارية سريعة ، أو ببيع جزء مما لديه ، إذا ماكانت الأغراض أكثر تعقيداً من ذلك»⁽⁹¹⁾ .

وعند اهتمامهم بإبراز فنان معين أو عمل محدد ، يقوم جامعو اللوحات من المستثمرين ببيع اللوحات وشرائها فيما بينهم ، مع رفع سعرها فى كل مرة . وتتلخص المشكلة بعد ذلك فى معرفة الوقت ، الذى يجب أن تتوقف فيه لعبة الكرة هذه ، وأى كمية من اللوحات يكون من الأفضل الاحتفاظ بها لإعادة استثمارها فى الوقت المناسب .

وفى هذا المناخ الشديد الالتواء والتعقيد ، عرفت مكانة المصور تغيرات جذرية ؛ فقد اكتسب فن التصوير مساندة مستميتة من التجار ، واختفى نصير الفنون القديم أيام الأرستقراطية ونبلاء البلاط أو البورجوازية الكبيرة ، فقد تغير البناء الطبيعي كما تغيرت خصائص كل طبقة مع بزوغ الثورة الصناعية ، فلم تعد البورجوازية ، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، بخصائصها القديمة نفسها ، إذ تضمنت خليطاً من رجال الأعمال ، والتجار ، والمهن الحرة ، والموظفين ، ورجال الصناعة ، كما بزغ نجم البروليتاريا التى وجهت بخطط شرسة ووسائل أشد شراسة ، كان الفن الحديث أحد وسائلها لعزل الجمهور الكبير عن الإحساس بالفن ودوره فى خدمة مصالحها . لقد أصبح اقتناء اللوحات وقفاً على أولئك الذين يمتلكون مايدفعونه ثمناً له .

وإذا ما كان نصير الفنون قديماً يقوم بإيواء المصورين ، فإن تعدد الاتجاهات قد سمح بتعدد مماثل من التجار ، الذين يرغبون فى تحقيق الثروات الضخمة ؛ لذلك كانوا يقومون بإبرام اتفاقيات مع المصورين بغية الوصول إلى صفقات رابحة ، فباحثناظهم بالمصورين تحت مخالبتهم بفضل هذه العقود المبرمة يوجهونهم كما يريدون ، وكأنهم كانوا يقومون بالدور نفسه ، الذى كان يلعبه النصير فيما مضى ، مع اختلاف الأهداف والأساليب والدور .

ووفقاً لهذه العقود التجارية ، فإن المصور يخصص كل إنتاجه للتاجر ، كما يحق للتاجر - وفقاً لصيغة العلاقة التعاقدية - أن يختار ما يروقه من هذا الإنتاج بالمبلغ الذى يحدده .

لقد كان الفرق بين سعر البدء عند تداول اللوحة ، والسعر الذى تنتهى إليه بعد هذا المطاف الرأسمالى الاستغلالى الاحتكارى جديراً بأن يصيب رعوس عديد من المصورين بالدوار . وفى هذا الصدد يقول ريبمون ديسنى : «إن الملايين تتراقص الروك أندرول، فى هذه اللعبة وفقاً للموضة . ومن غير أن نشط أو نجهد فى البحث كثيراً ، فما أسهل أن نرى هذا المهر أو ذاك ، أو هذه القاعة أو تلك ، فما هم أمثال مايت Maeght وكاريه Carré ودروان Drouin ، وقد بدءوا من لاشئ ، ليصلوا خلال بضع سنوات إلى أسعار ، بمقدورها أن تسمح بحياة من

الذهب الخالص بأوسع معاني هذه الكلمة . إن انتقال نيكولا دي ستال Nicola de Staël من الحقارة التافهة إلى الشهرة الفائقة لمن الأمثلة التي يسيل لها لعاب الكثيرين، (122) .

ولاشك أن سر النجاح ، في هذا المجال ، يكمن في القوى الشرائية ، إلا أنه أكثر ارتباطاً بالقوى الكبرى التي تتحكم في المبيعات .

ترى هل كانت مدام فالتر Walter تدرک عندما قامت عام 1955 بشراء إحدى لوحات سيزان بمبلغ ثلاثة وثلاثين مليون فرنك ، أنها بهذه الصفقة قد تجاوزت ضريبة المطرقة في المزاد لتطيح بالأسعار إلى آفاق ، لم تعرفها اللوحات من قبل؟! إن مثل هذ المبلغ المذاع علناً كان بمثابة علامة لعهد جديد . وهنا يقول رايمس في كتابه عن «جامعي اللوحات» : «إن مبلغ ثلاثة وثلاثين مليوناً من الفرنكات للوحة طبيعة صامتة متوسطة القيمة الفنية لدليل قاطع على أن كل شيء مباح في هذا المجال . لقد اخترقوا الحدود ، الأمر الذي يبدو واضحاً للجميع بصورة ملموسة وبشعة ، لقد أصبحت المسألة مجرد استثمار فني» (121) .

وازداد تغلغل مخالب الاقتصاد بدأب لاهوادة فيه بجسم الفن ، الذي بدأ ترنحه . وهاهو مثال يعد من أشهر الأمثلة على ذلك : لقد قام المصور بولوك Pollock بتصوير لوحته المعروفة باسم «القطب الأزرق» عام 1953 ، وتم بيعها بستة آلاف دولار . وبعد ذلك بعدة سنوات بيعت ثانية بمبلغ اثنين وثلاثين ألف دولار . وفي عام 1973 ، اقتناها متحف كامبيرا Camberra بمبلغ مليوني دولار!! نعم ، مليوناً دولار ، وهو ما يمثل أعلى مبلغ ، تم دفعه لاقتناء لوحة من لوحات الفن الحديث حتى ذلك الوقت .

وهكذا ، لم يصبح الفن مجرد قيمة مالية فحسب ، وإنما «قيمة متزايدة خرافية الأبعاد» ، أو كما يقول ج. ميشيل J. Michel في عدد جريدة «الموند» الصادر في 24 مارس 1976 : «إن سوق الفن بمثابة الدورادو (*) مالى . وأكثر

(*) إلدورادو Eldorado ، معناها : «الذهبي» : بلد أسطوري في أمريكا يضعه السكان الأصليون بين الأمازون والأورنيوك . ووفقاً للأسطورة ، فقد كان هذا البلد يغمض بالذهب . ولقد استلهم فولتير هذا الاسم وأطلقه علي إحدى رواياته .

الأمر إثارة فيه بالنسبة للمستثمرين الفرنسيين (على سبيل المثال لا الحصر) أنه غير خاضع للضرائب .

وهاهو كاتب المقال - السالف الذكر - يوضح في المقال نفسه بعد فقرات قليلة حالة ر. بيرفيت R. Peyrefitte ، التي تعكس إلى أى مدى «تحتوى هذه المهنة على أناس لا يمكن تصور مدى عدم نزاهتهم ؛ فهم يقلبون الثروات والأشخاص ، ولا يتورعون ، إذا ماسمحت لهم الفرصة ، عن تدنيس الأعمال ، الأمر الذى يحدث عادة وبأكثر مما يتخيل المرء .

إلا أن هذا الرفع المذهل لأسعار الفن التجريدى كان يقابله انخفاض بالقدر نفسه المتعمد للفن الشكلى أو الواقعى ، الذى يلتزم بالواقع الاجتماعى وقضايا الإنسان . لقد وصلت عمليات التزييف من أجل تهميش قيمة الفن الواقعى للفنانين الذين تمسكوا بأصالتهم ودورهم وفهمهم الواقعى لقضايا الفن ، ولما يزالوا على قيد الحياة إلى نسبة 7500% ! وهاهو المصور لاسكو Lascaux الذى كان متعاقداً مع كاهنفييلر قد حددت قيمة عقده بنسبة ثقل خمسا وسبعين مرة عن تقديره لبيكاسو .

ويقول جازافا Guazava بهذا الصدد : «باستخدامه هذا التحايل مع لوحات الفنانين المعاصرين والذين يتبعون الاتجاه الواقعى ، رغم إنتاجهم المحدود ، فقد كان كاهنفييلر يقلل من قيمتهم أمام الجمهور . بما أنها أعمال لا إقبال عليها فى السوق ، ولا يحق لها أن تأمل فى الحصول على فرصة سعر معقول إلا بعد قرن أو اثنين . لذا فمثل هذه اللوحات لا تباع إلا بأسعار رمزية ، لأن شراءها يمثل ضياعاً أكيداً لأموال من اقتناها إذا ما أراد بيعها ثانية ... إن الفنانين الأصلاء الذين يتبعون الطريق الصعب والشاق للجهد الإبداعى والذى سلكه أمثال مايكل أنجلو ، وروبنز ، وجويا ، لن يتمكنوا من بيع أعمالهم الفنية القيمة بالأسعار التى تستحقها ، ما دام هناك أمثال كاهنفييلر وشركاه . أولئك السماسرة المزيفون الذين يسيطرون على الأسعار المفتعلة ، التى تسمح بأن يحل وجه القبح بوفرته محل الفنون الجميلة وننعم برفع الأسعار» (65) .

لم يكن جازافا وحده الذى كشف عن تلك اللعبة المفتعلة للتقليل من قيمة الأعمال الفنية الصادقة بشكل تخريبي متعمد ؛ إذ إن رايمس - وهو أستاذ القانون

بالأكاديمية الفرنسية - كتب عن جحيم تلك الخدعة المفتعلة لرفع أسعار الفن الحديث فى فترة ما بين الحربين ، إذ يرى : «إننا نشهد الأقول المخيف للفن التقليدى ثم اختفائه تماماً من السوق . ولقد انخفض سعر هذه الأعمال إلى درجة لا يتصورها عقل ، بحيث أصبح من المستحيل أن نرى اليوم أعمالاً مهمة للفنانين الواقعيين المعاصرين ، وهو أمر طبيعى (فى ظل المؤامرة) ، وإن كان يزيد من تعثر خطواتهم» (121) .

ومما لا شك فيه أنه كان تعثراً ، بل وإلغاءً متعمداً لقيمة الأعمال الواقعية ، ذلك أنه فى فترة ما بين الحربين قد تفاقمت القوة الشرائية الضخمة للأعمال التجريدية ، والتي امتدت حتى عام 1962 ، فقد كان الصراع على أشده ؛ إذ تضافرت جهود التجار والنقاد الذين يساندون الفن الحديث لاتباع سياسة تجاهل الفن الواقعى .

وكرد فعل طبيعى ، كان الذين يساندون الفن الواقعى يتحينون الفرص ، كلما سنحت لهم الظروف ، للكشف عن خبايا عمليات النصب ، التى يقوم بها تجار التجريد والمؤسسات المساندة وأتباعهم من نقاد ورجال إعلام بل ودول - كما أسلفنا القول - فاضحين خاصةً ذلك الجانب الأمريكى والدور الرأسمالى الاحتكارى السياسى ، الذى بدأ يتضح تدريجياً مع مضى السنين ؛ الأمر الذى سنتناوله بشئ من الاستفاضة ، مقترين من أبعاده ومكوناته الأساسية فى الفصل التالى .

الدعاية والإعلام :

ورغم ذلك ، فلا يملك المرء إلا أن يتساءل ، كيف تم تنفيذ هذا الارتفاع الخيالى لأسعار التجريد ؟ إن الإجابة تتضمن عديداً من المجالات التى لم يعد من الصعب الكشف عنها من قبيل : الدعاية ، والإعلان ، ووسائل الإعلام وغيرها . وها هو جوستاف لى بون Gustave Le Bon فى كتابه عن «سيكولوجية الجماهير» ، (الذى تم نشره عام 1895 وأعيد طبعة مرة كل عام تقريباً حتى عام 1972 ، وتمت ترجمته إلى ثمانى عشرة لغة) يشئ بالكثير من هذه الوسائل ، وهو يعد من أولى المحاولات العصرية ، التى تبنى للسلطة نظرية عن كيفية السيطرة على الجماهير وعقولها (80) .

وفي فترة ما بين الحربين كانت النظم الأوروبية تقوم بتطبيق سياسة تجنيس الجماهير ، عن طريق استخدام وسيلتين مميزتين : الدعاية التي تعمل في خدمة الحكومة وأيديولوجياتها المسيطرة ، والإعلان الذي يلعب دوراً رئيسياً في خدمة التجار والصناع .

وربما كان من الصعب الفصل بين الدعاية والإعلان ، من حيث إنه لاحدود فاصلة تماماً بينهما ، ومن الملاحظ أن هذه الحدود تقترب من التلاشي إذا ماكان الأمر يتعلق بالفن والفنانين ، وأكثر مايلفت النظر فيما يتصل بتلاشي الحدود ،، إنما هو ذلك التعاون الذى نراه بين الفنانين والسلطات السياسية والاقتصادية لبلادهم . فأجهزة الإعلام والحال هذه تصبح أبواق دعاية لأسماء بعينها وبخاصة فيما بين الحربين العالميتين . وياله من توافق غريب فى الأهداف والأساليب فلم يعد من الممكن فصلهما ، ومن الطريف متابعة كيف تم إنجاز هذه اللعبة عن قرب .

إن سنوات مابعد الحرب العالمية الثانية تمثل فترة عرفت فيها الظروف الاقتصادية والاجتماعية ، وتطور الفن ازدهاراً لم تشهده سوق الفن من قبل . والحقبة الممتدة فيما بين عامى 1952 و 1962 تمثل فترة هوس استثمارى لامثيل له ، سرعان ما أدى إلى الخلط فى نظام استيعاب السوق ونظام البورصة . ومع ذلك فإن غزو السوق الفرنسية بكل هذا الكم المذهل من التجريديات المعروفة يعكس فى الوقت نفسه آثار المعارك الفنية العالمية والمنافسات التجارية التى يثيرها، أو يوسعها ، أو يجعلها تتحد وتتضافر بسبب تحقيق احتكار ما ؛ أى إن الخلفية الأساسية لهذا المجال كانت قائمة على الاحتكار والمؤسسات التى تتسم بخصائص ألمافيا ، بل هى بكل جماعها مافيا ، بما أنه لايمكن لأى إنسان أن يخرق مجالاتهم ، دون أن يكون مزوداً بالمعارف والصلات والتوصيات التى تعد بمثابة كلمة السر !

لقد جدت ظاهرة لافتة للنظر بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية هى دراسة أسعار المصورين بانتظام ، وفقاً لعوامل ومقاييس تتجاوز أى اعتبارات للذوق أو للمنطق ، وذلك مايوضحه برنيه Bernier فى كتابه عن «الفن والمال» (10) إذ

يقول :

«ومنذ ذلك الوقت (والحديث عن فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية) أصبح إلزاماً في كل عملية بيع علنية أن تحقق الأسعار ارتفاعاً ملحوظاً عن الرقم السابق . وبدأ التجار في استخدام ألفاظ دعائية ، لم تكن مستخدمة من قبل ، بغية استتباب مكانة «صبيانهم» في تلك القافلة السائرة ، وعرفت الأسعار في هذه الفترة ، التي تميزت بالانطلاقة الاقتصادية الكبرى ، أرقاماً خيالية بسبب عمليات البيع والشراء هذه . وأصبحت اللوحات منذ ذلك الوقت تقوم بالدور الذي كانت عليه أسعار نجوم شباك التذاكر في هوليوود ، أو ميزاتيات عمليات الإنتاج غير العادية» .

لقد بدأ كل جميل يأفل بشكل ملحوظ منذ الستينيات ، فقد كانت المتاحف - من ناحية - تمتص الأشياء القيمة ، ومن ناحية أخرى ، كانت المؤسسات بثرواتها الطائلة لا تتنافس في مجال الفن الحديث فحسب ، وإنما في تقلبات الأسعار وتوقعاتها . ونذكر على سبيل المثال ما أورده رايمس عن مؤسسة جتي Getty : «التي كانت قوانينها تفرض قهراً على الاتحاد الاحتكاري للمنتجين أن يخصص ما بين عشرة وعشرين مليوناً من الدولارات لاقتناء الأعمال الفنية سنوياً : وهو طوفان لا يقاوم ، قادر على إغراق كل مافي العالم من أعمال ممتازة أو اشتهر بذلك لصالح المؤسسة» (120) لكن ثمة قوى أخرى كانت شخوصاً بلا مؤسسات وانزلت أقدامها للعبة ، تحت وطأة التشبه المقيت لتلج من الباب الذي انسافت إليه فتصبح إحدى قوى اللعبة المصنوعة .

لقد كان العائد اللامعقول للأعمال البترولية التي تدر النقود ، إلى جانب صناعات أخرى يسمح للذين يمتلكون مبالغ وثروات مهولة بشراء أى شيء ، خاصة وقد فقد لفظ «نقود» معناه تماماً لديهم ، وذلك بحكم الواقع ، ولم يعد يمثل غير أرقام متراسة !!

وفي الحقبة الثانية من الستينيات ، كانت كل المؤشرات تشير إلى ارتفاع الخط البياني لهذه القوة الجديدة المتعددة الأوجه ، بعدما تعددت البشرة الناجمة عن تزايد الأرقام وتزايد العمولات وتجاوزها كل إدراك أو فهم . لقد نشرت مجلة «فورتون» Fortune الأمريكية تقول : «عندما قام آل رايتسمان Wrightsman

بشراء لوحة فرمير Vermeer قيل إنهم اقتنوا أعلى مساحة في العالم : 1252 دولاراً للبوصة المربعة مقابل دولارين وعشرين سنتاً للبوصة المربعة لأعلى أرض في نيويورك ، وهى الأرض التى أنشئ عليها مبنى بنك مورجان ، .

لم تكن الوقائع بغير أسباب وأهداف خفية إذا حينما بدأ المختصون ، بعد فترة ضياع خاطفة ، يثبتون بالأرقام أن الأعمال الفنية كانت من أكثر القيم صموداً فى سوق المال والبورصة .

إن أكثر الظواهر أهمية ولفناً للنظر ، والتى حدثت فى هذا المجال وبدأت تجذب رعوس الأموال بشكل واضح تجاه سوق الفن ، إنما هى قيام البنوك بإنشاء صناديق للاستثمار خاصة بهذا المجال كما سبق القول . وهنا يعلق برنييه Bernier عام 1977 فى كتابه عن «الفن والمال» :

«لاشك فى أنها كانت أهم نتيجة ناجمة عن البيانات والإحصائيات التى لم يكفوا عن نشرها منذ خمسة عشر عاماً ، فلا يوجد أى رجل اقتصاد يمكنه أن يقف مكتوف اليدين أمام ارتفاع فى سعر تصل نسبته إلى 1150 % ! .. لقد تحولت رعوس أموال الاستثمار سريعاً إلى مؤسسات مالية للتجار ، فكانوا يعملون عن طريق السلفيات المباشرة - المرهونة على أعمال فنية - بفوائد ، حتى عملية البيع التالية ، ويتم اقتسام الربح وفقاً للنسب المتفق عليها سلفاً .

وكانت هذه المؤسسات تعمل باستمرار سواء أكانت منافسة مع التاجر أم مع مجموعة من التجار ، وذلك على سبيل المثال ما قام به صندوق الاستثمار المعروف باسم «أرتميس» Artémis ، الذى قام بنك لامبير Lambert فى بلجيكا بإنشائه منذ بضع سنوات .

وبعد فترة تحسّن للسوق ، سرعان ماتم تخصيص هذا الصندوق الاستثمارى لهذه العمليات . ولقد كان جماعة من التجار من أماكن متفرقة ، مثل هانز برجرين Heinz Berggruen فى باريس ، وأوجين ثو Eugene Thaw فى نيويورك ، يقومون ببيع أعمال لم يكونوا إلا شركاء جزئيين فى امتلاكها ، (10) .

إن تزايد عدد الهواة ، وتراكم الثروات ، والتضخم المتواصل ، بخلاف

التيارات السياسية الخفية لهذه الأعمال قد أدت إلى ارتفاع الأسعار في غضون عدة سنوات ، لتصل إلى أرقام لا يمكن تصورها كما سبق أن رأينا .

ففي المجال الاقتصادي ، تعرض العالم فيما بين 1960 و 1980 إلى عدة مآزق ترجع إلى عديد من العوامل ، ومنها الازدهار الاقتصادي لليابانيين الذي اضطر الولايات المتحدة الأمريكية ، رائدة السوق الحر ، إلى وضع قيود على الواردات اليابانية . وتلا هذه المحنة عملية ضغط في الأرصد ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه أسعار الوقود تحقق ارتفاعاً هائلاً في الأسعار .

لقد بدأ اليابانيون هم الآخرون منذ عام 1960 في تكوين مجموعات اللوحات ، حتى ، أن الحكومة اليابانية انتابها القلق من ملاحظة المدى الذي كان ميزان المدفوعات الخارجية يشي بخطرته من جراء التدفق الكمّي للفن التجريدي ، مما اضطرها عام 1974 إلى إصدار قانون يمنع دخوله البلاد، (121) .

وهلع اليابانيون من هذا الخطر ، ولم يعرفوا ما الذي يفعلونه بمقتنياتهم ، فبدأوا يلقونها في السوق . وخلال بضعة أشهر تخلصوا من مقتنياتهم ، مما أدى إلى انهيار الأسعار ، إلا أن السوق الفنية سرعان ما امتصت الصدمة لتتخطى الأزمة بحرص . ترى هل لنا أن نذكر بالموقف السياسي الياباني ، والذي كان أثناء الحرب العالمية الثانية منتصباً على الحلفاء ، ثم تراجع مقهوراً بعد ضرب هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية ووقوعه تحت الاحتلال والسيطرة الأمريكية؟ ولانعتقد أن هناك من نسي ذلك الشعار المؤسف : «صنع في اليابان المحتلة»! مما يفسر كيف ، ولماذا خضعت اليابان بهذه السهولة وبهذا العمق لموجة الفن الحديث التي ساندتها وفرضها الأمريكيون بشتى الوسائل .

إن ما يضيف أهمية خاصة على السوق الحالية ، ويفسر ذلك التوسع المذهل للفن الحديث ، لا يرجع إلى تزايد التعداد فحسب ، كما يزعم بعض النقاد أو مؤرخي الفن ، وإنما يرجع إلى عدة أسباب من بينها بصفة خاصة أن بلداً مثل أمريكا ، التي كانت غارقة تحت الغابات إلى عهد قريب ، وتاريخها برمته لا يتعدى قرنين من الزمان ، يصبح في زمن جد قصير - هو اللاوقت تقريباً بحساب عمر الشعوب - مغطى بمناحف الفن الحديث ! فمن الواضح أن هذا

المجتمع المكون من رعاة البقر وسائقى العربات، التى تجرها الجياد أخذوا يجمعون لوحات الفن التجريدى بالجموح نفسه ، الذى كانوا يتقاتلون به فيما بينهم ! .

وهكذا ، فقد تغير أسلوب الاستثمار جذرياً خلال هذا العصر ، وفقاً لنظام مدروس بدقة بالغة وتم تنفيذه بإحكام مطلق . فقبل الحرب العالمية الأولى ، كان الذين يدخرون ، يستثمرون ثرواتهم فى مجالات عدة بصورة أو بأخرى . وابتداء من عام 1920 ، وعلى وجه التحديد ابتداء من عام 1935 ، تم وضع جزء مهم من الثروة العالمية فى مجال لوحات الفن الحديث ؛ لخلق ذلك التيار الذى ربط الفن بالاقتصاد السياسى .

ولعل التصريح الذى أدلى به جويل لاشو Joel Lachaux مـدير المستثمرين الدوليين للفن، Art international investors (وهى مؤسسة استثمار للفن قام بإنشائها أحد المعامل الطبية الأمريكية !) . والذى أدلى به فى نادى السباق ، فى مطلع عام 1974 وقام جرابان Grapin بنشره فى مقال تحت عنوان «لعبة الفن والمصادفة» ، فى جريدة «الموند» الصادرة فى الثالث والعشرين من شهر مارس عام 1976 ، يوضح بعضاً مما نشير إليه إذ يقول : «إن كل أعواننا متخصصون فى الاقتصاد وفى التحليل السياسى ، ولا يوجد فيهم واحد من خريجي كلية الفنون الجميلة أو مدرسة اللوفر للفنون ، إذ إنه لا يحق لنا أن نخطئ» !!!

لا يحق لهم أن يخطئوا بكل تأكيد ، بما أن أقل خطأ فى التقدير يعنى ويتضمن خسائر لا تعتبر فادحة فحسب ، وإنما هى خسائر تؤدى إلى الإفلاس بأوسع معانيه ! لذلك يكثر عدد أولئك الذين يؤكدون وجود رابطة تجارية ما ، واحتكار أو عصابة مافيا لن تتخلى عن كيائها بأى حال من الأحوال .

وبالنألى لم تعد عملية مساندة وشهرة مصور ما سرّاً من الأسرار ، فلقد أصبح النظام معروفاً من ألفه إلى يائه . كما أن اختلاق أسطورة ما حوله ، وإطلاق العنان لعملية العرض والطلب مع زيادة الطلب بالنسبة للعرض ، لم تعد لغزاً من الألغاز . «أما البقية» ، فهى مسألة سياسة تجارية تقليدية ، خاضعة للإشراف والمراقبة بدقة ، مثلها مثل كل السياسات المتعلقة بالبورصة ، على حد قول رייيمون ديسينى (فى صفحة 249) .

أما فيما يتعلق بأسعار اللوحات فها هو ديسيني يضيف بعدها قائلاً: «إن الأسعار التي توصل إليها كبار «آسات» (Les grands As) التصوير التجريدي لا يمكنها أن تنخفض، بل ويجب ألا تنخفض وإلا أحدثت بلبلة مروعة في قيمة المجموعات الفنية والميكانيزم المالي لقاعات العرض معاً. وكيف له أن يكون عكس ذلك بما أن دماء هذا المجتمع تتدفق بالذهب، وكل نظامه قائم على هذه الدورة الدموية؟ إن الذين يمتعضون من هذا القول أو يستنكرونه لا يدركون أن وجودهم الشخصي قائم، ومرتببط بالنظام نفسه المسمى: الرأسمالية» (122).

ويتناول رايمس فكرة ربط نظام نظام الاستثمار بالنظام السياسي للدولة نفسها، حينما يتحدث عن الأسعار التي وصلت لها أعمال بيكاسو، والتي لامست في بعض الأحيان قمة الأسعار المتداولة في عمليات البيع العلنية؛ إذ يقول: «إن ما يمكننا أن نؤكد أنه أن بيكاسو سيستمر، طالما استمر العالم الغربي، كواحد من ضمن أكبر خمسة أو ستة مصورين في تاريخ الفن» (120).

لقد تمت اللعبة، تمت بلا شك، وهي شديدة الارتباط بالنظام السياسي للرأسمالية الاحتكارية؛ بحيث لم يعد من الممكن تغيير أحد الطرفين، دون المساس بالآخر، وذلك - باليقين - مايقعد إمكانات المجال الفني.

وها هو رايمس - في كتابه السالف الذكر - يسهب في شرح هذا الموقف، ليبرهن كيف أن سوق اللوحات التجريدية لم يكف عن النمو والتزايد منذ أكثر من أربعين عاماً، إلا أن ذلك لم يمنع كثيرين من المستثمرين من أن يتساءلوا عما إذا كانت الأسعار ستعرض لانخفاض ما، أو إذا ما كان الانحسار الذي يتوقعه بعض تجار العاديات منذ سنوات سيتحقق أم لا؟! «إن ذلك يبدو من الصعب حدوثه؛ إذ إن السلع تتواءم جيداً مع نظم التضخم؛ فهي أشبه ما تكون بالقيمة الفلين، إنها تطفو وتترك نفسها لدفعات موجات الرفع، أما أي انخفاض مهم في الأسعار، في يومنا هذا، فستكون أسبابه اجتماعية أكثر منها اقتصادية.

ولكي يحدث ذلك، أي لكي يحل عدم الاهتمام العميق بدلاً من الشغف العالمي بهذه السلعة، فلا بد من تغيير هائل في الذوق العام.. لا بد من تغيير جذري في العادات مثلما حدث فيما بين 1790 و 1840. ومثل هذه الاحتمالات

لا يمكنها أن تحدث إلا عقب طوفان دولي، يؤدي إلى تغيير جذري في أسلوب المعيشة، نتيجة لاختراعات هائلة تجعل من هذه السلعة شيئاً ثاقباً لقيمة له (120).

ولعل الانخفاض الذي حدث في فترة ما بين الحربين، في عام 1929، كان من أعنف ماتعرض له النظام الرأسمالي، خاصة أنه كان ناجماً عن سوء توزيع رأس المال في السلع الفنية عبر العالم، ذلك أن معظم جامعي اللوحات كانوا من الأمريكيين أو من الأوروبيين، الذين كانت ثرواتهم مستثمرة في مشاريع مسها الانهيار المالي.

ومنذ ذلك الوقت، تم توزيع السلع الفنية عمداً على اتساع رقعة العالم؛ مما يجعل توقعات انخفاض الأسعار غير واردة أو غير محتملة، لقد وعوا الدرس: فالهواة متناثرون في مختلف العواصم؛ أي إن المافيا التجارية للوحات الفن الحديث، في أواخر القرن العشرين، قد استفادت من دروس الماضي وقامت بتوزيع ثرواتها بشكل أكثر ثباتاً. وأي انخفاض للأسعار لا يمكن أن يحدث إلا في حالة احتمال انهيار عالمي، يأتي على كل أشكال الإنتاج الإنساني. أو يقول آخر: لا يمكن أن يحدث إلا في حالة تغيير جذري وشامل للنظام السياسي، ولا شيء آخر غير هذا التغيير الجذري يمكنه أن يؤدي لخفض الأسعار، ذلك أن المؤسسات المتشابكة والمخططة ترتبط ارتباطاً عضوياً من أقل تاجر إلى المؤسسات الدولية والنظم السياسية نفسها، وباله من رباط!

ذلك هو، في حقيقة الأمر، ما يمثل الخلفية القاهرة المتحركة بالفعل في مجال الفن الحديث، وهي خلفية مرتبطة ارتباطاً لانفصام فيه - كما رأينا - بالنظام السياسي الذي ابتدعها.

ومن المعروف أنه قد حدثت فترات انخفاض عابرة عام 1959، ثم فيما بين عامي 1977 و 1980، إلا أنها لم تمس السوق بشكل جاد... وهنا يوضح رايمس السبب قائلاً: «إن كلا من الهواة والتجارة نفسها قد انتشرا على الصعيد الدولي حتى أنه عند الإعلان عن أي انخفاض في السعر في هذا البلد أو ذاك، فسرعان ما تتصافر الجهود فيما بين بعض التجار الدوليين، ليتداركوا الموقف خلال ثمان وأربعين ساعة، فيقوموا بشراء اللوحات المهددة بالانخفاض». وهذا

الموقف التضامنى على المستوى العالمى هو الذى يعطى لتعبير «مافيا» المستخدم حالياً فى هذا المجال الفنى كل معانيه وكل أبعاده الخفية .

إن واحداً من أهم ما يمكن استخلاصه من هذا الزخم الخائق كله ، هو أن الجانب الآخر لما جرى العرف على تسميته «كرامة الفن العليا» ، لم يعد فى الواقع غير نظام محكم مسبقاً لتحويل اللوحة إلى سلعة تجارية فى ميدان ، تغص جوانبه الخفية بتلك العملية الكيميائية السرية ، التى تحول اللوحة التجريدية إلى سلعة استثمارية توزن بالذهب وتدر الذهب بلاتوقف .

ولانستخدم هنا تعبير العملية الكيميائية على سبيل المبالغة ، فهو يمثل بالفعل الجزء الأكبر لعملية التحول هذه ، والتى يدور جلها فى الخفاء ، لتحقيق الأهداف التى أمل أن تكون قد اتضحت بعض معالمها . فالظواهر التى لا يمكن تصورها أو الشك فى وجودها تتعدى المظاهر بكثير ، والأدهى من ذلك كله ، بل والمذهل أيضاً أن نرى عدد الأساليب غير الشرعية وعدد المخالفات التى تتم فى عالم الظلمات الخاص بسوق اللوحات التجريدية ، ومنها : شهادات مزيفة ، وشهود مزورون ، وقضايا ومحامون تقدم إليهم كل سبل كسب القضية بفضل ترسانة الوثائق المزيفة ، ومؤامرات دولية ، وضرائب غير مدفوعة ، وتحالفات قائمة على ضرورة كسب قضية ما ، ومؤسسات افتراضية وهمية ، ومنافسات غير شريفة ... إلخ . إن القائمة أكبر من أن نستوعبها فى هذا الحيز !

ومن المحزن والمؤسف حقاً متابعة ماكتبه برنبيه فى كتابه المعروف عن «الفن والمال» ؛ حيث يتحدث بالتفصيل عن كل هذه المؤامرات والفساس ، والأحقاد المتأصلة فى النفوس ، والأقاويل الملفقة ، وكأنها من مستلزمات تسليّة الأحكام البلاط السرى والقائمين بالأدوار الرئيسية فى هذه اللعبة . ومن المحزن والمؤسف أيضاً أن نرى كيف أن كبار النقاد المعروفين ، ومنهم أولئك الذين يقومون بتقديم شهادات مزورة أو أدلة زائفة تثبت أصالة اللوحات التى هم على ثقة من أنها غير أصيلة ومزيفة ، قد أدرجت أسماؤهم فى كشوف وفقاً للنقاط ضعفهم» .

لقد تكونت مجموعات الاقتناء الأمريكية فى مطلع هذا القرن بواسطة هذه

الشهادات ، وما أكثر ما كتب حول هذا الموضوع ، نذكر منه ما قاله جيمبل عام 1963 :

«إن جامع اللوحات الأمريكي كان ضحية أكبر عملية نصب يشهدها التاريخ على الإطلاق ،وهى عملية النصب المزودة بشهادة رسمية ! فمنذ ثلاثين عاما قام الأمريكيون بشراء عدد لا حصر له من اللوحات المزيفة ؛ مما جعلهم بعد ذلك يتمسكون بشهادات البراءة . رتم تصنيع خبراء متخصصين من أجل هذه العملية ، كما تم «تعميدهم» فى الأوساط الرسمية ، وبذلك أصبحت مسئولية التاجر تقع على عاتق هؤلاء المزيفين غير المسئولين . وهكذا لايجد المشتري من ينصفه إذا ما حاول الحصول على حقه ، وفى خلال فترة وجيزة قام الأمريكيون بشراء لوحات بلغ ثمنها عشرة ملايين دولار ، وكانت كلها مزودة بشهادات لأساس لها من الصحة، (63) .

البورصة :

بقى أن نتناول جانباً من أهم الجوانب وأكثرها فعالية بين كل هذه العناصر، التى تمثل الكيان الزائف للفن الحديث ، ألا وهى : البورصة ، أجل ، البورصة ، وعدة مجالات أخرى تدور فى فلكها ولا تظهر لعين الجمهور ، لكنها تكمل كوكبة اللعبة . فالمعارك الجمالية فى القرن العشرين ليست فى الواقع إلا واجهة للمنافسات الاقتصادية التى تجرى فى سوق الفن الحديث ، وكل ذلك العنف الذى يصاحبها إنما يبين حقيقة الصراع الاقتصادى بقدر مايشير إلى المعركة المختلفة من أجل السيطرة على العرض والتسلط على الطلب .

ومن المذهل أن نرى عدد الذين انساقوا فى عالم الفن الحديث ، سواء أكان ذلك فى أوروبا أم فى أمريكا بصفة خاصة ، ولا يمكن إدراك مغزى هذا التدفق إلا إذا وضعنا فى الاعتبار تلك الروابط الحميمة ، التى تكونت بين الفن والرأسمالية ، لكي نعرف كيف يمكن لمصور ما أن يتحول إلى مجرد سند من السندات فى البورصة !! والأدهى من ذلك هو أن نرى كيف أن القوانين الضريبية الأمريكية قد سنت خصيصاً بغية نشر الفن الحديث .

«لقد قررت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية أنه يجب حماية ومساندة ديانة الفن ، فقامت بسن قوانين ضريبية ، ترمى إلى وضع أسعار اللوحات فى مأمن من تأرجح «وول ستريت» Wall Street [علماً بأنه لن يمكنها تفادى عواقب انهيار مالى مثل الذى حدث عام 1929] ، جيمبل «ضد الفن التجريدى» (64) .

وكان الهدف من هذه القوانين هو جلب أكبر عدد ممكن من لوحات الفن الحديث إلى المتاحف ، بتقديم إعفاءات ضريبية مهولة للذين يقومون بإهداء مجموعاتهم للمتاحف ، ترى هل من ضرورة لتوضيح كيف أن هذا النظام الضريبى قد خص أصحاب الثروات الأكبر على حساب الآخرين الأقل ثراء ، والذين تزداد الضرائب بالنسبة لهم بشكل تصاعدى ، يتناسب مع محاولة تغطية العجز الناجم عن هذا التحيز المقنّع للحكومة الفيدرالية ؟! وهكذا استطاع كبار الرأسماليين أن يقوموا بدور رعاة الفن بواسطة النقود ، التى يملكون السيطرة التامة عليها .

لقد كان هناك امتياز آخر ، يسمح لمن يهب مقتنياته من اللوحات إلى المتاحف ، أن يحتفظ بها فى منزله حتى وفاته . فكان ذلك يعفيه من الضرائب ويترك له مطلق الحرية بالنسبة للوحاته حتى آخر أيامه ؛ مما كان يسهل له عمليات الاستثمار والمضاربة ، وهو فى مأمن من الضرائب . لكن نظراً للإفراط الشديد الذى استغله بلا استحياء كل هؤلاء الذين يهبون ممتلكاتهم للمتاحف ، فقد حدث تعديل بسيط فى هذا القانون ، فيما بين عامى 1962 و 1963 ، يضع حداً لهذا التلاعب . وإن لم يلزم الكونجرس الأمريكى أولئك الذين يلجأون إلى هذه الحيلة بالتخلى عن مقتنياتهم للمتاحف فى اليوم نفسه الذى يهدونها فيه ، لا عند وفاتهم ، إلا فى سنة 1964 ، أى بعد قانون الإعفاء بأكثر من عام .

لكن ، منذ متى كانت هناك نهاية للتلاعب لدى من ألفه وسرى فى دمه ، وكان جزءاً من لعبة كبرى ؟! وهاهو جازافا يؤكد : «إن هؤلاء المليونيرات ليسوا بمخبولين ؛ فهم لا يشترون هذه اللوحات التجارية ليلها بها : إنهم يقومون بعمليات استثمارية عن طريق أمناء المتاحف ؛ إذ إن هؤلاء الأمناء يستفيدون من فرق الأسعار المتضخمة بشكل مفتعل ، بين ما هو مقدر من سعر تقديرى للمصور

والسعر الحقيقي للوحة ؛ لكى يستثمروا النقود المدفوعة للمتحف بواسطة تحايلات من السهل استنتاجها» (65) .

غير أن المتاحف لم تكن السبيل الوحيد لتنفيذ واستثمار هذه الخدع والأحاييل ، فهناك مئات المؤسسات التجارية والصناعية الخاصة التى يجيد مديروها سحب الأموال على حساب المساهمين والخزانة ! وهنا يوضح جازافا ، فى الفقرة السابقة نفسها كيفية تنفيذ ذلك قائلاً : «إنه يكفيهم - أى التاجر الذى لديه الإنتاج ويعرف تماماً القيمة المفتعلة التى أدت إليها عملية «إعادة المصنع» - (النص لجازافا) شراء لوحات بيكاسو ، وميرو وما إليها لكن بنصف ثمن التقدير الرسمى (المدرج بالحسابات) . وتسمح لهم هذه الوثائق بتسلم النصف الثانى والمفترض زعماً أنه مدفوع ، ليتقاسموه . إلا أن هذا المبلغ فى الواقع يعد مسروقاً من المجتمع» .

ولم يكن جورج جازافا ، أستاذ القانون والفنان فى الوقت نفسه يتحدث جزافاً ، وإنما يتكلم بلغة القانون الذى هو مهنته ، وبما يعرفه من خلال ممارسته للفن الواقعى وماتعرض له . وهو ينهى هذه الفقرة الطويلة من كتابه الشيق المثير بعبارة صغيرة ، لكنها تلقى أضواء كثيرة على سوق الفن الحديث ، إذ يقول :

«وهكذا ، فإن الفن الحديث ليس ثورة جمالية لبعض الفنانين كما زعموا ، وإنما مجرد أداة احتيال رائعة للأموال العامة» .

دعوى جازافا :

نحن لانشك فى أن كل هذه الخلفية من الألاعيب غير القانونية ، والمؤامرات والاختلاسات التى تسيطر على مجال الفن الحديث هى التى دفعت جورج جازافا ، وعديدين غيره ، إلى إدانة هذه المسخرة Farce المفتعلة والمفروضة على المجتمع ، وأدت بهم إلى استخدام لفظ «الاحتيال» لوصف كيان هذا الفن وخباياه التى يصعب الوصول إليها .

فإذا ما تصافر معظم النقاد فى جوقه للتغنى ومدح مزايا الفن الحديث ، فإن

عددًا أقل - مع الأسف - هو الذى وافته الشجاعة وإمكان الكشف عما يدور حقيقة فى كواليس هذه اللعبة غير النظيفة .

ولقد استشهدنا بجازافا بإسهاب لأنه كان من أوائل الذين تجرأوا على مواجهة مخاطر الكشف ، وفصح خبايا وظلمات كواليس الفن الحديث بالوثائق الرسمية . ولم يكن موقفه هذا بالصخب الأجوف ، وإنما بإقامة دعوى قانونية أمام القضاء العالى ضد عمليات النصب هذه ومن يقومون بها . وهى دعوى ضد مايقوم به تجار اللوحات من عمليات استثمار ، لايتمادون فيها على سذاجة جمهور ، لايعرف شيئاً عن خفايا اللعبة فحسب ، بل باستغلالهم واستعبادهم للفنانين أنفسهم عن طريق عملية احتيال رهيبة تلعب بالمليارات ، وتقوم على ارتفاعات وهمية للأسعار ، تؤدى فى نهاية المطاف إلى تسرب الأموال الفرنسية إلى البنوك السويسرية .

ولقد قام جازافا بحملته التى لاتلین بحمىة يستحق عليها كل تقدير . وإن كان أستاذ القانون والفنان والأديب المعروف ، لم ير حقيقة الأمر وخطره وخفاياه إلا بعد أن أقام معرضين كبيرين للوحاته ، وأدرك أنه لايمكن لأى فنان أن يبيع لوحاته - ولو بسعر معقول - أو أن يشق طريقه وسط غياهب قصر التيه الذى يحيطه ، دون أن يكون اسمه مدرجاً فى قائمة المصورين الذين يفرضهم ماسكو خيوط هذا المجال ومحركوه ؛ أى إن أى فنان موهوب وملتزم بقيم الفن الأصيلة لايمكنه أن يشق طريقه دون مهانة نفسه ، أو دون الانتماء «للشلة» المسيطرة ومزايداتنا المفتعلة .

وفى عام 1962 ، بدأ جازافا بنشر كتيب من حوالى مائة صفحة تحت عنوان : «الفن والجريمة» . وهو كتيب يحدد فيه موقف الفن الحديث ، ويتناول الجانب القانونى للموضوع ، والأضرار الواقعة على المشتري والفنان ، والمساس بالرأى العام ، وانعكاسات هذا الفساد على المجتمع ، ثم يتناول الجانب الفلسفى للفن «الداعر» - كما يسميه - والفرق بينه وبين الفن الحقيقى الملمه ؛ أى إنه - اختصاراً - يدين «عمل العصابات» ، وعمليات النصب ، ووقائع الاستغلال والمخالفات القانونية التى تتحكم فى عالم الفن الحديث .

ولقد لاقى هذا الكتيب استقبالا حافلا من الصحافة الباريسية والفرنسية بعامة ، والأوروبية بما فيها إنجلترا . إذ حظى بأكثر من مائتى مقال وتعليق ؛ أى إنه عرف أصدقاء حقيقيين وكان له أثره الواضح الذى كتب عنه فى مؤلفه الثانى المعروف باسم «احتيايل الفن الحديث المصنّع» قائلًا : «ومنذ ربيع عام 1962 بدأت عودة لوحات الاتجاه الآخر ، الذى لايعرف السهولة والاستسهال إلى «فتارين» قاعات العرض» ! (66) .

إلا أنه رغم رد الفعل الواضح هذا فلقد ظل المسئولون يتخذون موقف «أذن من طين وأخرى من عجين» على حد قول ج.ر. كوفمان J.R. Kouffman .

وفى عام 1976 ، وبعد أن رفض المسئولون دعوة جازافا ست مرات ، قام هو بجمع كل الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع لينشرها فى كتاب يقع فى مائة وسبع وثلاثين صفحة ، أطلق عليه ذلك العنوان الذى له مغزاه والشديد الواقعية فى آن واحد ، ألا وهو : «احتيايل الفن الحديث المصنّع» !!

وقبل أن نتناول هذين المؤلفين بشىء من التفصيل ، أظنه من المفيد أن نرى ما وصل إليه الفن الحديث فى تلك الحقبة ، مكتفين بمثال واحد يعكس مدى التدهور الإنسانى والانحطاط والتردى ، الذى عرفه هذا المجال الذى يفترض أنه «مجال جمالى» ، وإلى أى درجة تمت مساندة هذا العتة التشكيلي عن طريق احتيايل سياسى اجتماعى منظم .

فى الصفحة الثانية مباشرة يورد جازافا فى مؤلفه الثانى هذه الواقعة : «لقد حضرت يوم الأربعاء الموافق أول ديسمبر عام 1964 فى قصر جالييرا Galliera مزاداً لبيع مجموعة ليفيفر Lefèvre : وكان التاجر إيميه مايت Aimé Maeght يقوم بشراء مجموعة «صبية» ميرو Miró ؛ ليحافظ بشكل مفتعل على «التسعيرة» المحددة له . وكان قد عرض فى المزاد لوحة بسعر سبعة آلاف وخمسمائة فرنك فرنسى وأعاد شراءها بمبلغ عشرة آلاف فرنك فرنسى (وهو مايكفى لشراء سيارة جديدة آنذاك) . وكانت اللوحة تمثل رجلاً يجلس القرفصاء ، ممسكاً بيده قطعة من «ورق تواليت» (ورقة فعلية) حديثة الاستخدام ، والرسم وورقة التواليت بما بها مضغوطان تحت الزجاج بعنوان : «الرجل ذو الورقة الحريرية» ! هذا هو مستوى

الفن الحديث المصنَّع لأولئك «الكيميائيين» الذين استطاعوا ، كما في الأسطورة ، تحويل «الروث» إلى ذهب ! لكن - وبالأسي - على حساب تخريب الحضارة .

ولم يكن المصور ميرو هو الوحيد الذى أفرط فى الإسفاف للحط من القيم الجمالية الإنسانية بهذا الشكل . فلقد سبقه دى شان Duchamp بتقديم «مبولة» على أنها قطعة فنية ، وكان فرانسيس بيكون Francis Bacon قد قام بتصوير موضوع خالٍ من أى قيمة جمالية ، ألا وهو «الرجل والبيدة» L'Homme et le bidet ، وقام غيرهم بتقديم «البراز المجفف» ، تحت عنوان «نحت حديث» !! وبإلها من مأساة مبكية فظة رخيصة معاً .

لقد كان فن التصوير الواقعى - فى ذلك الوقت وكما سبق أن رأينا - مستبعداً تماماً من المعارض ، ومنزوعاً من جدران المتاحف لإفساح المكان للوحات العبث والرخص الممجوج هذه .

وها هو كوفمان يقول فى مقدمته للكتاب الثانى لجازافا :

«لقد حاول صديقى جازافا أن يعطى لكل فنان حقه فى المجالات التجارية عن طريق المنافسة الحرة ، وهو الوحيد فى العالم الذى لجأ إلى القضاء وبحث عن السلاح القانونى ليحارب به هذا النصب» .

«ولقد أدرك ذلك حينما رأى أن هذا الفن الحديث يباع بالسنتيمتر المربع أو كما يسمونه بالنقطة (*) . ومن هنا هو خاضع لقانون الضرائب التجارية .

«إلا أن الوزارة المالية عملت «أذنأ من طين وأخرى من عجبن» ولم تعرالموضوع اهتماماً ، ولم يجد القضاء ما يقوله حيال الشكوى المقدمة ضد ما يجرى من عمليات غش وتدليس إلا الدفع بعدم الاختصاص ، حيث إنها قضية ذات طابع عام ولا يحق لغير الوزراء أو النقابات أن يتصدوا لها .

«مما دفع جازافا إلى تقديم هذا العمل وكل ردود فعل الصحافة وملخص الجهود التى قام بها ، لكى يسمح للفنانين بأن يدافعوا عن مهنتهم بشكل أفضل» .

(*) تعني النقطة فى لغة سوق الفن قيمة سعر السنتيمتر المربع المحددة لكل فنان ، والتي يحاسب بناءً عليها .

إن ردود الفعل والتعليقات التي واكبت كتيب «الفن والجريمة» تمثل جزءاً كبيراً من الكتاب الثانى . وها نحن نستشهد ببعضها ، لا على سبيل المثال فحسب ، وإنما لاتصالها المباشر بهذا البحث :

كتب الدكتور ج . ريفيير J. Rivière وهو طبيب ومثقف ، وعالم متخصص فى علم الخط ، وصاحب كتاب ضخم عن «عالم الكتابة» ، كتب يقول فى خطاب إلى جازافا ، فى التاسع من يوليو عام 1969 : «لقد انطلقت بشجاعة فائقة فى حرب ضد مافيا - هى مع كل أسف - مترسة شديدة القوة . إنك تحاول تنوير جمهور مسكين مضلل ، وهذا جهد تهنأ عليه . فنحن بحاجة إلى الكثيرين أمثالك لنوقظ الحقائق البسيطة المنسية فى ضمائر البعض . ومن الواضح الجلى أن فناناً واحداً مثل موندريان Mondrian لا علاقة له بفن التصوير ، فهو - مع التحفظ - أقرب إلى مجرد محاولة تقنية ، بل هو أقرب ما يكون إلى علامة من علامات السكة الحديد» .

وكتب لوى هيمو Louis Hemo فى «كراسة الفنون» العدد رقم 78 يقول : «وها هم الغوغائيون وقد وقعوا فى الفخ بدورهم . فلا أحد يجهل اليوم أنهم يتلقون الأوامر من موظفيهم الذين يضطرون إلى الانصياع لهم . فبدلاً من رجال السياسة الذين تقع على عاتقهم ضرورة حماية مصالح وثقافة وطننا ، نرى إدارة عشوائية ، عمياء ومجهولة ، تمسك بالجام فى يدها لتتحكم فى كل المبادرات ، من هنا كان الهرج ، والانحلال» .

أما جريدة «شاريفارى» Charivari فقد نشرت مقالاً فى أكتوبر عام 1961 للكاتبة بيمين Piméne ورد فيه : «لاشك فى أن حملته الصليبية ضد الفن الحديث ستبوء بالفشل مثلها مثل الفشل الذى تعرض له دون كيشوت . وهى لا تقل عنها احتراماً ، والأرض التى يقف عليها صاحب كتيب «الفن والجريمة» أرض ثابتة متينة : فهو يوضح أن هناك مساساً بالمشتري والفنانين . والأعيب التجار تقع تحت طائلة القانون الذى يحد من ارتفاع الأسعار بشكل مزيف ، كما يكشف مؤسسة المخربين والأضرار التى تقع على حرية العمل . كل ذلك صحيح ومعه كل الحق ، لكن بما أن الدولة تحمى تواطؤ هذه اللعبة ، وبما أن متاحفنا تمثل

بنفايات عديدة اشتراها أمناء متواطئون بشكل ما ، فإن الحالمين الذين يتجرأون بالكشف أو بإقامة الدعوى سيدفعون ثمن موقفهم ، ولن يكون الثمن بسيطاً ؛ إذ إن مافيا اللوحات لموضوع ضخم بالنسبة لرجل بمفرده ... إن ضربة السيف هذه التى صوبها على مياه مستنقع آسن سيذكرها له التاريخ ، وستدرج اسمه فى قائمة المثاليين المتحمسين الذين تتخلص منهم كل الأنظمة وترسلهم بكل بساطة إلى السجون» .

وفى التاسع والعشرين من شهر مايو عام 1962 نشرت مجلة «لانديبانان» برينيان L'indépendant Perpignan مقالاً جاء فيه : «إن الفنانين قد بدءوا يهاجمون عملية استثمار فن التصوير . فلقد تقدم كل من جورج ديفال George Deval وجان كيرش Jean kirsch بدورها بشكوى لرئيس القضاة ضد عمليات الاستثمار غير القانونية للوحات .

«إنهم يسيرون على منوال الفنان جازافا ، الذى تقدم منذ بضعة أسابيع بشكوى مماثلة لكنها رفضت أخيراً ، إلا أن جازافا ، رغم ذلك ، قام بالاستئناف أمام غرفة الاتهام بمذكرة ورد فيها : «سيدى الرئيس ، اسمح لى بتوضيح الخطأ الذى وقعتم فيه وبناء حكمك على مسائل فنية . إن الأمر لا يتعلق بذلك . إننى لا أكافح ضد الفن التجريدى من أجل الفن التقليدى . إننى أكافح ضد الاستثمار غير القانونى الذى يقوم به تجار اللوحات ، الذين يقومون بالأعياب يعاقب عليها القانون ويرفعون أسعار المصورين الخاضعين لهم بشكل مزيف . إن عملية رفع الأسعار المزيفة بأساليب غش وتدليس ، والتى تمارس فى قاعات البيع إنما هى عملية غير قانونية ، أيا كانت البضاعة المتداولة» .

وفى العشرين من شهر فبراير عام 1962 ، كتب روبير جيو Robert Guillois ، رئيس جمعية نقاد الفن إلى جازافا قائلاً : «منذ ثلاثين عاماً تقريباً ، [فى فبراير 1930] اعترضنا بشكل عنيف فى كل الصحف ضد عمليات البيع الصورية ، واعترضنا محتجين علناً ضد الواقعة فى حد ذاتها وضد إفلاتها من القانون وعدم خضوعها لأى عقاب .

«فلا يسعنى إلا أن أهتك على الحملة التى قمت بها ، باسم الفن ، والعدالة ، ومعنوية الجمهور» .

أما جريدة «لى جنبول» Le Guignol الصادرة فى مدينة ليون .. فقد أصدرت فى الخامس والعشرين من شهر أبريل عام 1962 مقالاً تحت عنوان : «تحية صادقة» ، جاء فى طرف منه : «إلا أن الأغرب من ذلك أن السيد رايمس ، وهو واحد من أفضل القوميسارات المئتمنين الفرنسيين قد أيد الوقائع . ولقد ذكر حديثاً «أن مدير إحدى الجالريهات قد رفع سعر إحدى اللوحات إلى أربعة ملايين ، وإذا ما ثمنتها فلن أعطيها حتى ربع هذا المبلغ !» كما ذكر أيضاً لوحات بعض الرسامين الشبان الذين يرفع أصدقائهم أسعار لوحاتهم إلى ثلاثة ملايين فى حين أنها لا يمكن أن تقدر بأكثر من عشرة آلاف فى حى مونمارتر ! .

«إن كل الناس يعرفون هذا الكلام ، أو على الأقل يعرفه كل أولئك ، الذين لا يريدون الوقوع فى اللعبة وخدعها ، لكنها أول مرة نرى فيها جريدة فرنسية كبرى «تدب قدميها» بهذا الشكل ، وتدخل فى هذا الموضوع صراحة ولنا أن نهنتها . بل لقد وصلت الجرة بهذه الجريدة إلى أن نشرت صورة لرسمين ، واحد للمصور ميرو ، والثانى لبيكاسو . والاثنان لا يصلحان لاستخدامهما كورق «تواليت» فى دورة مياه ، !! .

وفى التاسع من ديسمبر عام 1963 كتب رئيس نقابة «الفنانين المصورين المحترفين الأحرار» إلى صاحب كتيب «الفن والجريمة» قائلاً : «إن نقابتنا تؤيد ما قمت به بغية إصلاح سوق فن التصوير . فلا شك أن الدعوى أمام القضاء فى حالة الفوضى والغوغاء التى توجد فيها السوق حالياً ستسمح بتوضيح الطريق السليم وتحديد الوسائل الدعائية القانونية للمبيعات والأساليب ، المتبعة القائمة على الغش» .

وبالفعل ، ما أن قام جازافا بنشر كتيبه عن «الفن والجريمة» عام 1961 ، حتى تقدم بدعوى رسمية أودعها فى الخامس من شهر مارس عام 1964 ، لرئيس قضاة التحقيق ، أوضح فيها وجهة نظره بشكل لا مواربة فيه .

وتزايدت الأصداء فى الصحف . ومع ذلك ، وعلى الرغم من وضوح القضية المدعمة بكل المستندات اللازمة ، فإن السيد رينو Reynaut قاضى التحقيقات ، أمر فى الرابع عشر من شهر مايو عام 1962 بأن تحفظ الدعوى

المقدمة لهيئة المحكمة العليا بحى السين !

ورغم كل شئ فإن جازافا لم يفقد الأمل ، لإيمانه الشديد بنزاهة العدالة والقضاء ولم لا ؟ أليس هو رجل قانون بقدر ما هو فنان ؟ فتقدم إلى غرفة الاتهام فى جلسة السادس والعشرين من شهر أكتوبر عام 1962 ، مناشداً «إعادة النظر فى ذلك القرار ، الذى يدل على عدم الدقة ، سواء من الناحية القانونية أو من الناحية الموضوعية» .

وفى الثالث والعشرين من شهر أكتوبر عام 1964 ، رفضت دعوى جازافا للمرة الثانية ، لكنه عاد واستأنفها .

وفى السادس من شهر نوفمبر عام 1963 ، تم رفض الطعن الذى تقدم به للمرة الثالثة إلى محكمة النقض . وبعدها بشهر تقريباً ، تلقى موافقة «النقابة الحرة للفنانين المصورين المحترفين» ليواصل حملته .

وفى الثالث والعشرين من شهر مارس عام 1964 ، تلقى إنذاراً برفض دعواه للمرة الرابعة !

وفى السادس من شهر نوفمبر عام 1964 ، تلقى خامس رفض من غرفة الاتهام وأخطروه فيه بأن دعواه لم تين على أسس سليمة !!

ولم ييأس جازافا ، بل قام بإبلاغ شكاواه إلى لجنة الجماعة الأوروبية . وفى الثامن من شهر أبريل عام 1968 ، قام السيد ألبرخت Albercht ، المدير العام للجنة ، بإخطار جازافا برفض دعواه مع حفظها والأمر بعدم المتابعة !!

وهكذا جاءت آخر محاولة من جازافا لتنتهى ذلك الجانب الرسمى للمسئولين: فهامو جازافا يلجأ إلى تصعيد محاولته ، بأن قدمها إلى كل من الرئيس والقضاة المكونين لمحكمة العدل الخاصة بالجماعة الأوروبية ، وقد أرسل نسخة منها فى الوقت نفسه إلى السيد ميشليه Michelet وزير الثقافة آنذاك .

ومن المؤسف والمتوقع معاً أن نرى أنه على المستوى الرسمى فإن «المسئولين» لم يحركوا ساكناً . بل والأدهى من ذلك ومايستدعى السخرية أن نلاحظ من المؤلف وصاحب الدعوى : « أن شخصيتين سياسيتين تشغلان وظائفهما

قد تدخل لإحباط محاولته ، القائمة على حماية الفنون الجميلة وفن التصوير ، الذى ساهم - بعامه - أكثر من الموسيقى فى إحياء اسم فرنسا الثقافى فى العالم بأسره .

لقد قام جازافا فور أن تجمعت لديه كل الوثائق بتلخيص كل بنود الغش ليثبت كيف أن عمليات النصب فى مجال الفن الحديث إنما هي نتيجة لانتداد عديد من وسائل النصب والاحتيال المتصافرة فى مخطط واحد وأهداف متشابكة ، من ضمنها إضفاء قيمة مصطنعة لبضاعة لاقيمة لها .

وذلك مايلخصه جازافا قائلاً :

«اختصاراً ، فإن عمليات النصب والاحتيال فى الفن التجريدى إنما هي نتيجة تضافر عديد من وسائل الغش المجتمعة ، عبر صلة الترابط والغرض الإجرامى بغية تقييم بضاعة هي - بحكم وفرتها - خالية بشكل جلى ومؤكد من أى قيمة حقيقية . وإذا ما نظرنا إلى كل بند من بنودها على حدة ، فإنه قد يبدو طبيعياً أو غير ضار :

- (١) إن التاجر يخضع الفنان لنفوذه بواسطة عقد مبرم بينهما . وإن كان ذلك يلغى الطابع الحر ، بالإضافة إلى إلغائه للمسئولية والجانب الأخلاقى للمهنة .
- (٢) إنه يفرض الوفرة والكمية عن طريق الاستسهال الناجم عن التفاهة أو القبح ، بدلاً من الإنتاج الكيفى القائم على فن له أصوله .
- (٣) إنه يعرض ويعيد شراء لوحات «صبيان» فى المزايدات العلنية ، مع رفع سعرها بشكل مفتعل وغير حقيقى .
- (٤) وهكذا يقوم باختلاق التسعيرة «بالنقطة» للمسطح ، مع طبع مقاسات اللوحات والأسعار المفتعلة التى توصل إليها .
- (٥) يجذب إلى جانبه بعض كبار رجال الدولة لضمان تنفيذ مخططه بإشراكهم فى العملة الزائفة للفن الحديث المصنّع .
- (٦) يوهم «صبيان»ه ، بأن هناك رقابة رسمية عليا بوضع أعمالهم فى المتاحف الكبرى .

(٧) يقوم بإخفاء ألقابيه الشخصية بالاحتماء خلف أسماء لفنانين ، لاتعد أعمالهم سوى مجرد تجارب تشكيلية .

(٨) يمنع عرض أعمال الفنانين الأحياء ، الذين ينتمون إلى الواقعية أو يضعهم في منافسة مع أعمال الفنانين من أمثال رينوار Renoir أو ديغا Degas ممن يتم تقييم لوحاتهم «كفن حديث عمره أقل من مائة عام» .

(٩) يقوم بخفض السعر الرسمي للفن الواقعي للفنانين الأحياء بنسبة 7500% لاستبعادهم من السوق .

(١٠) يقوم بمعاونة بعض شركائه باحتكار مجمل السوق العالمي ، ويفرض انحرافات على قيمة مايقدمونه .

وبالإضافة لذلك ، لانسى كل المهمة التي تقع على عاتق وسائل الإعلام بغية تحقيق كل بنود هذا المخطط . ويتضافر كل هذه العناصر مجتمعة فإن الأموال العامة أو الخاصة تستثمر في بضائع مزيفة ولاقيمة لها .

وهاهو جازافا يوضح - في مرجعه نفسه صفحة 115 - كيف أدت الأسعار الفلكية الناجمة عن عمليات بيع اللوحات ، والتي يطلق عليها عمليات «مضغ» أسعارها «إلى أن تذهب نسبة 1% إلى المصورين المستعبدين ، بينما الباقي وهو 99% خالصة حتى من المصاريف النثرية التي تتكلفها ، تذهب كلها إلى التجار منظمى عملية الغش هذه» .

ومع ذلك ، فإن محتكرى هذا المجال ليسوا وحدهم في هذه اللعبة ؛ فالآلاف الأشخاص الذين يشاركون في هذه «العملة المزيفة» يصبحون شركاء فيها سواء بإرادتهم أو رغماً عنهم . إنهم شركاء ومدافعون عن هذه الأعمال ، التي تفتقد روح الفن الحقيقية قدر ماتفتقد الجمال ، سواء أكان ذلك بناء على مصلحتهم ، أم حماية لكبريائهم ، أم من باب التحذلق .

وقبل الانتهاء من هذا الجزء الخاص بالنصب والاحتيال في مجال لعبة الفن الحديث ، قد يكون هاماً بصفة خاصة أن نتناول ما أدلى به كامى موكلير Camille Mauclair الناقد الفنى لجريدة «الفيجارو» Le Figaro ؛ إذ كتب يقول

عام 1930 (أى فى فترة مابين الحربين بينما كانت اللعبة فى أوجها) هذه الكلمات الواضحة البصيرة حول الفن الحديث :

«أن يقال إن الفن عندنا يمر بحالة اضطراب ، أو أننا نتشاجر فيما بيننا حول الأساليب والمذاهب ، فلا غضاضة فى ذلك . لكن الخطر الحقيقى يكمن فى ذلك المفهوم القائم على فصل الفن عن الطبيعة وفصل الفنان عن أصله ، مجتئين بذلك كل جذوره ، وهادفين إلى فرض طغيان صيغ وتعبيرات متداخلة ، لا أثر فيها لذوقنا ، وحساسيتنا وتراثنا . إن كل الذين ينتمون إلى التطرف السياسى يقومون بتشجيع هذا المفهوم ويفرضونه عنوة على المتاحف ، مع تهينة مكان الصدارة له لدى لجان التحكيم . ولا يتم هذا لأن البعض يحقق مصلحته الذاتية فى هذه العمليات ، وإنما الأدهى من ذلك أن كل هذا التلاعب يتم تحت شعار «الفن الحديث» ، الذى يمثل جزءاً مهماً من عملية التخريب الثقافى والمعنوى الكبرى . وبعد قليل ، لن يبقى لدينا أى فن قومى ، وإنما نوع من السلع الدنيئة السائدة باتساع رقعة أوروبا كلها Paneuropéenne ، أو نوع من الأكاديمية الدولية للقيح» .

إن الخلفية المتضافرة والمترسة من القوى الخفية وغير المرئية التى تقود اللعبة على الصعيد الدولى إنما هى مؤسسات أحكمت حلقاتها بكل تأكيد ، ذلك أن الأمر لا يتعلق فحسب بالتدخلات المالية غير الشرعية التى تدار على المستوى الدولى ، سواء أكان ذلك من قبيل تجارة الرقيق الأبيض أم الأسود ، أم المخدرات ، وحرب البترول وتجارة العملة المزيفة المسماة الفن الحديث ، وكلها تمثل خطراً ما . وإنما المفزع حقاً والمثير للقلق هو كل هذه المؤسسات الكبرى متعددة الجنسيات ، التى يحميها المجهول ، والتى تعمل بدأب ضد المصلحة العامة للشعوب وضد الإنسانية .

ويما أنه لا يوجد أى عرف دولى يضع حداً للثراء ، الذى لا حدود له للشركات الكبرى ، فإن الإثراء غير المحدود ، لا يهدف الحفاظ على اقتصاد المكاسب التجارية بأى وسيلة فحسب ، بل إن المجازفة هنا لم تكن مجرد انهيار للمؤسسات الحرة تحت وطأة الأهداف التجارية ، وإنما كانت تعنى التخريب

المتعمد لحب الوطن ويتر الانتماء للأرض الأم ، وللتراث الإنسانى وقيمة المعلة
بعامة . ويذهب جازافا إلى أبعد مما نقوله بتوقعه وقوع حرب ذرية أخرى بما أن
جنون الكسب ، الذى لاحدود له وسيادة الرأسمالية الاحتكارية ، سبق لهما أن كلفا
الإنسانية من قبل حربين عالميتين .

* * *

النقد الفنى :

لانتعرض هنا لموضوع النقد الفنى إلا من حيث إنه يمثل دعامة من
الدعامات الأساسية فى انتشار الفن الحديث ومساندته ، بما له من تأثير على
تجارة اللوحات ؛ خاصة على ذلك الجانب غير المرئى فيها .

ففى قصر الفتيه الشاسع الذى يمثل هذا المجال ، لايعتبر الفنان غير عنصر
ثانوى بالنسبة لبقية العناصر المكونة له ، والتى تعرفنا على جوانب منها هيبات
أن تقى بكل معطيات اللوحة .

إن أهمية الناقد الفنى ، الذى يقوم بواحد من الأدوار الرئيسية فى هذه
المسرحية التراجى كوميدية للفن الحديث ، تعد أهمية متعددة الجوانب ؛ فهو الذى
يمسك بخيوط اللعبة فى يده من ناحية الشكل على الأقل ؛ ذلك أنه يرفع هذه
«الموضة» أو «التقليعة» ، ويلززل تلك . ففى تأثير قلمه الشئ الكثير الذى يستمد قيمته
من عوامل متعددة تتضمنها وسائل الاتصال فى ذاتها ، إنه قادر على أن يخفض
أو يعلى من شأن هذا المصور أو ذاك ، يسئ إلى صورته وأعماله أو يزوقها فى
إشادة تبرز معطيات أعماله أو تدينها ، يرتفع بها إلى سماوات متوهجة أو يخسف
بمحتواها وشكلها ، وياله من دور يتقنه وهو المتخصص فى الكلمة المكتوبة ،
والمتحكم فى توجيه الرأى العام ، عبر وسائل إعلام مصنوعة ومتسللة حتى نخاع
الجماهير .

ومن ثم ما من أحد - أظنه - يجهل ، فى يومنا هذا ، إلى أى مدى يمكن
لفنوذ الناقد أن يتلاعب بمصائر الفنانين ؛ فيفضل ما يكتبه يمكن لعمل الفنان أن
يدخل ضمن المجموعات الكبرى ، ويغزو المتاحف ، ويفوز بالجوائز فى

المسابقات.. إلخ ، أو يختفى عن الوجود تماماً أو ينزوى فى جب النسيان ؛ مما يكشف إلى أى مدى يعد الناقد الفنى عنصراً أساسياً فى دوامة هذه الآلة الجهنمية التجارية .

ومع ذلك ، فإن النظريات الفنية المصنوعة على نول الزيف ، والتي تمثل نظاماً كهنوتياً حقيقياً لقيم التدهور والانحطاط ، تبين بذاتها عن حقيقة دور الناقد الفنى - سواء أراد أم لم يرد - باعتباره خاضعاً للقانون الذى يحرك السوق ، وهذا السوق خاضع لماسكى اللجام بأيديهم ، أى لماسكى الاحتكار الحقيقيين ، وما أمثال هؤلاء النقاد غير أحصنة لاهثة فى حلبة سباق مجنون وزائف وملئ بالغش والاحتيال .

إن تاريخ الناقد الفنى يرجع إلى عهد قريب نسبياً ؛ إذ لم تكن هذه المهنة موجودة حتى القرن السابع عشر ، وترجع جذورها إلى الفيلسوف والأديب الفرنسى ديدرو Diderot ؛ إذ كان أول من مارس النقد الفنى وفقاً للمفهوم الحالى .

ويمثل القرن التاسع عشر فترة ازدهار النقد الفنى بمعناه المزدوج ، إذ كان ذا شقين : المجال الصحفى بذاته من جهة ، واعتباره كشكل من الأشكال الأدبية المستقلة أو القائمة بذاتها من جهة أخرى . ولقد أدى ظهور الفن الحديث وتعميمه ، وتفتيته إلى مئات من شطايا المذاهب المتناقضة ... إلى تكوين سريع لفريق من المشتغلين بالقيم الجمالية ، وانساق هذا الفريق وكأنه كتيبة من كتائب الجهاد الصليبية ، تتفانى فى الدفاع عن الفن الحديث وتفسيره وفرضه قسراً على المجتمع .

ولقد تمت هذه الحملة بدقة ومهارة وصخب مبالغ فيه ، حتى وصفها زاهار Zahar ، بالمؤامرة السوداء . ولقد كانت المؤامرة من الظلمة والسواد أو العتمة بحيث استطاعت أن تحجب لعدة سنوات كل الخبايا الحقيقية لهذه اللعبة ، بفضل أسلوب فى الكتابة غير مفهوم على الإطلاق ، ونصوص تصعب قراءتها ... كتابات غامضة ، مليئة بالأشجان ، تعتريها ومضات غريبة وأفكار كالنبوءات ، تزيد من دراميتها رعدة التأكيد وحدة فرضها، (142) .

ولقد أدت السرعة المذهلة لانتصار الفن الحديث إلى اختلاق كيان الناقد الفنى بالسرعة نفسها ؛ إذ هو مكسب ذو حدين فهو يفتح عالماً صغيراً من الفطنة ، سرعان ماتتشكل «أمانة» الكلمة فيه وفقاً للظروف !! ، ويألفها من أمانة تقوم بتعميم وتبرير واستخدام أسلوب فنى قائم كليا على الافتعال ، ولا علاقة له البتة بكل ما هو إنسانى . ومن ثم كان لابد من اختلاق حالة معنوية صناعية ، أو حالة عمى كامل تسمح بقبول كل ما يقدمونه إليها ، من خلال كلمات مضطربة وهلامية وموغة فى التلاعب اللفظي والبنى الغامضة المتفلسفة ... ذلك هو الدور الذى قام نقاد الفن الحديث بتنفيذه بدقة لامثيل لها ! .

ومن المحزن أن نرى الانحطاط الذى وصلوا إليه ليثبتوا معنى لما لا معنى له ، وليقبلوا ويتغنوا بمدح أفضال مجال أدى إلى تزايد مهول لعدد المصورين الجاهلاء ، بسبب السهولة المفرطة والعشوائية التى يقوم عليها هذا الفن برمته . فعلى حد قول ريمون ديسنى فى مرجعه السالف الذكر : «هل يمكن لنا أن نراقب أو نسيطر على كل ما يتعلق بمذهب «التاشيزم» Tachisme (الطرطشة أو البقع) ؟! إن أى إنسان يمكنه أن يلقى ببعض بقع عشوائية ، ثم يقوم ببعض الرتوش بالعقوبة نفسها . وهاهو ذا الاستثمار يستحوذ عليه ، وسرعان ما يتشمم «الطلب» وجوده ، ويقرر اختلاق عبقرى منه ، فيتحفونه بمقدمة أو بمقالة «باتا فيزيقية» (*) Pataphysicienne ، وهاهو ذا قد أصبح نجم الموسم» (122) .

إن أسوأ ما فى الأمر لم يقل بعد ، ذلك أن هذه المقدمة فى الكتالوج الخاص بمعرض هذا الفنان أو ذاك ، أو هذه المقالة «الباتا فيزيقية» ، أو تلك لا تقوم بتوجيه الرأى العام فحسب ، وإنما تثير نقطة جد حساسة تتصل بالنظام الحالى للسوق ، الذى يفرض تبعية مابين الوظيفة الثقافية الجمالية للناقد الفنى ووظيفته الاقتصادية . وهى تبعية - بحكم الواقع - تدين سلطة الناقد الفنى ونزاهته المعنوية ، خاصة وأن كشف الأجور النقابية الذى تورده ر. مولان R. Moulin فى بحثها القيم عن «سوق فن التصوير فى فرنسا» يكشف إلى أى مدى يجد الناقد

(*) تعبير ألفه ألفريد جاري A. Jarry الأديب الفرنسى مؤلف شخصية أوبو Ubu ، ويعنى هذا التعبير «علم الخاصة» الذين يأتون بحلول خيالية للموضوعات العامة .

الفنى نفسه واقعاً تحت وطأة الإغواء؛ خاصة إذا لم تكن لديه وظيفة ثابتة أو ثروة خاصة، تسمح له بحياة كريمة: «والأفهم يقع فى دائرة الشكوك فوراً بما أن الأحكام والآراء التى يدلى بها مدفوعة الأجر، فى بعض الأحيان، من الأشخاص أنفسهم الذين تخصصهم هذه الآراء»!! (91).

ومن جهة أخرى، فإن الصلة الضمنية القائمة بين الاتجاه السياسى للجريدة والاختيار الفنى الذى يقوم به الناقد، الذى يعمل بها، يمثل ثقلًا لا يمكن إغفاله فيما يكتبه. وتأخذ هذه الصلة وجوداً لا يمكن إنكاره، حينما يتعلق الأمر بمساندة مصور ما شيوخ حقيقة ذلك أن الاتجاه الجمالى السياسى للجريدة قد تم تكوينه بحيث يتغنى وينماشى مع الأيديولوجيات الحاكمة؛ لذلك فإن هذا الصنف من النقاد الذين خلقتهم أجهزة إعلام مهيمنة، يمثلون نوعاً من «الكهنوت» أو «الريابية»، فى هذه المافيا العالمية. إنهم حلقة من سلسلة مترابطة من الناحيتين الاقتصادية والفنية بكل أبعادها المتدنية وشراسة مؤسساتها.

ودون التوقف طويلاً عند المعنى الحرفى لكلمة «ريابية»، لا يمكننا أن ننكر - مع ذلك - وجود مسؤولية مباشرة تقع على عاتق نقاد الفن هؤلاء، نظراً للوضع الراهن الذى أصبحت فيه اللوحة قيمة تجارية، وقيمة استثمارية. ويرجع ذلك إلى تدخلهم أو تواطؤهم مع التجار لاختلاق هذه القيم التجارية.

هذا هو ما يصفى على الكم الهائل الذى لا مثيل له من الكتابات، قوة لم يعرفها مجال النقد من قبل؛ فهى إما قوة خالقة للأساطير، أو هادمة للحقائق. ويقول موريس باريا Maurice Pariat فى كتابه عن «اللوحة المعاصرة كقيمة استثمارية»: «إن القيمة أو التقدير الممنوح لعمل المصور يعتمد على قدرة الناقد فى المدح أو الهدم على السواء. فما من شكل مشوه، أو عته ملون، أو أى تشوهات عشوائية إلا ويمكن فرضها على الجمهور إلى حد الإعجاب... وهكذا، فإن فن التصوير المسكين وجد نفسه نهبة للأساليب الحاسمة والقوية لكل من السياسة والبورصة» (100).

وبعد انحسار موجة الانتشار العنيفة التى حدثت، يمكن القول، حالياً، إن النقد الفنى الذى دامت ممارسته طوال القرن العشرين تقريباً، كان الحليف

الرئيسى الذى أدى إلى عملية البلبلة التى لا مثيل لها . وهاهى هيلين بارملان H. Parmelin تقول فى كتابها عن «الفن واللافنانين» :

«إن ما حدث طوال السنوات الماضية يتضمن استحواذ النقد الفنى على كل الفراغات التى كان لابد من شغلها . وهذه الفراغات هى غياب الفكر ، وغياب البحث ، وغياب الإبداع ، وغياب المعرفة ، وخاصة غياب البصيرة التام ، وغياب الخشوع ... إن نقاد الفن المتخصصين فى «مذهب اللافن» Anartisme ، وكل الذين انساقوا معهم ، يملأون هذا الفراغ العدمى بكلماتهم ... فهناك من يخترعون ويؤلفون بولع ، لكن بعيداً عن الفن . وسرعان ما يكتب النقاد بفيض من المعانى الفلسفية ، والمهارات اللغوية والمضامين الاجتماعية ، ومهارة الابتكار وتفرد ، والعودة إلى منابع ، وكل ذلك الهذيان اللغوى والمعنوى المثقل بالتعبيرات الفلسفية المزعومة أو العلمية الرائجة حالياً» (101) .

ولقد أدت بالفعل هذه البلبلة المتحذلقة من الكتابات النقدية إلى حالة خلط لا مثيل لها . وما أكثر الكتب المتناقضة التى نشرت من قبل نقاد الفن - على سبيل المثال - لكى يحددوا فى أى شهر أو أى يوم ، وأحياناً فى أى لحظة قام هذا المصور أو ذاك باختراع هذه العناصر أو تلك فى لوحة من لوحاته ! ونحن لم نقل بالطبع فى أى سنة بما أن عدد المذاهب الحديثة فى هذا الفن الحديث قد تجاوز المائة فى حوالى نصف قرن تقريباً ؛ مما يضع أيدينا على مزاعم الجدية أو الأهمية التى أضفوها على أعمال متهرئة وفن متدنٍ .

ويقول جان كلير Jean Clair بهذا الصدد : «لقد انسأقت كتائب من الباحثين ، وأنهكوا أنفسهم ، لإثبات من كان أول من قام بالتصوير باللون الواحد . ولقد تم تكريم وتبجيل أول لوحة تجريدية رسمت بالألوان المائية مثلما تم تكريم وتبجيل أول صليب أصلى . لقد حقدوا على المتحف الذى احتوى قداستها مثلما حقدوا فى العصور الوسطى على كنيسة سانت صوفى فى القسطنطينية . واندلعت المعارك هنا أيضاً - مثلما حدث مع صليب السيد المسيح - حينما اكتشفوا أن عدداً من المتاحف كان يزعم حيازته لمثل ذلك الكنز . وكم أريقَت من عبقریات للبحث عن أيقونات التجريد لاقتنائها وإثباتها فى براءات رسمية ولم ينهك نقاد الفن

أنفسهم فى الاستعراضات البهلوانية وحدهم ؛ إذ إن الفنانين ذاتهم خضعوا لموجة الخذل هذه . ولقد أصبح تغيير تاريخ اللوحات «موضة» شائعة من باب التسابق . وحينما لم تعد الحيل كافية كان المصور ينقلب كاتباً ، ومدافعاً ، ومترافعاً عن عمله الذى يحاول إثبات أسبقيته ، مستعيناً فى ذلك بشتى الاختبارات لإثبات أنه الأسبق فى الاكتشاف، !! (26) .

ومن هنا نرى أنه لم يكن من باب المصادفة أن يكتب باتريك ديلم Patrick d'Elme فى كتابه عن «فن التصوير والسياسة» قائلاً : «إن نقاد الفن قد لعبوا ببراعة دور الشرطى ضد الثقافة» . بل ويمكن إضافة تعبير «الشرطى الرقيب» بما أن الناقد يختار ، ويستبعد ، ويرتب ، ويمدح ، ويهدم ، إذ إن اكتشافاته الخاصة لا بد لها أن تهدم أولاً الماضى بأكمله ، وبعدها كل ما كان قبله هو نفسه شخصياً !! فذلك ضرورة لكيانه ، أو على حد تعبير ديلم : «إنها ضرورة لمجده وأحياناً لثروته» ، لأن اللوحات التى كان المصورون الجدد يهدونها له عرفاناً بالجميل وبالخدمات المؤداة فى «الصحافة» تتحول فيما بعد إلى قيمة تجارية مكيّنة ، إنها مجرد عملية حدس وخدع وتضامن» (49) .

وما من شخص يجهل حالياً مدى الاطمئنان وراحة البال والسهولة التى يصبح بها هذا الفنان مدعوماً من هذا التاجر أو ذاك ، من هذه المؤسسة أو تلك ، بل ولديه «مفسر» خاص يتبارى فى اختلاق المعنى الأمثل للوحاته كى يتم الاعتراف بها . فالناقد الفنى فى عرف هذه الذوى من طاعنى الفن الأصيل المرتبط بالواقع والمجتمع وقضايا الإنسان ، إنما وجد من أجل مدح المهارات التجريدية أو الحرفية التقنية ! ومن هذا المنطلق يتضح الدور الاجتماعى المسئى الذى يقوم به هذا الصنف من النقاد ... إنه يقوم بدور الوسيط بين المجتمع والقوى الاحتكارية ، معتمداً على مهاراته اللغوية ، وعلى مدى مايمكنه القيام به من حركات بهلوانية بهذه اللغة التى تطنطن لها وسائل الإعلام والاتصال بعامه ، وتخضع فى إيقاعات حركتها لقوانين بعينها ، تنطلق من الأهداف الخفية للعبة الفن الحديث والتى ينساق لها البعض بحسن النية .

لقد برعوا وتفوقوا فى الحركات البهلوانية الشديدة لأن الكتابات والتفسيرات

التي يؤدونها من أجل امتداح الفن الحديث لا تقل عما يقوم به لاعبو الأكروبات في السيرك . وسرعان ما أدينت هذه الألعاب الأكروباتية منذ أولى محاولاتها ؛ ففي الوقت نفسه الذي بدأت فيه اللعبة كانت هناك نفوس شجاعة واضحة البصيرة ، كشفت عن الغش الكامن خلف هذه «البدعة» الشديدة التنظيم ، والتي تصافرت الجهود من أجل نشرها وإخفاء «كهنتها» وتحقيق أهدافها معاً .

لقد كتب زاهار في كتيبه الشهير حول «فوضى الفن المعاصر» يقول في سخرية مرة عن هؤلاء المحدثين «الذين يتخمون بأطعمة ثقيلة شبه فلسفية ، ويطلقون لأنفسهم العنان جرياً وراء تلك العلامات والرموز التي لا تتضمن حتى أى معنى كهنوتى ، والتي من أجل تفسيرها يجرى الناقد ويمرح وسط موجات الهلوسة» (صفحة 61) .

أما جى دورمان Guy Dormand فيرى «أن القارئ يجد نفسه أمام مؤامرة حقيقية تقوم بتكرار ونشر وفرض مصطلحات تشكيلية لامتثل الوصول إلى قيمة ما، وإنما هي مجرد تهقر إلى أدنى حدود البدائية في مجال الإبداع الجمالى» .

إن المقال النقدي سواء أكان مكتوباً أم مذاًعا يترك أثره وفاعليته على الجمهور الذى ألف الاهتداء بالباطل، كما يؤثر على تكوين وشهرة المصور ومجده . إن تأثير المقال النقدي يتعدى تأثير مقدمة الكتالوج الخاص بالمعرض ، ذلك الذى يتفاوت حجمه وفقاً للإمكانات الاستثمارية للتاجر ، وإن كان حجم الكتالوج قد يصل من مجرد ورقة إلى كتيب فاخر ملئ بالصور الفوتوغرافية الملونة، من هنا فقد يكون تأثير مقال نقدي أبعد أثراً من كتاب متخصص؛ ذلك أن مقالاً فنياً فى صحيفة يومية فى متناول الجميع، أى إنه أكثر شيوعاً وأسرع تأثيراً .

لقد انعكس تأثير النقد الفنى على اللغة أيضاً . ومن الطريف أن نرى إلى أى مدى انعكس الاضطراب ، الذى سببته تجريدات القرن العشرين على أسلوب نقاد الفن ولغتهم . ومن جهة أخرى ، فلقد تأثر النقاد ، أياً كان مستواهم الثقافى أو ثقلمهم من الناحية الجمالية ، بكل البهلوانيات التى قام بها المصورون ، والتي كان عليهم - كنقاد - أن يعلقو عليها ويفسروها ويفرضوها على الجمهور . ولاشك فى أن القيام ببحث مستقل عن لغويات نصوص النقد الفنى سيكون له قيمته ومغزاه .

ومن جهة أخرى ، لا يمكن أن ننكر مسئولية هذه النصوص عن التخريب المتعمد لعقلية القارئ أو المتفرج ... إنه عالم بأسره من المفردات ، وباله من عالم . مفردات مهلوسة حيناً ومغربة حيناً آخر ، تعبيرات وتركيبات تتطلب من القارئ أن يكون بدوره هو أيضاً متفلسفاً أو دعياً أو بهلواناً لكي يصل إلى فهم المقصود من هذا النص أو ذاك ، لإدراك مايرمى إليه كاتبه ، ذلك إن لم يكتف بإدانة نفسه بالجهل وعدم الفهم ، ثم يصمت !

وسنذكر هنا بعضاً من هذه النصوص الواردة في كتاب بارملان (101) لنرى تأثيرها وغموضها الذي يصعب فهمه ، وإن كنا نسلم بأن الترجمة هيهات أن تعبر عن الغموض المقصود والتلاعب اللفظي المتعمد ، والمعاظلة اللغوية المعقدة بلا معنى أو ضمن سياق يفرضها ، بل هي ابتداعات - لا إبداع - في سيرك البيع والشراء ومافيهما الفن الحديث :

لقد كتب الناقد فرانسو بلوشار François Pluchard في جريدة «كرومبا» Combat عن المصور فونتانا Fontana الذي لم يقم بغير تمزيق لوحة بيضاء ببعض ضربات بالسكين . كان ذلك فحسب كل ما ادعاه من تصوير . وباله من تصوير تطوحي لا يحتاج منا - في ظني - إلى تعليق ، إذ كيف نعلق على ما ليس فناً بحال !!! لكن ، ما الذي يقوله الناقد الفني المتميز ؟

«حينما قام فونتانا بخرق اللوحة بمثقب ، بتمزيقها بالسلاح ، فلقد استطاع أن ينقل التعبير الفوري ، المثالي للاعتراف ؛ إذ إن انفعاله حيال العالم قد تثبت إلى الأبد في تلك اللحظة نفسها التي عبر فيها عنه ، بلا أى عوائق ، وبلا أى تحفظ كان . فما أن تبين مراده حتى أكمل لوحته بالسرعة الواضحة نفسها ... إنها أكمل تعبير عن الصرخة !!

وهنا لايمك القارئ إلا أن يتساءل : أى اعتراف ؟ وأى انفعال ، وأية صرخة تلك التي يعبر عنها فنان حينما يقوم بتمزيق لوحته بعدة ضربات بالسكين ؟!

وعندما بدأت صفائح القمامة تدخل وتغزو عالم القيم الجمالية للفن الحديث مع مطلع الستينيات ، كتب الناقد الفني ريستانى Restagny عن إحدى اللوحات

القمامية أو بتعبير آخر عن أحد تراكمات محتويات صفائح القمامة فى لوحات «الفنان» أرمان Armand قائلاً: «إن صفائح القمامة فيما بين 1959 و 1960 تجسم تأكيد الإرادة !! (علامات التعجب من عندنا) ... وفى لوحات أرمان نجدها تعبر عن مذهب الكرترانية (المذهب الديكارتي)، الذى يغمر بأسره كل رؤاه الفنية» .

ولعل القارئ فى غنى عن التعليق على الصلة بين صفائح القمامة والمذهب الديكارتي . ولنتطالع ماكتبه الناقد الفنى ريسانى نفسه عن لوحات إيف كلاين Yves Klein ، التى يستخدم فيها اللون الواحد والإسفنج الماصق أو الحبر المسكوب: «إن إيف كلاين الذى عاش فى عمله التجلى الموقالى للضمير الكونى ، وتثبيت القوى المتحررة عن طريق اللون ، وتوحد اللون مع الفضاء وقد تحول إلى طاقة ، ولامادية المادة الملونة للون ، وإدراكه للفضاء كقيمة مركبة فراغ مملوء ، وفى نهاية تحليله فى مشاهدة انجلاء الحق ، يعتبر بناء تآلف كوني مستعينا بالمبادئ الأولية للطاقة، (*) !! .

أما الدكتور فيمبر Wember ، أمين متحف مدينة كريفيلر Krefeld بألمانيا الاتحادية ، فيكتب عن لوحات المصور إيف كلاين نفسه قائلاً : «إن الفراغ بالنسبة له يتحول إلى هدف لا بد من الوصول إليه . ولذلك لابد له من أن يمسك بزمام حياته الداخلية بالإضافة إلى امتلاك ذلك الفراغ الذى يعد الاكتمال الروحي رمزاً له . وانطلاقاً من هذا المفهوم الذى ينبثق من لوحاته ذات اللون الواحد ، والتى تعبر عن الفراغ المتكامل ، فإنه يحقق اللوحة اللامادية بل ويقدم معرضاً متكاملًا لامادياً !» .

(*) أثرت إيراد النص الفرنسى لنعرف أي لغة متحذقة ومهوشة يتكلمونها :

“Y. Klein qui a vécu son oeuvre la révélation progressive de la conscience planétaire, fixation des énergies libres par la couleur, identification de la couleur l'espace ainsi dynamisé dématérialisation du pigment coloré et perception de l'espace en tant que “vide - plein” et, au - terme du survol intuitif, reconstitution d'une synthèse universelle en partant des principes énergétiques élémentaires”.

وقد قدم هذا الناقد المصور نفسه في «الموسوعة الدولية لفن التصوير» بما له مغزاه : إذ كتب قائلاً : «الأزرق بالنسبة لإيف كلاين يمثل أكثر من مجرد لون . إنه رمز ، إنه الواقع الكوني الذى تؤكد صور الأرض الملتقطة من القمر . ثم أضاف إلى الأزرق الوردى ولون الذهب ليحصل على ثلاثية ألوان اللهب وفقاً لنظرية الكون لدي «الروزيكروشن» (١٤٢) ومن هنا تتضح أمامنا صلة هذه الجماعة بالماسونية !

وفى مايو 1967 ، كتب ميكلسون Michelson عن علب الزجاج والمرابا التى قام لارى بيل Larry Bell بعرضها (والتي لم تكن فى الواقع غير قوائم أو قواعد لوضع التماثيل فى المعارض) ، كتب يقول : «إنها قوة الإدراك الصافى والمادة الصافية التى تمثل حدود العالم الذى يتحرك فيه لارى بيل ؛ إذ إن الاستبعاد المسبق لهذه الأشكال ، وإتمام مثل هذا السلم الموسيقى من المهارات التقنية للانفعال والتوصيل ، وإسقاط الألوان ، قد تضافرت لاستبعاد تلك الصفة الجمالية البدائية عن المسطحات وساهمت فى السيطرة على معنى الأنا ومحيط البيئة لدى المشاهد الذى أصبح يحذر من الآن فصاعداً استمرارية فضائية أو تكثيفية ، معدلة أو جامدة ، مخلوقة أو منكرة إلى ما لانهاية بفضل المسطح العاكس ... إن تلك هى الميزة الحقيقية للفن الانعكاسى لبيل : أن يستحث ويشحن فى كل فرد منا عملية الإدراك - الحنون والمقلقة - لإدراكنا الذاتى ورواؤنا .

كل هذه الفقرة البهلوانية التى تبدأ بالإدراك الصافى السابح فى تعبيرات «الإسقاط» و «الأنا» و «التكثيف» و «المسطح العاكس» ليتحدث عن دعى أو مهرج فى سيرك . ألبسه مسوح العبقرية لعرضه العلب أو المكعبات لا أكثر ولا أقل !! ونحن بدورنا لن نتساءل حتى عن صلة هذه العلب أو المكعبات بفن التصوير .

أما الناقد الفنى فورج Forge فكتب ذلك النص الموغل فى تحذلقه والباعث على السخرية ، مادحاً أحد هذه المزاعم مما أطلقوا عليه اسم الوحة ، وكان المصور روشنبرج Rauschenberg قد لصق عليها شمسية وبعض قطع من المعدن عام 1968 ، وهاهو يقول :

«إنها أحد إبداعات روشنبرج المميزة إلى أقصى حد بخروجها على المؤلف . إن ما يميزها أو يبعدها عن المؤلف هو الطريقة التى تتوافق بها مثل هذه الأشكال القوية العنيفة والهجومية كالمعدن أو الشمسية مع مسطح اللوحة ، ومع ذلك فإنها متكاملة ، سليمة ، وما من ميزة أو صفة من الصفات التى سردها تسيطر أو تؤثر على الأخرى . إن الأشياء والترانزستورات تتجاوز وتتعايش جنباً إلى جنب بالتناغم والتوافق ، ولها مطلق الحرية فى أن تفتقرش ، وتتنفس ، وتبرز قيمتها ، دون أن تهجم عليها شخصية بقية الأشياء المجاورة لها ، أو أى أغراض

ذات نفوذ توحيدى . إن شكل الشمسية الهادئ المستدير كالشمس ، فى مقدمة اللوحة ، لايهتز أو يتأثر بحيوية المعدن الكاسرة ، وإن لم يكن ساكناً فى لا مبالاة ؛ بل إن طاقة المعدن لم تمس أو تتأثر بسلبية الشمسية . إن الرمز هنا كان يمكن أن يكون بالفعل رمزاً على الحرية أو عن التصميم الذاتى (*) لمدينة رغدة !! .

ولسنا فى حاجة - فى ظنى - إلى أى تعليق يدخل فى حوار الصم اليكم مع هذه الأقلام ، التى تسود وجه الورق بسواد رؤاها ومداد الأغراض الخبيثة ، التى صفتت خطاها فى مستنقع الفن الحديث !! .

وهاهو نموذج أخير يعتمد على اللغة ليصل إلى تأثيره المطلوب ؛ حيث إن قيمة العمل ذاته لم تسعفه لكتابة أى شئ فلجأ إلى حذقة لغوية فجة . كتب الناقد الفنى بريون Brion عن كاندنسكى يقول : «إن كل شئ لديه ينتهى إلى تجربة روحية ، حتى التعبير عن المادة البحتة ، أو حتى الصدمة الناجمة عن الألوان . علينا ألا ننسى ذلك أبداً . فكل شئ يظل بالنسبة له تجربة ERLEBNIS : وكل مالا يصبح ERLEBNIS فهو غير موجود البتة بالنسبة له ! » .

وبالطبع .. فإن مثل هذه الكلمة الألمانية الغريبة عن اللغة الفرنسية المكتوب عليها المقال ، والتى راعى الناقد أن يكتبها بالبنط الكبير (واثقاً من أن معظم القراء الفرنسيين لا يعرفون الألمانية) ، هى محور الفقرة ، وهى التى تثير الشعور بالنقص لدى القارئ لجهله لهذا التعبير . ولو أن الناقد كتب ببساطة بدلاً منها تعبير «تجربة معاشة» بالفرنسية ، لتغير شكل النص على الفور وأصبح نصاً عادياً يمكن لأى قارئ أن يكتبه أو أن يفهمه . وذلك ماكان هؤلاء الجهابذة من النقاد المعلقين فى خيوط مخططى اللعبة يتفادونه بأى ثمن ! .

وهنا يحق لنا أن نطرح السؤال التالى : ترى إلى أى مدى يدرك هؤلاء النقاد معنى ما يحاولون تفسيره أو فرضه على الجمهور ؟! لعل الإجابة التى يقدمها لنا زاهر جد محتملة ، بل لعلها فى الواقع أقرب الاحتمالات ، إذ يقول : «فيما

(*) العبارة مكتوبة بالإنجليزية فى النص الفرنسى وهى : Self determination ولها مقابلها

بالفرنسية وهو : auto - détermination ، لكنه التحذلق !

يتعلق بنظرية التجريد فهم لايفقهون أكثر من أى فرد عادى ؛ أى لايفقهون شيئاً ، إنهم يقومون بفرضها على الجمهور لأنها غير مألوفة ، وكل مايدersh - فى نظرهم - يعد تجديداً ، وكل ما هو جديد ينتمى إلى العبقريّة ، وكأن العبقريّة المعاصرة تقوم على التجديدات المتلاحقة الحالية .

ورغم هذا الجهد الموصول لبث الأهداف الخفية منذ بداية القرن تقريباً ، فما من لوحة من هذه اللوحات المفرطة فى التشويه والعبث قد استطاعت أن تجتذب - بحق - قلب الجماهير ، رغم ذلك الكم الهائل من الكتابات ، ورغم الزخم الغريب من الذكاء المهدر هباء بغية فرضها . فكل هذا الإنتاج من الفن الحديث ، الذى بدأ نشره بدأب متواصل منذ عام 1910 ، وتمت مساندته - فى مجال النقد - بكل الوسائل التى وصلت ذروتها منذ عام 1949 بسيل جارف ، لا مثيل له من خلال جوقّة دولية من البهلوانيات اللغوية ، فإن الفن الحديث بكل تفريعاته وتشعباته مازال يثير السقم نفسه وعدم الفهم ، وما زال يثير السؤال نفسه الذى يلح بضراوة : ترى ما الذى خلف هذه اللعبة المحبوكّة ؟!

وهى لعبة محبوكّة لاشك فى ذلك - كما رأينا - ومن أجل إحكام حلقاتها فى مجال النقد .. فإن أفراد الجوقّة إذ يمتدحون مزايا الفن الحديث ، فإن لكل منهم قاموسه الخاص الذى ينساق عبره فى خطب ملتوية من المعميات الغامضة التى لا يستطيع أحد فهمها ، حتى أولئك المشاركين العاملين فى اللعبة ! ومن نافلة القول أن نشير إلى أن هذا الكم من الكتابات التبريرية لم يكن وحده الذى يمثل جانب النقد الفنى ، وإنما كانت تسانده مبالغ طائلة من رؤوس الأموال ، والميزانيات المخصصة للدعاية ، وأحدث مطابع العالم بطبعاتها الفاخرة الملونة ، الغالية التكاليف ، والتى كانت تباع بالخسارة يقيناً ، بل ويتم توزيعها من قبيل الدعاية من خلال مؤسسات ، لاتكف عن دراسة سيكولوجية الجماهير لتصوغ أهدافها عبر منطلقات محسوبة بكل دقة .

من حسن الحظ أن البعد الزمنى الحالى يسمح بتقييم هذا الكم الهائل من الكتابات ، ويكشف كيف أن المسألة لم تكن تتعلق بمذاهب جمالية حقيقية ، وإنما بمؤامرة محكمة ، «مؤامرة سوداء» غياهبها بعيدة المدى ، وبإلها من مؤامرة يقول

عنها روبريه Robert Ray إنها «مؤامرة شرسة ، حيكّت بدقة وحذق ، لها ميزانياتها الباهظة ، وفروعها الممتدة عبر القارات وعبر المحيطات ، ولها قياداتها العليا واستراتيجيتها الدولية ، وهيئة الدعاية اللازمة لها ، وفنيوها المتخصصون في التفجيرات اللافتة للنظر ، وهيئات التوزيع الخاصة بها وسماستها . إنه شيء أشبه مايكون بشركة بتروولية ضخمة ، أو بشركة سينمائية ، من قبيل جنرال موتور أو متروجولدوين» (119) .

ولم يعد هناك أدنى شك في أن الجانب المالى للعبة الفن الحديث هذه ، والذي ساعد على انتشارها بالشكل المفتعل الذى رأيناه ، قد أساء إليها في الوقت نفسه الذى فرضها فيه ! سواء أكان ذلك بسبب العجلة الدائرة التى لا تتوقف من أجل سرعة انتشاره لتغيم سماء الواقع تحت قنامة أهدافه ، أم بسبب ربط الفن بالبورصة والاستثمار وعالم المال بحسابات ربحه وخسائره . ولا يخفى على أحد أن ترجمة المكانة الفنية إلى مصطلحات مالية وصفقات وألفاظ استثمارية قد مس الجانب المقدس لدور الفن ، الذى كانت قيمه الأصلية تفاعلاً حياً بين الفنان ومجتمعه وعالمه ، وإرهاصاً بالأمثل ، وتجاوزاً للممكن والمتاح ، وبإلها من رسالة تكالبت عليها قوى الظلام والتخطيط المحكم .

إن قامة الفن العالية تنوء تحت وطأة مصطلحات المضاربة وتعبيرات دنيا المال وإن كان مذاقها يثير لعب أولئك المستثمرين المحترفين ، أما أن تصدر عن فنان ، أو أن يتم تطبيقها على الأعمال الفنية ، فإن ذلك لا يثير الدهشة فحسب ، وإنما يصبح مقززاً . حينما نسمع تعبير أن فلاناً يضارب على «غلاة الواقعية» Hyper Réalistes ، أو أن فلاناً يراهن بلوحاته الموقعة باسم فوترييه Fautrier ضد اللوحات الموقعة باسم ج. ألبرت J. Albert ، أو أن المتخصصين أعلنوا بعد عودتهم من الولايات المتحدة الأمريكية تخفيضاً لازماً في سعر لوحات هذا أو ذاك من المصورين ، أو أنهم يرتبون عملية شراء واسعة من أعمال أحد المصورين الشبان بسبب النجاح (المزعم والمصنوع) ، الذى لاقاه معرضه الأخير المقام فى متحف الفن الحديث بنيويورك ، وبإلها من عبارات أبعد ماتكون عن مجال الفن الإبداعي .

ومن ناحية أخرى ، علينا أن نشير إلى أن زيادة الطلب على أعمال أحد المصورين ليست هي العامل الوحيد لهذا التوسع الاستثماري ؛ إذ يبدو أن أزمة عام 1929 كانت عاملاً مساعداً في مساندة هذا التوسع ، الأمر الذي يفسره رايمس عندما يرى أن «آلاف الأشخاص قد أفلسوا خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وإن أصبحوا يمتلكون رزماً من الأوراق المالية ، التي فقدت قيمتها بين عشية وضحاها . أما أولئك الذين كانوا يمتلكون الأعمال الفنية فهم يدركون أى أرباح تتحقق لهم ، إذ تتعدى قيمتها الشرائية بكثير ... لقد أصبح هذا الفهم بمثابة الاكتشاف . وابتداءً من عام 1939 ، بدأت أسعار الأعمال الفنية ترتفع بشكل ملحوظ وجاد ، بعد أن تعرضت لانخفاض ثلاثة أرباع سعرها الأصلي» (121) .

لقد بدأ النقاد منذ عام 1933 يستخدمون تعبير «قيمة استثمارية» كالأسهل والسندات ؛ لذلك تزعزت ثقة الكثيرين في يومنا ، وأدركوا أن النقد الفني ليس بالنزاهة التي تخيلوها . ذلك أنه قد اتضح ارتباطه الوثيق بمؤسسات واستراتيجيات عليا ، تجلت عن الأهداف التي كان يدافع عنها ، والأساليب التي كان يستخدمها . والأدهى من ذلك أنه ما أكثر الذين أصبحوا يتهمون هذا المخطط الدعائي الاستثماري بأنه «مؤامرة يهودية» ! وهو كشف لا يد لنا فيه ؛ إذ هو حقيقة تؤكدنا جمهرة من الأفلام ، التي اهتمت بلعبة الفن الحديث والقوى المحركة لأهدافه . وليس غريباً أن نرى في الحقبة الراهنة عديداً من الأسماء غير المعروفة التي فرضت على النقد الفني واستولت على الأبواب الفنية الثابتة في الصحف اليومية .

إن مايقوله كامى موكلير Camille Mauclair في كتابه الذى دعمه بالوثائق ليستحق منا وقفة تأمل ، عندما يؤكد الظاهرة التي سبقت الإشارة إليها ، وهى أن معظم نقاد الفن وتجاره كانوا يهودا . وهو يورد في الصفحة الحادية عشرة من كتابه حول «أزمة الفن الحديث» كشفاً كاملاً بأسمائهم ، يتبعه بهذه العبارة : «إنه قد انكشف أمرهم الآن ، إلا أنهم كانوا يمثلون القيادة العامة للدعاية للاتحاد الاحتكارى فى الجرائد البورجوازية وفى الجماعات والمنظمات الطليعية ؟» (89) .

ولقد تصافرت جهود كل هؤلاء العاملين ؛ بغية انخفاض سعر لوحات الفنانين الواقعيين لمساندة «صبيان» الاتحاد الاحتكارى التجارى .

وأياً كان الأمر ، فإن الرد الذى كتبه الناقد الفنى أود Uhde ، اليهودى المعروف ، مادحاً أبناء جلدته ، يؤكد ماتقدم من كشف إذ يقول : «لولا اليهود ، لكانت أوروبا الآرية ، الغارقة فى الدماء ، عبارة عن بلاهة مؤسفة . ولقد كان تأثير اليهود عظيماً . ذلك أن أكثر من ثلاثة أرباع التجار وجامعى اللوحات من اليهود ، وهم يمتازون باستكشاف القيم الكبرى قبل الآريين بمراحل . وبفضل تأثير نفوذهم وأموالهم أمكن للوحات المهمة أن تدخل المتاحف ، ورغم أنه ما من أحد تنبه لهم فيما مضى ، على ما يتمتعون به من ملكة فهم كبرى ، حتى أنه لم يشتهر من بينهم سوى بيسارو Pissaro ، فإنهم اليوم هم الذين يقومون بالمساهمة الكبرى الأساسية فى الفن الحديث : بل إن وجود هذا الفن إنما يرجع إلى فضلهم فحسب (89) .

وهنا لم يكتف موكليز بإدانة «هؤلاء السماسرة الذين لعبوا دوراً أساسياً فى مدح المصورين ، الذين تتبناهم المؤسسات اليهودية ورجم أو إغفال من كانوا يرفضون شروطها وطاعتها ، فحسب ، وإنما ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير ، إذ كشف لنا عن الحتمية التى أدت إلى إشراك كبار موظفى هيئة الفنون الجميلة والذين كان جلهم من اليهود ؛ ليتم لهذه التجارة خاتمتها الرسمى ، وتتم اللعبة التى خططوا لها جيداً ، وهاهو يقول فى كتابه عن «هرج الفن المعاصر» :

«كان المدير العام لهيئة الفنون الجميلة هو اليهودى بول ليون Paul Léon ، الذى قام بتعيين المغفور له دوجاردن - بوميه Dujardin Beaumetz كما كان معظم أعوانه البيروقراطيين من اليهود ، وخاصة أبراهام وروبير بروسيل Abraham & Robert Brussel المسئولين عن الدعاية الفنية الخارجية . وكان هذا الأخير ناقداً موسيقياً فاشلاً فى النقد الفنى ، لكنه معروف بخضوعه لأوامر رئيسه ، الذى لم يكن يرفض أى شئ للتجار ، الذين كان بوسعهم عمل حملة ضده فى الأوساط السياسية . وذلك لأن بعض كبار السياسيين كانوا قد بدأوا يستثمرون أموالهم فى اللوحات . ولقد كان عهد بول ليون (مدير عام الفنون الجميلة) طويلاً ، ثم خلفه اليهودى هويسمان Huisman ، الذى ساند وزير الثقافة جان زيه Jean Zay اليهودى ، أيام دكتاتورية الجبهة الشعبية وحكومة ليون بلوم

Léon Blum اليهودية ، التي حققت نجاح الكيان اليهودي في كل المجالات حتى عام 1940 ، ولقد قام التجار اليهود بكتابة كشوف بأسماء المصورين ، الذين يسمح لهم - دون غيرهم - بالاشتراك في المعارض الخارجية ، وقدموها إلى بول ليون - بناء على طلبه - ليتولاها روبير بروسيل بالدعاية ، (88) .

فترة استشهاد طويلة لكنها تكشف وتثير أكثر من مسألة عن تلك الفترة ، التي كانت فيها فرنسا خاضعة للسيطرة اليهودية ، وهو مأسوف نعود إليه عند الحديث عن تهويد الفن الحديث .

بقى أن نقول إن تلك السيطرة السحرية على عالم الفن قد تمت - كما رأينا - عبر مؤسسات ضارية ، استخدمت فيها وسائل الاتصال والإعلام لتغمر الواقع الفني بذلك الركام من كلمات ، توج بها النقاد ذلك الذي أسموه فناً حديثاً ! ولم يكن كل هذا الكم الغريب من النصوص التي صاحبت هذا الفن إلا تكراراً للأراء المعادة نفسها ، والتي لم يكن هناك سبيل للسيطرة عليها في عالم تلعب فيه أدوات الاتصال دوراً بالغ الأثر في صياغة وتكوين الرأي العام . وهكذا انتهى الأمر بالجميع إلى تكرارها ، إلا قلة ستظل ضمير الشعوب وأملها مهما كانت قلتها وضعف إمكاناتها في مواجهة هذه الآلات الجهنمية .

وعلينا أن نذكر هنا أن من أهم العوامل التي أسهمت في نسج أسطورة هذه المكانة المميزة المزعومة إنما هو عملية النجاح في حد ذاتها ؛ فأى فنان لمع اسمه في اللعبة المصنوعة شأنه شأن هذه الأفكار الرائجة ، يلقى من البريق والدعاية مما يتم فرضه بلا أى عوائق ما يجعل الأمر ينتهي إلى أن تصبح الأفكار عقيدة . وما أن يتم اختلاق هذه العقيدة الجديدة حتى يصبح سلطانها على الأشخاص مطلقاً بلا حدود ؛ الأمر الذي اهتم به نقاد الفن بشتى الوسائل ، ومن ورائهم تلك المؤسسات التي أشرنا إلى طرف منها .

لقد لجأوا إلى تلك الوسيلة التقليدية والمؤثرة معاً حيث التكرار والتأكيد المستمر والإيحاء الناقل للعدوى - بعد دراستهم لسيكولوجية الجماهير - كي يرسخوا لعقيدة الفن الحديث ، تكرار اللحن النشاز نفسه للتقاليع الجديدة حتى تألف الأذان تلك النغمة الزائفة ، مع التأكيد المستمر والمساندة لقيمه وفقاً للمفهوم الذي

كان عليهم غرسه ، وتحقق عدوى الانغماس فى هذه التيارات التهرجية وترتفع الأسعار إلى أرقام تصيب بالدوار ... وإذا ما كانت اللعبة قد احتاجت إلى الوقت والكثير من المؤامرات والخطط للسيطرة على العقل الجمعى، فقد نجحت الخطة - مع الأسف - نجاحا مذهلا ، وكيف لها ألا تنجح وخلفها كل هذه القوى الخفية والمعلنة ؟ لكن ، أى نجاح هذا الذى حققه ذلك القدر من التدمير والتخريب !!

من الطبيعى أن نرى معا كيف أن نقاد الفن والفنانين لم يكونوا وحدهم فى نسج كيان هذا الفن الحديث وفرض عقيدته ؛ فلقد ساندتهم مؤسسات كبرى بعضها - على الأقل - جزء من كيان هذه الدولة أو تلك ، وشاركت بالمثل بعض المؤسسات الكبرى الصناعية بصورة لا ريب فيها . ويعد المقر الجديد لمصانع سيارات رينو Renault فى ضاحية بيلانكور Billancourt خارج باريس مثلاً واضحاً على ذلك . ومن المعروف أن شركة رينو تابعة للقطاع العام ؛ أى تابعة للدولة . مما يثبت العلاقة العضوية بين لعبة الفن الحديث والحلقات المتشابكة مع مؤسسات رسمية ، لم تتورع الدول الرأسمالية الكبرى عن الزج بها فى هذه المعركة التى رأينا بعض آثارها ، وما زال هناك الكثير مما لم نقله ، ولننتقل الآن لأداة أخرى من الأدوات المستخدمة فى هذه اللعبة .

المتاحف :

كان المتحف قديماً أشبه ما يكون بقدس الأقداس الخاص بالآلهة ، ولقد ظل محافظاً على هذه «القدسية» عبر العصور . أما فى القرن العشرين ، فلقد أصبح أداة تزييف ، ومكاناً لتأكيد وتعميد عملية الغش الدائرة فى مجال الفن الحديث . ومنذ النشأة الأولى حتى نهاية المطاف ، فإن تاريخ المتاحف الثقافية العامة لم يتعرض لكثير من التقلبات .. فإذا ما نظرنا إلى المتحف بالمفهوم الحالى للكلمة ، باعتباره مكاناً عاماً تتجمع فيه الأعمال الفنية ، فإنه يصبح بدعة من بدع العصر الحديث .

ولقد تم تجميع أولى مجموعات الفن الكبرى فى مدينة روما بإيطاليا ، خاصة ضمن غنائم الحروب ، وبدأ فيما بعد عرض بعض هذه المجموعات الخاصة على جماهير الهواة . لكن الفكرة القائلة بأن نتاح الأعمال الفنية للكافة كى يشاهدها قد نبتت فى مدينة فلورنسا ، فى القرن السابع عشر . وتم تأسيس

جاليرى آل مديتش عام 1580 ، والتي أصبحت فيما بعد أول قاعة عرض تتحول إلى متحف عام 1737 ؛ الأمر الذى تم تعميمه بعد ذلك فى شتى العواصم .

ولقد كانت كل المقتنيات الملكية فى فرنسا تعد ملكا للدولة حتى عام 1792 ، وما أن يحىء عام 1793 حتى يفتتح متحف اللوفر بباريس . أما المتاحف المخصصة لبعض الفنانين الأحياء ، فيرجع الفضل فى إنشائها إلى الملك لويس الثامن عشر ، وكان ذلك فى عام 1818 . ولم يتم تعميم هذا النمط من المؤسسات إلا فى أواخر القرن التاسع عشر .

وفى حوالى عام 1900 ، مع مشارف الفن الحديث ، بدأت المتاحف تعد بمثابة الجبانات ، ورأى البعض أنها ضارة للفن ، بل وطالب دعاة مذهب المستقبلية Futurisme بهدمها !! إلا أن الازدهار المفاجئ والتطور الذى عرفته المتاحف - فيما بعد - جعل منها واحدا من أهم العناصر الأساسية للنشاط الفنى وارتباطه بالجماهير .

ولقد تم إنشاء أول المتاحف الخاصة بالفن الحديث فى كل من مدينتى موسكو ولينينجراد عام ١٩١٩ ، وبعد ذلك بعشر سنوات ، شهدت مدينة نيويورك إنشاء متحفها الشهير للفن الحديث (وكان أكبر المتاحف بأسرها) . وفى عام 1929 تم إنشاء متحف جديد فى مدينة وودج Lodz ببولندا . ولم يمض وقت طويل حتى تناثرت متاحف الفن الحديث فى مختلف البلدان الغربية لتضم اللوحات التجريدية وتعمل على إبرازها والترويج لها .

وابتداء من عام 1937 ، بدأ فصل ذلك الإنتاج الفنى الحديث فى مبنى خاص مستقل عن مبنى متحف اللوفر بباريس ، وكأنه نوع من البتر المقصود ليحظى بعناية خاصة ودعاية بعينها ، تكفل لهذا الوليد المتعدد الأوجه استمراراً لا يستحقه . وها هم النقاد قد تناسقت جوفتهم بمسكون بأبواق المديح والتأييد لذلك الفصل ، ومنذئذٍ وعبر هذا الفصل المحطوم ، أصبح فن العصور القديمة وفن العصر الحديث لا يمثلان تطوراً منطقياً أو استمراراً متصاعداً يستند إلى التراكم المعرفى ، وإنما يقفان وكأن كلا منهما يدبر ظهره للأخر! ، أو كأن الأمر يتعلق بتاريخين متناقضين ، وليس بتاريخ متواصل لفن متطور ، يتخذ مساره الطبيعى فى العلاقة الديالكتيكية بين الواقع والفنان .

لقد تعاقبت بعد ذلك فترة عادت فيها لوثة إنشاء متاحف للفن الحديث وكأنها نشوة الهوس! واستناداً للمجلس الدولي للمتاحف بفرنسا ، فقد تم إنشاء سلسلة من متاحف الفن الحديث ، عبر العالم ، بواقع متحف كل أسبوع خلال فترة السبعينيات .

ولم يكن الأمر مجرد عمليات توسيع لبعض الأجنحة فى المتاحف المقامة بالفعل ، أو إضافة الأجنحة الحديثة مثلما حدث فى «المتحف القومي» فى واشنطن ، وفى متحف مدينة بوستن أو متحف «التيت جاليرى» بلندن ، أو فى متحف «ستيدلايك» بأمستردام ، وإنما أرادت كل مدينة خلال هذه الحقبة أن يكون لها متحف للفن الحديث . ولا أظننا بحاجة إلى تفصيل لا مجال له هنا عن متحف الفن الحديث بنيويورك الذى ضاعف من مساحته .

لقد وصلت أصداء هذه الهوسة المتحفية إلى أبعد من أمريكا وأوروبا . فما أن انتهت الحرب ، حتى طلبت البرازيل شراء مجموعة كاملة من اللوحات الحديثة لمتحفها ، وقد كلفت سمسار الفن الشهير م . فيلدنشتاين M. Wildenstein بذلك . ويقول ج . ميشيل J. Michel فى جريدة «الموند» عام 1976 : «واليوم تقوم إيران ، فى الوقت نفسه الذى نتجه فيه للتصنيع ، بتشييد أول متحف من المتاحف السبعة الجديدة المدرجة فى البرنامج ، والتى ستوزع فى أماكن متفرقة من هذا البلد . ولاداع للقول بأن مثل هذه المشاريع قد أدت فى العام الماضى إلى توافد مذهب لتجار الفن فى العالم على أبواب قصور الشاه والشاهبانو . وفى أستراليا ، حصل متحف مدينة كامبيرا ، الذى ما زال تحت الإنشاء ، على جزء كبير من مقتنياته بأسعار جد غالية ، من مختلف البلدان ، وإن كانت ما تزال معبأة فى الصناديق» .

ولقد سبق أن رأينا كيف قام متحف مدينة كامبيرا هذا بشراء إحدى لوحات المصور بولوك بملوينى دولار ؛ أما ما أورده ج . ميشيل ، واستشهدنا به فى الفقرة السابقة بالنسبة لإيران ، فدليل واضح على ترابط وتداخل الصناعة والفن الحديث ، وكيف يفرضه الأمريكيون على الشعوب ضمن اتفاقيات التصنيع وغيرها .

لقد تحول دور المتحف - فى القرن العشرين - ليصبح واحداً من أهم العناصر اللازمة لكيان الفن الحديث ، الذى كانت تسانده المعارض وقاعات البيع . وها هى مدينة باريس - على سبيل المثال - يمكن أن يجد المواطن فيها تحت

إمرته : «عشرين متحفا ، ومن سبعة إلى عشرة معارض رسمية ، يتم تبديلها كل ثلاثة أشهر ، وثلاثة آلاف معرض سنويا تنظمها مختلف قاعات العرض الباريسية» (121) .

لقد قام مدير المتاحف ، بغية اجتذاب الجماهير ، بجهود خارقة لإدراج هذا الفن في مجال المنوعات . ولقد ساعدهم على ذلك كمية «الهديان الفني» الذي قدمه فانو الطليعة ، ولقد تم تلقي هذا الهديان ، الخالي من أى معنى إنسانى ، بكل التقديس ليودعوه المتاحف المشيدة من أجله . أو على حد قول جان كليز : «كانت الأشياء تصنع مسبقا فى رتابتها المتكررة ، ليتلقفها المتحف ، ويقتنيها ، ويعرضها ويتفاخر بها ... وتكمن أساسيات اللعبة فى أن يكون هناك نوع من المطابقة ، الضمنية أو الواضحة ، لنموذج معلن أو مخفى . إذ إن فن التصوير «يجب» أن يكون هكذا ، ويجب أن يخضع لما ينتظرونه منه» (26) .

وإذا ما كان جازافا يصف عرض مثل هذه الأخطال للفن الحديث فى تلك المتاحف التى أوقفوها حكرا على ثغاءاتهم هذه ، باعتبارها تمثل «قمة الرفاحة» ، وتدين الدولة بنوع من التواطؤ ، مثلما رأينا فيما تقدم ، فإن رينيه برجيه René Berger يرى «أن تعبير المعرفة إنما يخفى وراءه عمليات معقدة» . ويعترف وكأنه يتفق مع معظم زوار المتاحف قائلا : «إن التجربة التى حدثت لى فى أحد المتاحف قد أخرجتنى من حالة اطمئنانى الثقافية ، فلقد فتح الفن المعاصر عينى . ترى هل لى أن أذكر بما وقع خلال السنوات العشر الماضية ، من «البوب آرت» إلى «الفن التصورى» Conceptual Art ؟ كم من أشياء لا معنى لها ... كم من «إرهاصات» و«الأعيب» قد استتب لها الأمر لتحل مصاف الأعمال الفنية» (9) .

لقد كانت زيارات المتاحف - فيما مضى - تمثل انعكاسا متطقيا ومترباطا لتتابع أحداث حضارة بعينها ، كما تعكس التطور الفنى الخاص بكل بلد . لكنهم بإدخال ذلك الأسلوب المتكرر المجهول الهوية فى كل مكان بكل أنحاء المعمورة ، فإننا نقع فى رتابة تكرارية تصيب المتفرج بالإحباط رغم الصخب الذى يواكبها . وهو صخب أشبه ما يكون بتلك الضوضاء المدمرة للسمع ، والمنبعثة من تلك الموسيقى الصاخبة المسمأة «هيت باريد» (Hit Parade) أو «الديسكو» (Disco) ؛ فالأعمال لم تعد تعرض وفقا للمذاهب الفنية الكبرى وتطورها الطبيعى أو حتى

الطفرة ، وإنما وفقاً لتقويم مشنت مصنع ، لاحد لسرعة إيقاعه ، فهو يتبدل من أشهر لأخرى ليقدم أعمالاً جديدة بالية!

إن ما يؤكد الغرض الذى نطرحه مع جمهرة من شرفاء العالم الذين كشفوا عديداً من أبعاد هذه اللعبة المحكمة الخيوط على الصعيد الدولى ، إنما هو عملية فرض وتنويع ذلك العبث المسمى بالفن الحديث كنمط مطلق فى كل متاحف العالم ؛ خاصة فى كل من أوروبا وأمريكا . فعلى حد قول جان كليز : «لم يعد هناك أى متحف كبير فى أوروبا أو فى الولايات المتحدة لا توجد به آخر المقتنيات التى تعد بمثابة «الكنز» الذى يفخر به ، وهى المجموعة التى لا بد أن تجد بينها بكل تأكيد لوحات بولوك ، وروتكو Rotko ، وكلاين ، وآخر تنويعاً من مربعات جوزيف ألبرت ، أو عينة نسيج دانييل بورين Daniel Buren ، أو قطعة دهن جوزيف بويس Joseph Beuys ، وقطعة نحاس كارل أندريه» (26) .

كما أن هذه اللعبة التى حيكت بتضافر أوركستراالى تكشف أيضاً عن ذلك الجانب من تدخل الدولة والمسئولين فى إدارة هذه المتاحف ؛ فلقد حولوا طريقة عرض الأعمال بها إلى نوع من الطقوس المبهمة ؛ نظراً لعدم وجود أى معنى يتصف بالجمال فى هذه الأعمال ، كما أن زائرى المتاحف قد لا يلاحظونها لجهلهم بهذا المجال ، ومن ثم كان لا بد من أسلوب متحفى مبتكر ووسائل عرض متخلقة محسوبة بدقة ، تضى على العمل الفنى هبية ، وتكسبه قيمة لا فضل له فيها . إن الوصف الذى يقدمه جان كليز جد دقيق ، إذ يقول :

«إن المربع الصغير المصنوع من الورق والذى تعلوه المخريشات للمصور كوسوث Kosuth يتم عرضه فى منتصف حجرة واسعة مضاعة بعنف ، وكأنه فنار إحدى الديانات الجديدة . وفى مكان آخر يتم عرض ثلاث أنابيب من النيون ، قام الفنان دان فلافان Dan Flavin برصها متوازية ، وهى تشع بلمعانها الناصع البرىء فى نهاية غرفة مظلمة ، ولا يسمح بدخولها إلا لزائر واحد بمفرده فى قدس الأقداس هذا ، بغية أن يستجمع قواه ويتأمل فى حضرة ذلك «الرمز الغامض الباهر النابع على الرجفة» . وإذ يواجه الزائر القوى غير المرئية وغير المادية ، تنتابه الرجفة نفسها التى كان يشعر بها المؤمن ، عندما يرفع الحجاب فى قدس الأقداس هذا . ويا لها من دياكتية ! . إن أنبوية نيون ، ومربع ورق ، ولوحة بلون واحد فى أغلب الأحيان ، أو تمثالاً ضليلاً لا تساوى شيئاً فى حد ذاتها ، إنها

تتحول بفضل طريقة العرض وحدها ، وعبر ذلك الإخراج المسرحي الذي يخضعها له أمناء المتاحف لتكتسب قيمة ما، (26) .

ومع إضافة قوة نفوذ أمناء المتاحف على هذه الأعمال وتكاتفها لتمثل - بالفعل - فى كل مكان الطقوس المتكررة النمطية نفسها التى لا فكاك من تأثير بريقها الزائف لدى جمهور غيبته وسائل إعلام وأقلام مصنوعة ، فإننا نشهد منذ الستينيات عملية غريبة ومذهلة لتعميم وتوحيد مجموعات المقتنيات فى أطر بعينها من بريق العرض ، وإن اختلفت أشكاله . وكأن قصة تاريخ الفن الحديث واحدة لا تتجزأ ، وكأنه كان لزاماً أن تخضع لعملية توحيدية تكرارية صارمة ، تؤدى إلى إلغاء أى تمييز جغرافى أو عرقى ، تحت شعار التماثل الذى لم يتم افتعاله هباءً .

وعلينا هنا أن نشير إلى أن هذا التماثل يبدو مرتباً بالتضامن بين كل المتاحف بما أن أعمال الفنانين الواقعيين ، أيا كانت قيمتها الفنية ، قد نزعت وأودعت المخازن . ولقد زاد هذا الموقف سوءاً عمليات التسال غير الشرعية المتعددة والملحة للسوق الفنية لدى أمناء المتاحف . لكن ، ترى ما نتيجة ذلك كله! هنا يجيب جان كلير قائلا : «لم يعد يتبقى على جدران المتاحف سوى أعمال محددة موحدة النمط مثل السلع المرصوفة فى أحد محال «السوبر ماركت» ، يجمع بينها أسلوب حديث دولى ، ولا تكمن قيمته - فى نظر أمين المتحف - أو لا تقاس إلا بقيمة تبادله التجارى» (صفحة 105) .

وهذا الجانب المالى كقيمة تجارية ، هو الذى يمثل حلقة الوصل بين المتاحف والرأسمالية الممثلة فى بورصة العقود الفنية . وبالتالي يعد المتحف إحدى نتائج التوسع الاقتصادى فى المجتمع الحديث ، الذى يعتبر الفن سلعة تجارية وقيمه وفقاً لمعايير الاستثمار . ومن هذا المنطلق فإن عملية إنشاء متاحف للفن الحديث فى كل البلدان التى تتوسع اقتصادياً ، يمثل من جهة طلباً لكم هائل من اللوحات التجريدية التى تعد بالآلاف ، ويمثل من جهة أخرى ضماناً محكماً لاستمرار حسن سير الآلة الجهنمية واللعبة الخفية .

وهذا يدفعنا إلى القول بأن الفنان فى مجال الفن الحديث - وعبر ما رأينا- يبدو وكأنه عبارة عن منتج لقيم تجارية ، والناقد عبارة عن مقدس ، والمتحف

عبارة عن مكان لحفظ هذه الأسرار المقدسة التشكيلية ! أما الجمهور فقد عملوا على تزييف وعيه ليصلى في قدس الأقداس هذا !

ولقد شهدت الحقيقتان الأخيرتان إنشاء وتعميم نوع جديد من المتاحف المسماة «مجمع متحفى» Comusée ، ومعنى هذا المصطلح كما يقدمه ج . هـ . ريفيير . G. H. Rivière ، مؤسس أول نموذج من هذا النوع في عام 1974 هو: «أنه - من ناحية - يعتبر معملاً ، بمعنى وجود مادة تدفع إلى التأمل النظرى والتطبيق العملى ، لصالح هذا التجمع الإنسانى أو ذاك ، ومن ناحية أخرى يعتبر معهداً ، بمعنى أنه يساعد على الحفاظ على لثراث الثقافى وعلى طبيعة شعب ما . وهو يعتبر أيضاً مدرسة ، بمعنى أنه يساعد على تكوين متخصصين ، ويسمح لذلك الشعب المعنى بأن يفكر ويتدبر مشاكل تطوره .

إلا أننا حينما ندرك أن هذه «المادة التى تدفع إلى التأمل ، وهذا «الثراث» وهذه «المشاكل» ، التى تقدم للجمهور لا تخص أو تتضمن غير الفن الحديث بكل مشتقاته ، فإننا ندرك على الفور الهدف الحقيقى ، الذى يكمن خلف هذه المؤسسات أو هذه «المجتمعات الخفية» التى لا ترمى ، فى الواقع ، إلا إلى مزيد من التوغل فى الحياة اليومية للمتفرج .

* * *

آلة التصوير :

تعد الفوتوغرافيا ، أو آلة التصوير سلاحاً ذا حدين فى ذلك الكيان الهائل للترفيه فى الفن الحديث ، فما أن يتساءل المرء ببساطة لماذا كل هذا الانقلاب المذهل والتقنى فى الفن الحديث؟ حتى تتبادر أولى الإجابات ، أو على الأقل ، أولى الإجابات التى يعلنها ممارسو هذا المجال ، وهى : الفوتوغرافيا ! فهو اختراع لا بد من الابتعاد عنه أو تفاديه . ترى أكانت تلك الآلة سبباً حقيقياً أم مجرد مشجب تعلق عليه الحجج والافتراءات؟ لا بد لنا من وقفة قصيرة لنتبين حقيقة الأمر ونطلع على طرف آخر لجانب من جوانبه .

إن موقف فنانى العصر الحديث تجاه هذه الآلة لالفت للنظر ، وبخاصة ما نعتوها به من سمات ليست فيها ، وأولاهم أنها تهدر قيمة الفن؟! ترى لماذا اعتبروها تهديداً ، وليس عنصراً مساعداً فى العمل ، أو على الأقل مجرد مجال

مستقل بذاته ، حتى وإن كان هناك تشابه ما بينه وبين فن التصوير الزيتي ؟

لقد استقبل هذا الاختراع ، في بادئ الأمر ، بشكل مخالف تماما ، وإن كان قد عرف من قبل تحت اسم «الغرفة السوداء» Camera obscura . ففي يوم الاثنين الموافق التاسع عشر من شهر أغسطس عام 1839 ، وهو يوم ميلاد الفوتوغرافيا ، أعلن فرانسوا أراجو François Arago في أكاديمية العلوم والفنون الجميلة بفرنسا ، بعد أن اجتمع أعضاؤها في جلسة استثنائية ، أن كلا من نيبس Niepce وداجير Daguerre توصلا إلى تثبيت الصور التي تتكون داخل «الغرفة السوداء» .

ومن المعروف أن علماء العرب خاصة ابن الهيثم في كتابه «المناظر» ، ثم علماء العصور الوسطى قد سبق لهم استخدام ظاهرة الغرفة السوداء هذه ، إلا أن ليوناردو دافينشي كان أول فنان يصف مبادئ هذه الوسيلة وأصولها . ومنذ ذلك الوقت ، لم تكف هذه الآلة عن تقديم خدمات جليلة للكثير من الفنانين في شتى أنحاء أوروبا .

وفي منتصف القرن السابع عشر ، كتب الكونت الجاروتي Algarotti قائلا: «إن أمهر فناني الطبيعة في يومنا هذا يستفيدون أيما استفادة من هذه الغرفة السوداء ، قلوبها لما استطاعوا أن يعبروا عن مختلف الأشياء بهذه الواقعية الشديدة» . وفي ذلك العصر ، كانت الآلة المسماة بالغرفة السوداء توجد بشكل طبيعي بجوار معدات المصور .

إلا أن الموقف حيالها قد انقسم ، فما أن أعلن عن مولدها الرسمي في القرن التاسع عشر ، حتى أعلن المصور ديلاروش Delaroche ، مع كثيرين غيره قائلين: «إن فن التصوير قد مات!» وعلى عكس ذلك الموقف ، فقد كان الشاعر شارل بودليير Charles Baudelaire أول من أوضح أهمية الاكتشاف الفوتوغرافي بالنسبة للفن .

ولقد أدى هذا الاختراع بالفعل إلى قلب مجال فن التصوير بالصورة نفسها ، التي أحدثها اكتشاف آلة الطباعة قبل ذلك بأربعة قرون . ومن الغريب أن نرى أول معرض عام للفوتوغرافيا قد أقيم في ذلك العام نفسه ، الذي أعلن فيه عن اختراعها ؛ أي في عام 1839 . ولقد تم تعليق «الرسوم الفوتوغرافية» للمصور

هيبوليت بايار Hippolite Bayard بين اللوحات الزيتية .

وفى عام 1851 ، قام المصورون الفوتوغرافيون بتنظيم أول «جمعية للتصوير الشمسى Société Heliographique» ، وبعد ذلك بثمانية أعوام ، أقاموا معرضاً لصورهم بجوار معرض أكاديمية الفنون . وفى عام 1861 ، قام ستة وعشرون مصوراً زيتياً بتقديم احتجاج رسمى ، طالبوا فيه سلطات الدولة بحمايتهم من مصورى الفوتوغرافيا !!

إن هذا الاحتجاج الرسمى فى مواجهة الدفاع الذى قاده بودليير يمثل شرحاً عميقاً بين المصورين والفوتوغرافيين من جهة ، والمصورين التشكيليين بعضهم واللبعض الآخر من جهة أخرى . بينما كان الأمر - آنذاك - يتطلب مناقشة التأثير المتبادل بين هذين المجالين ، وبخاصة تأثير الفوتوغرافيا على فن التصوير . وهو ما تجاهلته كتب تاريخ الفن بصفة عامة حتى يومنا هذا . ولقد كان أندريه فينيو André Vigneau محقاً ، حينما كتب فى بحثه المعروف باسم «نبذة عن تاريخ الفن ، منذ نيببس حتى يومنا هذا» ، أن الحدث الرئيسى فى النصف الثانى من القرن هو «نيببس سيزان» (137) . حقا إن الصلة بين المصور الفوتوغرافى والمصور التشكيلى إنما هى صلة عضوية ؛ فمن حيث المبدأ ، وبعد الدراسات الاجتماعية الحديثة لا يمكن رؤية المجالات المختلفة فى عزلة بعضها عن بعض . فما بالنا والمجالان إنما هما مجالان فى الفن ؟!

ولا أظن أن أحدنا يجهل اليوم كم لجأ كل من ديلاكروا Delacroix ، وفرنيه Vernet ، وديجا Degas ، وكثيرين غيرهم إلى آلة الفوتوغرافيا . ولقد دافع أوجين ديلاكروا عن الفوتوغرافيا بجد وحماس ، واستعان بها بلا مواربة . وما الألبوم الذى طبع حديثاً للصور الفوتوغرافية التى التقطها إلا دليل واضح على وجهة نظره . لذلك كتب فى يومياته قائلاً : «ليستعن أى عبقري بالآلة التصوير هذه كما يجب أن يكون استخدامها وسوف يصل إلى آفاق لا نعرفها بعد» .

فإذا ما كانت هذه الآلة عبارة عن مجال تعبيرى ذاتى ، أو أداة عمل تساعد المصورين التشكيليين وغيرهم ، فلم تعلن ضدها إذاً تلك الحرب الشعواء أو حتى ذلك الحديث عن المطاردة والمنافسة ؟!

لم التذرع بهذا الاختراع كحجة واجبة لعمل شئ آخر لا تقوم به الآلة ، فى

الوقت الذى نعرف فيه جميعا أن كل فناني التجريد أو الفن الحديث بعامة يلجأون بإسهاب إلى الفوتوغرافيا ومختلف مشتقاتها كالميكروسكوب العادى أو الفضائى وغيرهما ؟ إن مهاجمة مجال ما واللجوء إليه فى الوقت نفسه لا يمكن وصفه - فى ظنى - بغير الغش أو عدم الأمانة . وأكثر من ذلك كله ، وكى نبطل حجة أولئك الذين يرون أنه لا بد من التجريد للابتعاد عما يمكن للآلة الفوتوغرافية أن تعمله ، ها نحن نرى أن المصورين الفوتوغرافيين قد قاموا بعمل صور تجريدية بآلاتهم ، وما أكثر المعارض التى أقاموها لهذا الصدد .

إن الأمر الواضح ، بل والمؤكد ، أن هذه الحجج الواهية التى رددوها كى تكون ذريعة للابتعاد عن تماثل الفوتوغرافيا مع المجال التشكلى لم تكن الأسباب الحقيقية لدعواهم ، بل كان هناك هدف آخر انطلق من مغالطة مقصودة لاتهام الفن الواقعى بالمماثلة ، وتناسوا أنه حتى فى الفوتوغرافيا فإن إبداع مصورها لا يحقق مماثلة مطابقة بين نتاج الصورة ومعطيات اللقطة ؛ إذ تقوم زاوية التصوير ورؤية الفنان بما يحقق إبداعا لا يمكن إغفاله ، ولكنها الأهداف الخفية تعلن عن نفسها بالدعوى التى تقصد دوماً أهدافاً أخرى .

* * *

الفن الفطرى :

وها هو دليل آخر يدحض تلك الدعوى المتهاوية ، عندما نعرف أن الفن الفطرى (والذى كان البعض يزدرية قديماً) قد أصبح يمثل ظاهرة مميزة فى فن القرن العشرين ، وبخاصة عند ازدهاره فجأة فى العشرينيات . إذ ابتداء من عام 1910 ، وبعد وفاة دوانيه روسو Douanier Rousseau ، تولدت وسادت «موضة» حقيقية للفن الفطرى L'art naïf . ولنلاحظ أنه خلال ذلك العام نفسه ، 1910 ، قد تم تمييز الفن التجريدى رسمياً ، وهذا سيعلى بدوره من قيمة الفن الفطرى - الذى لا نعترض على قيمته الفنية ودوره - وإن كنا نؤمن بتراكم المعرفة ورحلة التطور التى يجب ألا ترجع إلى الوراء ، إلا فى ضوء توظيف يحمل معنى وهدفاً يتسقان والتطور الواقع .

لقد تم لفت الأنظار إلى الفن الفطرى بالصورة نفسها التى حدثت مع بقية المذاهب العصرية ؛ أى بفضل كم هائل من الكتابات والدعاية المصنوعة ، وبفضل نقاد الفن والتجار . لقد استندوا إلى بعض الإرهاسات ليستثمروها فى الاتجاه

المضاد . وها هم يحتفون بما قاله الشاعر رامبو Rimbaud آنذاك من «أنه يحب الرسوم البلهاء التي تعلو الأبواب ، والزخارف ، ولوحات المتشردين ، واللافتات ، والتصاوير الشعبية .

وهكذا انطلقت عقيرة كل من جارى Jarry ، وأندريه سالمون André Salmon ، وريمى دى جورمون Rémy de Gourmont ليكونوا من أوائل من أشادوا بفن دوانيبه روسو ، الذى كان الجمهور قد حكم عليه بأنه «فظ» . وبالمثل لم يكن الدور الذى لعبه الشاعر أبولينير أقل أهمية عما قام به رفاقه ، وأظننا عرفنا بعضا من الدور الذى قام به أبولينير فى تدعيم الفن الحديث .

وفى عام 1910 قام فيلهلم أود Wilhelm Uhde ، ناقد الفن وتاجر اللوحات اليهودى الألمانى الأصل ، بإصدار أول كتاب عن دوانيبه روسو ، وأقام أول معرض شامل للوحاته ؛ مما منحه لقب «مخترع» المصورين الفطريين !!

ومرة أخرى نحن لا نعترض على ذلك الدور ، الذى قام به الفن الفطرى أو الفنانون الفطريون الأصليون ، ولكننا نعترض على ذلك الدور الذى يقوم به جمهرة من التجريديين لاستثمار الطابع المميز للمصورين الفطريين ، الذين يتسمون بذاتية هى جزء من مقومات إمكاناتهم ؛ مما يفسر تلك الأخطاء التقنيّة التى تعطى فنههم ذلك الأسلوب النمطى ، الذى ينبهر به فنانو التجريديات ويقلدونه فى صنعة ممجوجة .

أما العنصر الثانى الذى يميز هؤلاء الفنانين الفطريين فهو أنهم ينبثقون من الطبقات الشعبية وعاشوا على الأقل جزءاً من حياتهم كحرفيين . فيبدو فنههم كنوع من رد الفعل التلقائى ضد الحضارة الحديثة بمكوناتها البورجوازية والصناعية . وهم فى ذلك على حق ، وأصالة تعبيرهم تعطى فنههم مسحة بعينها ، كان على الأدعياء أن يتعلموا منها ، لا أن يستثمروها ليتحول الموقف الأصيل إلى تقليد ، يضيع معناه فى زحمة التجريديات بمشتقاتها ، ويجردوا بذلك عمق الظاهرة الأصلية من معناه .

لقد لجأ مصورو الفن الحديث ، وكل من وراءهم ، إلى الفن الفطرى مدعين أنهم يستلهمون مكوناته ليعطوا أنفسهم نوعاً من الأصالة أو العمق التاريخى . لقد

كانت إحدى وسائل تغفل الفن الحديث في الحياة اليومية واستقراره بها هي تلغفه بالمظهر الفطري الشعبي أو رسوم الأطفال . ونذكر منهم على سبيل المثال الرسوم الخطية التي رسمها بول كلي Paul Klee ، والموضوعات الفولكلورية التي صورها شاجال .

ومن الطريف أن ظاهرة الفن الفطري لم تقتصر على فرنسا فحسب ، وإنما انتشرت على المنوال نفسه ، وبالمنهج نفسه وبالصخب الدعائي نفسه . ومنذ ذلك الوقت أصبح لكل بلد مجموعة مصوريه الفطريين ، إلا أن هذه الموجة كانت أكثر ازدهارا في الولايات المتحدة الأمريكية حيث وجدت أرضا خصبة .

الفن والسلطة :

ترجع الصلة بين الفن والسلطة إلى أقدم العصور ، سواء أكان الحكم مدنيا أم ثيوقراطيا . وتمتد جذور هذه الصلة المتشابكة إلى الحضارات الأولى . ذلك أن الفن يمثل نوعا من التحاور ، وهو سلاح معركة فعال ، وأداة إقناع شديدة التأثير . وسواء اتحدا أم تعارضا فإن قطبي السلطة المدنية أو الثيوقراطية ، مهما كان نظامهما - كانا يؤثران دوما بصورة ما على المجال الفني بغية توجيه الجماهير .

ولو أننا مضينا قدما من التاريخ فسنجد في أوروبا ليون الثالث الإسوري L'Isaurien ، قد قام في مطلع القرن الثامن الميلادي بتحريم عبادة الصور والأيقونات التي كان أفراد الشعب يبجلونها كالألثة تماما . وها هو يقرر عام 726 أن عبادة الإيقونات تمثل عودة للعصور الوثنية ؛ الأمر الذي رأى معه منعها باسم العقيدة والدين ، بينما الأمر في نهاية المطاف قد فرضه واقع اقتصادي وحرى . فلقد كان الرهبان يعيشون من دخل بيعهم الأيقونات ، وبحجبه لمورد الدخل الأساسي هذا للأديرة كان ليون الثالث يدفع أولئك الرهبان للالتحاق بالجيش ، ومن ثم يستولى على مداخل الأديرة غير الخاضعة للضرائب .

وما أن انهزم الأباطرة مانعو عبادة الأيقونات ، في القرن التاسع ، حتى قام أولئك الذين يبيعونها من جديد بصك نماذج ليختار منها المصورون موضوعات ومكونات صورهم . ولقد ظلت هذه النماذج تستخدم في الكنيسة اليونانية ، حتى بعد انفصالها عن الكنيسة الرومانية في القرن الثاني عشر .

لقد كان تاريخ المسيحية في الغرب تعتريه فترات متقلبة بالنسبة للأيقونات والفن بعامه فيما قبل مد الإصلاح الديني بحقب عديدة . ففي بداية القرن الثاني عشر كان الرهبان التابعون لجماعة سان برنار St Bernard يهاجمون البذخ والانحلال القائم في جماعة كلوني Cluny . وتم نفي الفنانين من أديرة سيتو Citeaux ؛ إذ إن هذه الجمعية كانت تحرم أى تمثيل وأى تلوين ؛ ولقد أصبحت جدران الكنائس بيضاء . وارتفع صوت سان برنار ، زعيم ومحرك هذه الجماعة آنذاك ، بعبارات حادة مدوية تدين بذخ الكنائس قائلا : « يا له من باطل الأباطيل ، يا له من جنون أكثر من البطلان ! إن كل جزء في الكنيسة يتألق بينما الفقراء يتضورون جوعا . إن جدران الكنيسة يكسوها الذهب وأبناؤها عرايا » (17) .

وفي مطلع القرن الثالث عشر ، استبعد سان فرانسوا داسيز St. François D'Assise أى تصوير في جماعته . أما في القرن الخامس عشر ، فقد قام الراهب سافونارول Savonarole بإدانة البذخ الفاضح ، الذى غرق فيه لوران الأعظم Laurent le Magnifique في إيطاليا ، كما أدان الشذوذ والفساد الكامن في كنيسة روما ؛ مما أدى إلى القبض عليه وتعذيبه ثم إعدامه عام 1498 .

وهناك مثال جد معروف في هذا السياق حدث في القرن الرابع عشر ، عندما قام المصور جيوتو Giotto بتصوير إنريكو سكروفيني Enrico Scrovegni بحجم العذراء نفسه ، وذلك في كنيسة أزينا Azena ببلدة بادوا ؛ الأمر الذى لم تكن التقاليد الدينية تسمح به آنذاك .

وإذا ما كانت الكنيسة قد ساندت الفن حيناً وقامت بتحريمه حيناً آخر تبعاً للواقع السياسى الاجتماعى ، فثمة مثال فريد لروبير ملك نابولى من قبل أن يتم تعيين جيوتو كمصور رسمى ببلاطه بعدة سنوات ، وذلك عندما قام هذا الملك - المشكوك فى شرعيته - بالضغط على البابا يوحنا الثانى والعشرين لكى يقوم بتعميد أخيه لويس دى تولوز Louis de Toulouse فى مصاف القديسين . وفى عام 1317 ، وبعد أن تحقق له مراده ، طلب من المصور سيمون مارتيني Simone Martini أن يصوره ، بينما يقوم شقيقه القديس بتتويجه ملكا ؛ وذلك كله كى يمحو عن نفسه أى شك فى شرعيته للحكم !!

إذ تبعاً لهذه اللوحة فقد أصبحت السماء تبارك الملك المغتصب للعرش . وإذا

ما كانت هذه اللوحة تثير لدى مؤرخي الفن بعض المسائل الشكلية أو التقنية ، فإن ذلك لا يقلل من حقيقة مغزاها السياسي ؛ إذ إن هذا الملك روبر - وغير الضغوط التي مارسها - قد حقق ما يمكن أن نطلق عليه «الفن الموجه» ، وهو الدور الذي لم يكف عن التواتر والحدوث على مدى التاريخ بعد ذلك مع اختلاف الأسباب والمضمون .

وبعد وفاة سافونارول بعدة سنوات ، ومع ارتفاع صوت لوثر Luther الذي كان يمثل خطراً أكبر بالنسبة للكنيسة الرومانية ، إذ كان لوثر ينادى بمسيحية بلابابوية ، في حين أن سافونارول لم يكن يرمى إلا إلى حركة إصلاحية محدودة لتلك العادات التي حرفت في هذا المجال . وكان طبيعياً أن يندلع خطر جديد - بالنسبة للفنانين - ينبعث من طيات الثورة الإصلاحية للوثر ، والتي كان يمكن أن تكون طفرة للفن ، لكن لوثر كان يرى أن الكنيسة بعد الإصلاح الديني يجب أن تكون متقشفة بلا صور ، في حين أن الصور كانت بالنسبة لسافونارول عبارة عن إنجيل للأميين .

وقام الصراع بين لوثر في ألمانيا وروما حيث المقر البابوي ، واحتدم الصراع وانعكس أثره على الفن والفنانين ، فقد وجد الفنان الألماني نفسه في حيرة من أمره ؛ إذ عليه أن يختار ما بين لوثر أو روما ! وهنا يقول جيميل : «بالنسبة لأغلبية الألمان كان الاختيار يمثل إشكالا ضميرياً ، أما بالنسبة لأولئك الفنانين الذين سيتأثر دخلهم مباشرة فقد كان ذلك يعني مشكلة حيوية ؛ إذ إن اختياره لوثر يعني أنه لن يعمل للكنيسة بعد ذلك ، وكانت الكنيسة تمثل مجال الطلب الرئيسي للوحاته . بينما أثر بعض الفنانين التضحية بمستوى حياتهم اليومية لإرضاء ضمائرهم . (مشيدو الكاتدرائيات) (62) .

أما الكنيسة في روما .. فقد رأت أن تتخذ من الفن سلاحاً في معركتها ضد لوثر ، وصدر بالفعل مرسوم ينص على ضرورة استخدام الفن كوسيلة لمكافحة توسع الإصلاح الديني في أوروبا والهرطقة البروتستنتية . ودخل الفن معركة جديدة مفروضة عليه إذ استخدمته روما في الحرب التي شنتها ، وأصبح الفن موجهاً في خدمة الأهداف العلوية للتأثير على الجماهير ، ومنذ ذلك الوقت تم وضع قواعد جديدة ، وبزغت أهمية استبعاد العناصر التي تصرف انتباه المتعبدين وتشغله عن صلوات خلاصه . وكانت النتيجة المباشرة لذلك هي : استبعاد المناظر

الطبيعية ، والمناظر الأسرية والطبيعة الصامتة ؛ مما أدى إلى خلق نوعين من التصوير الدين والتصوير الخاص بالحياة الدنيا .

وحيثما اشترك الجزويت فى صياغة قرارات مجمع الثلاثين ، لجأوا هم أيضا إلى توجيه الفن بغية تحقيق سياستهم الدينية ؛ فطلبوا من الفنانين أن يعبروا فى رسومهم عن مختلف صور التعذيب بكل بشاعتها ، والتي تصل إلى الموت حتى يألفها الرهبان الشبان المبشرون فى كل مكان ؛ ليستعيدوا البلدان البروتستنتية من جديد إلى حصن العقيدة الكاثوليكية . لقد كان الجزويت يرون تعود الإنسان على مشاهدة صور التعذيب وتأملها يفقدها ذلك الهلع الذى تثيره فى النفوس ويجعلها شيئا مألوفا . ويقول جيمبل فى هذا المقام : «إن الجزويت قد طلبوا من الفنان بومارانسيو Pomarancio عدة رسوم حائطية تحكى تاريخ إنجلترا من خلال صور التعذيب فحسب ، وذلك على جدران المعهد الإنجليزي فى روما ، حيث كان يتم تدريب الرهبان الشبان على مهمتهم الخطيرة فى أرض الهرطقة الإنجليزية . ولقد رأت الجزويت أن يتم تصوير آلام وتعذيب أربعين طالبا سابقين ظلوا فى إنجلترا إلى أن استشهدوا» (62) .

ولقد كان الإمساك بزمام الفن والتحكم فى رؤية الفنان وموضوعه من أولى المهام التى تولاهها مجلس الثلاثين ، صبيحة الإصلاح الدينى . وذلك لمراقبة الأيقونات حتى يتم إنقاذ الكاثوليكية المهددة . لقد كانوا يتدخلون فى اختيار الموضوعات وفرض المواقف الدرامية المؤثرة ؛ الأمر الذى لم يكن يعنى غير شىء واحد كما يقول رينيه ويج René Huyghe ، ألا وهو : «الاعتراف بأن الصور كان لها تأثير مزدوج فى آن واحد : استعادة النفوس الشاردة خارج الكاثوليكية ، وإعادة السلطة إلى الكنيسة لقيادة النفوس التى صدعتها البروتستنتية ، وذلك بفضل قوة الإحياء الكامنة فى اللوحات» (69) .

تلك كانت البداية التى سخر فيها الفن والفنانون لحساب أياد أخرى ، فلم يعد الفنان يحقق رؤيته ووعيه هو بموضوع رسمه ، وإنما أصبح أداة موجهة لخدمة أهداف قد ينأى بنفسه عنها ويؤرقه ضميره من أجلها ، أو ينميها استسلاماً وتبريراً وانسياقاً وخضوعاً تحت وطأة ظروف متعددة فى خط متصل ، يبدأ من الحاجة ويتوسطه الخوف وينتهى بالمسايرة والخضوع . وهى الملابسات نفسها التى سيلجأ

إليها المتحكمون في لعبة الفن الحديث في القرن العشرين لفرض هذه المذاهب والتيارات المتهرئة ، بل لقد اتجهوا أيضا إلى الكنيسة كأقصى محاولة يمكن عملها بغية تعميم وفرض هذا الفن . فقد حاولت موجة الفن الحديث بتجربياته أن تستقطب الفن الديني في دواحة جعبتها التوسعية ، ويكفي أن نقرأ الفصل الخاص «بصحوة الفن المقدس» في كتاب راجون Ragon المعروف باسم «فن التصوير المعاصر» ؛ لنرى إلى أى مدى وصل سلطان المال ونفوذه والإفساد ، الذى يسببه بغية فرض الاتجاهات الحديثة في الكنيسة ! (113) .

إن بإمكاننا الآن أن نفهم الغرض من ذلك الاهتمام ، الذى أولوه بغية للفن الديني في القرن العشرين ، والذى يمثل في حد ذاته ظاهرة كانت من أغرب الظواهر .

لقد كان أول مظاهر هذه اللعبة الجديدة قيام كل من موريس دنييس Maurice Denis وديفالير Desvallières بإنشاء مراسم للفن الديني منذ عام 1919 . وفي عام 1935 تم إنشاء واحدة من أهم المجلات الفنية باسم مجلة «الفن الديني» . وكان لها رئيسا تحرير ، هما: الأب كوترييه Couturier والأب ريجامى Régamy . وبدأت الأفكار التي كانت لاتزال تحاط بسرية تامة حول إدخال الفن التجريدى لمجال الكنيسة تتسرب بحرص شديد في هذه المجلة . وسرعان ما قامت بحملات قوية تحت شعار إدخال العصرية في الفن الديني ، ورغم ذلك كان لابد من انتظار فترة ما بعد الحرب لكي يؤتى هذا العمل ثماره .

وفي كل الأحوال ، فقد تمكن هذان الراهبان (رئيسا التحرير) من تغيير معالم الكثير من منابر الاعتراف التي تعلوها «الأثرية والقدم» ، والتي «تغرقها» الأعمال الفنية التي لا داعي لها في نظرهما . وتعد كنيسة آسى Assy أول نتيجة لهذه الجهود المتضافرة التي قام بها الدومنيكان ، الذين قاموا بكل هذه التغييرات في تكتم بالغ حتى تم إنجازها .

لقد كانت مخاطرة من الأب ديفيمى Devemy عندما تولى الإشراف على أمر إنشاء هذه الكنيسة ، التي تعد أول كنيسة تقام وفقا لمفاهيم الفن الحديث . وذلك باتفاقه مع الأب كوترييه - أحد رئيسي تحرير مجلة «الفن الديني» . ولقد تم إسناد كل أعمال الزخرفة والفنون إلى فنانين تجريديين معاصرين ، ومنهم روه

Rouault ، وبنوارد Bonard ، وليجييه Léger ، ولورسا Lurçat ، وبراك Braque ، وبازين Bazaine ، وماتيس Matisse ، وجرمين ريشيه Germaine Richier تلك الأخيرة التي أحدث الصليب الذي صنعه ثورة عنيفة ، عرفت باسم «معركة الفن الديني» .

وتعد كنيسة آسى من النماذج التي يضرب بها المثل في هذا المجال . وقام ببنائها المهندس نوفارينا Novarina خلال ثلاثة عشر عاماً (من 1937 إلى 1950) . وكانت عملية زخرفتها وتزيينها - التي تمثل كل شهرتها - بمثابة حرب «صليبية» قام بها الفنانون التجريديون وحشدوا لها أساطينهم . فقام ليجييه بزخرفة واجهتها بالموزايك ، وأسند زجاجها الملون إلى عدد من الفنانين ، بينما قام لورسا بعمل النسجيات في الوقت الذي شارك فيه بقيتهم بعمل الصور والتماثيل ، ومنها ذلك الصليب الذي أثار فضيحة عاصفة ، فاضطروا إلى نزعها من فوق المذبح ليضعوه ثانية في إحدى الغرف الجانبية ، بعد أن هدأت آثار الفضيحة .

وقد يستغرب البعض ذلك الحماس الشديد الذي تصانفت فيه جهود الفنانين التجريديين لإتمام هذه المهمة ، وبخاصة عندما نرى بين هؤلاء المشاركين حشداً من اليهود بل ومن أكثر الناس إلحاداً ، مثل ليجييه وشال ورويه !! لكن العجب والاستغراب يجب أن يزولا - في ظني - في ضوء ما رأيناه من أصابع خفية وقوى ومؤسسات وعلاقات مشبوهة ؛ من أجل الأهداف الرامية إلى تدمير الفن وتحويله إلى مجرد سلعة . وهل هناك دعاية لهذه اللعبة المسماة بالفن الحديث أكثر من تسال عبثهم إلى الكنيسة لتألفه عيون الجماهير ، ويأخذ صك اعتراف جديداً يدفع مخططهم للأمام ؟!

ومن هنا ، والحال هذه ، لم تعد كنيسة آسى هي النموذج الوحيد أو المحاولة الوحيدة في هذا المضمار . فها هي كنيسة أودنكور Audincourt تعتبر من أكثر النماذج استعراضاً وإيضاحاً لهذا التسال الجديد ، وفي الوقت نفسه تمسك بعض الفنانين بالقيام بمفردهم بزخرفة بعض الكنائس الصغيرة الجديدة ، أو التي كان يتم تجديداتها ، وأشهر هذه المحاولات كنيسة فانس Vence التي تمثل آخر أعمال ماتيس ، والكنيسة الثانية قام الشاعر كوكتو Cocteau بزخرفتها بنفسه !! وتوجد واحدة منهما في فيل فرانس Ville France والأخرى في ميلي لافوريه Milly La Forêt . ولا يمكن أن نغفل هنا كنيسة برنار بوفيه Bernard Buffet في شاتو

دى لارك Chateau de L'arc والتي حفلت كمثيلاتها بهذا الفن الذى أرادوا له الانتشار ولم يتورعوا عن استخدام الدين وبيوت العبادة لترويجه .

ولم يقف هذا المخطط عند حدود فرنسا بل امتد أيضا عبر الحدود ، وتعد الكنيسة الجديدة فى كوفنترى Coventry بإنجلترا من أهم النماذج فى هذا المضممار .

لم يخل الأمر من ردود أفعال غاضبة من أتباع الكنيسة . وهكذا زادوا الحملة الدعائية التى تولاها الإعلام المصنوع ، عبر ما كتبه نقاد الفن لتوضيح أهمية مساهمة فناني الفن الحديث فى مثل هذه التجارب . إلا أن محاولاتهم هذه لم تمنع من نزع صليب جرمان ريشييه من فوق المذبح الرئيسى للكنيسة ، لما به من مساس بحرمة السيد المسيح !

ومن ثم اتسع مدى هذه المحاولات لتعميد الفن الحديث بالهجوم الشرس على الفن الواقعى ، حتى أن بريون Brion ، وهو واحد من أشهر النقاد الفنيين كتب يقول : «من المؤكد أن الفن الواقعى ، وأعنى بذلك تمثيل الأشكال الواقعية لمختلف عناصر الطبيعة فى الفن الدينى ، ليبدو فى حد ذاته كنوع من المساس بروحانيات الدين ، بل إنه فى أحيان كثيرة يبدو وكأنه يدنسها ، ! (14) » .

وأكثر من ذلك كله ، فقد وصل التبجح بكل الذين يمثلون هذا الاتجاه إلى أن يطالبوا بنزع أى ملامح إنسانية عن الشكل الإنسانى ، ونزع أى معالم مادية عن الشكل المادى . بل لقد مضوا فى الشوط إلى نهايته ، عندما حاولوا إثبات جذور ممتدة لفنهم هذا بين اللوحات الحائطية لعصر النهضة !! ويا له من عبث لا يتحرج فيه الناقد بريون من أن يكتب قائلا : «يبدو لى من الواضح جليا اليوم أن التقارب بين الفن التجريدى والجماهيم العريضة سيتم بواسطة الكنيسة ، ويفضل المواهب الكبرى لمصورى الفن الدينى ؛ إذ إن الجماليات الفنية لهؤلاء الفنانين عادة ما تبدو صعبة وغير مفهومة لكل أولئك الذين تسيطر عليهم فكرة التعبير الفنى مرتبطة بفكرة الشكل ، !

إلى هذا الحد تصطف الدعايات المضللة والأقلام التى خلعت عن وجهها القناع فقلبت الحقائق ، ودشتت الزائف ، وعمدت المتهامى بعدما تهاوت ضمائرهم فى شباك صناع اللعبة وأصبحوا جزءاً من مخالبيها .

لكننا قبل الانتهاء من هذا الفصل الذى تناولنا فيه مختلف العناصر التى تكون إجمال عملية الغش المستخدمة فى هذه اللعبة ، لابد لنا من أن نتعرض لأكثر معالمها وضوحا ، ألا وهو : التدمير .

التدمير :

إن اللعبة بأكملها تهدف التدمير .. تدمير القيم .. تدمير التطور الفنى فى سياقه المتصل بديالكتيك الحياة .. تدمير قيمة الفن فى ذاته وتحويله إلى سلعة تجارية فى علاقة عضوية بسوق المال .. تدمير التراث وانتماء الفنان لوطنه ، ونزع إرادة الحياة وتواصله مع الجمهور ؛ ليفقد الفن أى أثر فى البناء ويصبح أداة هدم ، ومن ثم قد نعود فى هذا الجزء الأخير من الفصل لبعض التيارات والمذاهب ، وقد تبدو متكررة ، ولكن تناولها هنا مرتبط بدورها التدميرى .

من المذهل والطريف معاً أن نرى مدى ارتباط كلمة التدمير بالفن الحديث ، وكم تتناثر تنويعاتها عبر كرم الكتابات التى تصف مذاهبه وتياراته من مؤيديه . ونذكر منها هنا على سبيل المثال : التفكيك ، الإلغاء ، العدم ، النفى ، القهر ، التفتيت ، التشويه ، الاضطراب ، المسخ ، الذبح ، القتل . ولا تقل الأفعال التدميرية عنها وجودا ، فنرى : التحطيم ، التكسير ، التهشيم ، الفسخ ، الهتك ، الرض ، السحق ، الفك ، الخلع ، السلب ... إلخ .

ولقد تسلت هذه التعبيرات والأفعال التى تعبر عن الهدم والتدمير فى نصوص النقد الفنى ، اعتبارا من حقبة الخمسينيات بصفة خاصة . إلا أن بداية انطلاق هذه التعبيرات وتسلسلها عبر كتابات النقاد كانت فى الفترة التى نادى فيها الفنانون التجريديون بانتماهم إلى مذهب التكعيبية ، لاعتباره ممثلا لحركة تطويرية فى تسلسل المذاهب التشكيلية ؛ ربما لأنه فى زعمهم يمثل مذهباً ذا حدين: إذ يروجون لاعتباره ثورة وقانونا ، بينما كان فى الواقع مجرد ضربة موجهة لكل القيم الفنية السابقة عليه .

إن السرعة التى انتشر بها هذا المذهب (التكعيبية) فيما بين 1910 و1914 لهى سرعة مذهلة حقا ، أول ما يلفت النظر فيها إنما هو هذا التحول الذى أحدثته فى القيم التشكيلية ، والهدف المدمر، لهذه القيم ، والذى يصل لنهاية الشوط فى

تحطيم معنى كلمة «القيم» والعمل على اندثارها، وإهالة موجات متتابعة وهادرة للقضاء على المد الطبيعي لقيم الفن الذى تواصل عبر التاريخ الممتد بحوار لم يتوقف، يتلاحم فيه الفن أكثر بحركة المجتمع ويعبر عن قضائاه وواقعه وأمانى غده .

وهكذا جاء الشرخ الكبير الذى أنهى كل ما هو قديم أو سابق على التجريديات ، أو كما يقوله موندريان Mondrian ، الذى يعد من أعمدة هذا الفن الحديث : «لقد تم الفصل بشكل نهائى لا رجعة فيه» !

ومع ذلك ، فإن هذا الانفصال عن الماضى والقضاء على تواصله الحتمى بين الفن والجمهور ، هو كل ما هدفوا إليه .. لقد أرادوا تغيير طبيعة كل الأشياء تغييرا جذريا ، وإقامة نسق متدهور من قيم جديدة متهاوية ، لتسهم فى التخريب وتحقيق أهدافهم الخفية . وها هو موندريان يفصح عن هذا المعنى قائلا : «إن تغيير طبيعة الأشياء إنما يعنى التجريد . وبفضل التجريد يصل المرء إلى التعبير الصافى المجرّد ، كما أن تغيير طبيعة الأشياء يعنى التعمق» ! ذلك ما كتبه منذ حقبة باكورة عام 1917 ، فى الفترة التى كان فيها مذهب دى ستيل De Stijl يتولد فى أخايد التكعيبية .

ولقد نبعت التكعيبية من المزج بين الفن الزنجرى وتشويه بعض مبادئ سيزان Cézane ، وبراها البعض أهم نقطة تحول ، عند مطلع هذا القرن ، وأكثرها حسما للانتقال من العقلانية إلى كل ما هو مضاد للعقل والمنطق . وعندما رأى كبار التكعيبيين نهاية مطافهم ، حاولوا إضفاء بعض المكونات المتماسكة لروحانيتهم باستخدام أكثر الأشكال تجريدا وباللجوء إلى مواد غير تشكيلية - من قبيل ما سبق وعرضنا له - وذلك بإضافة أو باستخدام «الورق المقصوص» ، و«الزلط» ، و«الخرق البالية» ، و«الأسلاك الشائكة» ، وكل ما لا يمكن تخيله من مواد وضعوها بلوحاتهم .

وفى كل ذلك الزخم من المدارس والمذاهب التى تلت التكعيبية ، فإن الفضيحة التى أثارتها مظاهرات الدادية تعد من أعنف الأحداث التى عرفها تاريخ فن التصوير على الإطلاق وأكثرها دويا . فلقد كان الداديون يلجأون إلى أساليب استعراضية صاخبة ، مدخرين حربا معلنة ضد القيم التى أطلقوا عليها

«بورجوازية»، والتي جاءوا هم أنفسهم منها . إن هذه الحرب المعلنة التي اتخذت شعاراتها ضد الدخائل والدوافع البورجوازية ، قد وقعت في كل المتجهات التي هاجمتها واندفعت في الطريق المرسوم لها ، مبتعثة كل الأساليب الفوضوية .

لقد كان الهدف من ذلك هو إيجاد صيغة جديدة ، تتسلل عبر الدادية لتكون معول هدم يضرب كل الاتجاهات (حتى التي سبق أن صنعوها كأنها كانت في طريقها للأفول) بأساليب جديدة ، وإن كانت تسعى للأهداف نفسها السابق الإشارة إليها . لقد تجاوز الداديون كل حد في عملية التخريب واستخدموا عبارات ثورية وشعارات مججلة سرعان ما ارتدت إلى نحورهم ، لكنهم في كل الأحوال قد بهروا الكثيرين في البدء .

وفي أثناء جولاتهم التخريبية التي أعدها مسبقا ، قام الداديون بتخريب الأماكن العامة في باريس . ولم يكتفوا بأفعالهم الفوضوية في الأماكن العامة ، بل استخدموا كل الأساليب غير الشريفة ضد معارضيتهم . ويعد اتهام الأديب موريس باريس Mauréoe Barrès من أشهر الأمثلة التخريبية ، التي قاموا بها للقضاء على سمعته ووصمه بما ليس فيه لمجرد أنه خالفهم الرأي .

لقد وجدت هذه الجماعة في شخص جوستاف متزجر Gustavo Metzger رمزا لقمة بركان التدمير كما يجب أن يكون ، وقام متزجر من جانبه في عام 1959 بإعلان بيانه الشهير عن الهدم الذاتي Autodestruction الذي أعلن فيه عن حلمه بتخيل أعمال تهدم ذاتها !! والغريب والمؤسف والباعث للسخرية معاً في هذا الموقف أنه وجد أتباعاً لمذهبه هذا !!

إلا أن موجة الدمار هذه كانت أبعد مدى مما تصوروا - في ظني - فإذا ما كان جوستاف متزجر قد تصور التدمير الذاتي في لوحة من النايلون المسكوب عليه حامض الكورهدريك ، فإن جون لاثام John Latham تقدم بفكرة إحراق بعض الكتب المنتقاة بعناية ، بعد وضعها فوق بعضها البعض بحيث تكون برجاً عالياً يكون حريقه شعلة توهج !! أما تينجيلي Tinguely فقد فاق الجميع في مطالبه وتصوراتهِ ؛ إذ قام ببناء بعض الآلات التي تتهدم ذاتياً في حدائق متحف نيويورك . بل وإلى هذا الأخير ترجع أكثر الأفكار تفجيرياً وتدميراً ، إذ تصور إمكان صنع إحدى اللوحات الفنية بحب وصبر وأناة ، وبعدها تفجّر بالديناميت في صحراء نيفادا !!

وفى مباراة العته المتعمد هذه ، وصل يوكو أونو Yoko Ono إلى أبعد ما يمكن تصوره من خذل ، إذ اقترح على رفاقه القيام بالتدمير الذاتى ذاتيا ، فقال :

«صوروا بدمائكم

صوروا حتى الإغماء

صوروا إلى أن يحل بكم الموت،

إلا أن أحدا لم تواته الشجاعة ليديم نفسه ذاتيا مع الأسف !

إن نشيد العدمية هذا كان يرمى إلى الاستحواذ على السوق الفنية ، بقدر ما يتفق ويتواكب مع الضربات نفسها المتعمدة والموجهة لمختلف المجالات الفنية الأخرى كالمرسح ، والموسيقى ، والسينما ، والآداب . وإن لم نقل شيئا عن مجالات أخرى كالتعليم وعلم النفس وغيرها ، والتي أصابها أو أصاب بعض فروعها عمليات التخريب نفسها التى تمت فى الفن التشيكلى .

إن نجاح عملية تدمير المعرفة والمنطق الإنسانى ، وتخريبهما فى مجال فن التصوير كان يتطلب تصافر ظروف وأساليب معينة ، بجانب عديد من العناصر التى ذكرناها ، ومنها : الاستيلاء على السوق ، وهدم كيان الفنانين الحقيقيين أو المنتمين إلى الواقعية ، بجانب اللجوء إلى الأساليب الملتوية والتلاعب فى البورصة ، وجمع وتخزين أعداد كبيرة من اللوحات لتلبية احتياجات السوق ، ومن ثم إلزام الفنان بإنتاج مجموعات من اللوحات مع عمل جوائز شديدة الإغراء ، ضمانا لجمهور بعينه من المشترين المتحذلقين أو المستثمرين ، وفى كل الأحوال عمل دعاية تجارية ضخمة بواسطة سماسرة الصحافة ... إلخ . وفى كل هذه العوامل التى يصعب حصرها ، كان نقاد الفن يمثلون السند الأساسى والمستشارين الحقيقيين بالنسبة للمصورين وبالنسبة للمشترين فى لعبة البيع والشراء هذه .

لقد بدأ مفهوم الناقد الفنى يتخذ معنى آخر - كما سبق أن رأينا - فى ظل هذه اللعبة الاحتكارية المالية ، ومنذ بداياتها ؛ خاصة فيما يتصل بكرامة الناقد وأمانته - سواء أكان مدركا لذلك أم لا - وقع هذا الصنف من النقاد فى إسار القيود التى كبلتهم فى خدمة اللعبة ومحركها .

ورغم كل الجهود المضنية التى بذلها النقاد المتحذلقون ، فسرعان ما

تكشفت لعبة الداديين . وعندها حاول الداديون الوصول بالمغامرة العدمية حتى نهايتها ، فقاموا باصطناع مذهب السريالية الذى يعتبر امتداداً لهم ، وهو المذهب الذى حمل الشعارات المعلنة نفسها وهى : الحرية ، والثورية ، والرفض .

ورغم تطلعاتهم العريضة الآفاق لحد لا ينتهى ، فقد قضت على السريالية هى الأخرى تلك الأهداف غير المعلنة والمتصلة بأهداف صناع لعبة الفن الحديث ، والتي لم يكن لأحد أن يتشكك فى أمرها من خلال تلك الصياغات التى قام بها أندريه بریتون وجماعته ؛ «فقد كانوا يتسللون ببطء شديد تجاه فن فاضح ، يسانداهم كم مفروط من المجلات ، والمطبوعات ، والكتيبات المليئة بالشعر ، وعديد من المعارض المتناوبة مع شتى الظواهر العامة التى كانت تحافظ على فوران الموقف ، إلا أن كل ذلك انتهى إلى أن يتخذ ملمحا فريدا ، لا يمكن إلا للخاصة المؤهلين أن تظهر خلافاته الداخلية» (122) .

ومن خلال هذا الوصف الذى كتبه ريمون ديسينى ، تبدو السريالية أكثر من مجرد حركة جديدة ، وأكثر من مجرد أسلوب جديد ، كما أنها لم تكن مجرد صياغة لنظرية واضحة الملامح والمحددات ، وها هو روكميكر Rookmaker يصف هذا المذهب قائلاً فى كتابه عن «الفن الحديث وموت الثقافة» : «إن السريالية عبارة عن مذهب ثورى وهدام معاً : فكل الثقافة الغربية ومجتمعها مدبنة ، وهى فى صراع مع كل قائم ، وفى ثورة ضد كل ما تعلق به عالم البورجوازية بأسره . بل لقد ثارت السريالية ضد مفهوم الوطن ، وضد الله ، وبخاصة ضد العقل والمنطق ... لقد كان مذهباً فوضوياً بمعنى الكلمة» (الفن الحديث وموت ثقافة) (125) .

وهكذا ، حتى لدى معارضيهها وكاشفى بعض أوجهها ، يبدأ التقديم باعتبارها ثورة لينتهى بالكلمة الصحيحة الوحيدة التى تحمل واقعها الظاهرى : «مذهب فوضوى» . ولقد كان للمصورين من أتباع هذه المذاهب وأفعالها تعبيرات ذات مغزى ، وها هو دى كوننج De Kooning يقول : «إن على الفنان أن يحطم التصوير كلما أمكنه ذلك ويقدر الإمكان» . وبالمثل صاح كارل أربل Karl Arpel قائلاً : «إننى لا أصور ، إننى أضبط . فالتصوير يعنى الهدم» !! وكان كاندنسكى يرى قبلهما : «أن فن التصوير عبارة عن تصادم مروع لعوالم مختلفة ، كما سبق له أن قال : «إن العمل الفنى يتولد من الكوارث» .

وسواء أكان الأمر يتعلق بصلات ذات إطار فلسفى مصنوع لا مطبوع ، أم بتصارع أشياء مستهلكة ، أم أن الأمر برمته كان يتعلق بالبحث عن تعريف جديد عبر حنايا اللامعقول فى واقع اجتماعى مضطرب ، فإن هذه الآراء يجب ألا تحجب عنا تلك الأفكار التخريبية والظواهر المدمرة ، التى خدمت أهداف لعبة الفن الحديث بتبنيها للعدمية والرفض والفوضوية ، وكأنها اتجهت بكل صنائعهم وكتاباتهم وتنظيراتهم فى اتجاه الهدم التخريبى ، الذى ينتهى به الأمر فى نهاية المطاف بعزل الفن عن النشاط الإنسانى ، وقضايا الواقع والمجتمع ، وإنماء بذور العدمية التى كانت بوادرها تظهر من حين لآخر حوالى عام 1914 .

ولكنها لم تكن أبدا موجودة ومعلنة بهذه الحدة وبهذا الإلحاح ، مثلما حدث فى النصف الثانى من هذا القرن . وفى أواخر الستينيات بدأت هذه الظاهرة تتفشى وتعمم بقيادة الأوساط الرسمية الدولية . وهنا يقول فلاديمير فيدلبيه Vlademir Weidlé : «فى كل مكان نرى عملية تقليل الشأن نفسها ، وروح التجريد نفسها ، والغياب نفسه لكل ما هو إنسانى ، والإحلال نفسه لكل ما هو معقد مركب بدلا من الأشياء التى هى بطبيعتها بسيطة غير قابلة للتجزئة» (المصير الحالى للآداب والفنون) (140) .

إن هذا السبق الربائى للعدمية والتخريب فى آن واحد قد أثار قلق عديد من الكتاب ، حتى أكثرهم تقبلا للوضع وحماسا له . وأخيرا فقد ذهب البعض إلى إيجاد صلة ما ، بين الفن اللاشكلى بكل تجريداته والانفجارات الذرية !!

وها هو مارسيل بريون ، وهو واحد من أكثر المتحمسين للتجريد يقول : «إن الفن اللاشكلى ، فى مجال التصوير ، يماثل التفجرات التى يقوم بها العلماء المتخصصون فى الطاقة الذرية من أجل تجاربهم ، وإنها لظاهرة من أغرب ظواهر تاريخ الفن أن تتوافق الأحداث بين ظهور الفن اللاشكلى والتفتت العميق لحضارة ، تهدمت فيها أقوى وأقدم دعائمها» (14) .

وحيال هذه النزعة التدميرية لإبادة الفن ، لا يمكن ألا نتساءل : لماذا يتم فرض الدمار والهدم والإبادة والموت فى كل مكان ، فى قلب الفنون وبواسطتها؟!

حقا ، لقد سبق للفيلسوف الألمانى نيتشه Nietzsche أن أعلن قائلا : «إن الله قد مات» ! وأصبحت نغمة «إن الإنسان قد مات» هى اللحن المشترك ، الذى

تغنت به القطاعات المختلفة لحركات الفن الحديث . ولم يَقم هؤلاء الفنانون بالحكم على الإنسان بالموت بشكل لا يمت إلى العقل بصلة فحسب ، إنما قتلوا من شأنه إلى أقصى درجات التحقير ؛ إذ جعلوا منه مجرد آلة ... آلة شديدة التعقيد والعبثية تعلو بالنشاز وترسخ للهدم والتدمير .

ترى هل كان الأمر بعد هذا الذى عرضنا له مجرد ابتعائات تلقائية ، يفرزها واقع متدهور أم هو جزء من مخطط مدروس لأهداف بعينها ؟! لا أظننا بحاجة إلى الإجابة عن أسئلة لم تعد حائرة ، بعد ما اتضح بعض من صفات الأداة وصناعتها فى الواقع الفنى ، الذى اعتبر منذ إنسان ما قبل التاريخ وعبر الحضارات الأولى علاقة جدلية بين الإنسان والطبيعة والواقع . لقد استهدفوا الإنسان ، ذلك الذى اعتبره فيثاغورس «مقياساً لكل شيء» ، وها هو ينتهى به الأمر ليصبح بعد عدة قرون من التقدم والحضارة مجرد «آلة عبثية» ! فى ماكينة متعددة الأجزاء ، يعمل كل ترس فيها ضمن عجلة بعينها ، تدار فى إيقاع بعينه ، لحساب حشد من المؤسسات والأيدى الخفية .

إن فكرة هدم الإنسان وتدمير فكرة الفن النبيل والخلق ، التى ترمز لأعلى القيم الإنسانية ، لظاهرة غريبة وغير طبيعية ، جديرة بأن نراها عن قرب ، وذلك ما سوف نتناوله فى الفصل التالى .

* * *

الفصل الثالث

التدمير بالمطرقة

التدمير بالمطرقة

ولا يمكن دراسة أسباب هذا الانقلاب الذى لا مثيل له ولا سابقة له على مدى تاريخ الفن بأسره ، دون أن نتعرض لكيان آخر من المعطيات ، يتناول هذه المرة العناصر الأساسية لعملية التدمير ، أو بتعبير أكثر دقة : المدمرين الحقيقيين . ونظرا لضخامة الوثائق وتشعبها وما ترمى إليه ، فلا بد من متابعة لا تعرف الوجل لعدد من العناصر ، التى تعد المحرك الحقيقى والخفى لهذه اللعبة الإجرامية ، وهى : نيتشه (كتجسد فريد لنموذج فلسفى) ، ألمانيا ، اليهود ، الماسونية والولايات المتحدة الأمريكية .

وما أكثر ما نعرف أنه سيكون صادما للمألوف والشائع والمتاح ، لكن من حسن حظ العلم أنه لا يعرف الوقوف عن الشيطان المرنجفة أو يخشى لجج الممكن ؛ بل يبحر دوما لتحقيق ديالكتيك الأمثل مضيا على خطو الصيرورة والصدق ، الذى لا يعفر موارد أو خشية .

نيتشه :

إن الانتشار المذهل لفلسفة نيتشه الذى اخترناه تعبيرا عن روح عصر وفلسفة حقبة ، كان ذا تأثير بالغ على معطيات كثيرة فى الواقع ، واستندت إليه الأيادى الخفية فى لعبة الفن الحديث ، الأمر الذى يتطلب وقفة ؛ لأنه مثل واحداً من المعطيات الأساسية التى نسجت عليها الخطوط العريضة فى بحث هذا الفن عن سيد فلسفى ، وجدوه فى تلك الروح القلقة التى هى فى الآن نفسه نتاج حقبة بعينها وأثر لها ومؤثر فيها . ومرة أخرى نيتشه هنا مجرد مثال ليس مقصودا فى ذاته ولكن لدلالته كأبلغ تجسيد لفلسفة القرن التاسع عشر ، عصر الاضطراب والكم

فى مقابل الكيف ، الفرار من المسئولية والشك والانحلال وإله المادة الجديد ، والقضاء على إرادة الحياة والتدمير والعدمية وإرادة القوة معاً .

وما من أحد يجهل ذلك الحماس الذى أثارته فلسفة نيتشه وأفكاره منذ أواخر القرن التاسع عشر ، سواء بين الفلاسفة أو الكتاب ، حتى أنها لم توصف عشوائياً بأنها «إرادة القوة» ، قوة تدمر النظم الأساسية للحضارة بعامه ، وحضارة البحر الأبيض المتوسط بخاصة . وهو التدمير المتعمد الذى يمثل الصلة المباشرة بين نيتشه (كنموذج ومثال) والفن الحديث .

ولقد انتشرت فلسفة نيتشه فى فرنسا عقب ترجمة أعماله عام 1898 ؛ إلا أنها عرفت انبثاقها العريضة فى الأوساط الثقافية بفضل الحماس الشديد ، الذى أبداه أندريه جيد André Gide نحوها . ففى العاشر من أكتوبر عام 1899 ، كتب أندريه جيد فى أحد خطاباته «إلى أنجيل، قائلاً : «نعم ، إن نيتشه يهدم ، يدمر ، لكنه لا يقوم بذلك بأساً ، وإنما بعنفوان قوته ، بكل الذبل ، بعظمة عالية، تتشكل فوق طاقة البشر ، وكأنه فاتح جديد لأشياء قديمة بالية ... إنه يدمر الأعمال المنهكة ولا يقوم بصنع غيرها ، وإنما يقوم بما هو أكثر من ذلك ... إنه يكوّن عمالاً جدداً ... إنه يدمر ليطلب منهم ما هو أكثر من ذلك ، إنه يحثهم على التدمير» (*) .

وسرعان ما أصبحت هذه الأفكار بمثابة القانون الذى ساد فى تجريدات القرن العشرين . ولقد أصبح الناموس الأعلى المعلن عنه بكل شغف وحماس هو: «التدمير أولاً ، وسيأتى البناء فيما بعد» ! ترى هل لنا أن نوضح كم تتعارض كرة التدمير الجذرى مع فكرة الإبداع المتواصل عبر القرون؟! فعلى مدى تطور الفكر الإنسانى عبر التاريخ ، تتابعت الأعمال ، والابتكارات الجديدة ، وتساقطت الوريقات الضامرة دونما حاجة إلى تكوين فرق خاصة بالهدم والتدمير المتعمد ! كما أن الجديد إذ يخرج من القديم إنما يعنى فى المقام الأول حتمية تطويرية قد تكون بذاتها ثورة على القديم .

(*) قصدت كتابة بعض العبارات بالأحرف الثقيلة لنرى الأثر الذى تركته فلسفة القرن التاسع عشر ، ومرة أخرى .. فإن نيتشه تجسيد حي لها لدى المفكرين والكتاب .

ومن الغريب واللافت للنظر أن يقوم الفلاسفة والشعراء والعاملون بالقيم والمجالات الجمالية باحتضان ميراث فكر نيتشه لا في فرنسا فحسب ، وإنما في كل القارات . ولقد تلقى الشباب ، في كل مكان ، تعاليم التدمير والهدم المرعبة ؛ مما دعا جمهرة من علماء النفس إلى تعميم رؤية بعينها ، ترى أثر نيتشه في تلك الفكرة المطروحة والقائلة بأن حالات القلق ، التي كان يعاني منها نيتشه وتطلعاته ، هي الجذور التي تكمن في فكر المثقفين والفنانين والعاملين بمجال القيم الجمالية ، في العالم الغربي في القرن العشرين .

ودون الوقوع في الخلافات السائدة المتعلقة بانتساء نيتشه إلى مدرسة بعينها أو كونه من أتباع الفكر اليوناني وأحبابه أم أنه ألمانى الفكر والأصل ، فإن مضمون أعماله هو الذى يحسم ويحدد وضعه بكل وضوح . فما تعكسه هذه الأعمال إنما هو حالة الإبادة التامة ، والتدمير والخراب ، أو الخواء العام ، مع تعميق وتضخيم فكرة القوة التدميرية للإنسان «السوبرمان» بشكل جنونى ، حتى أن زاهار يرى أن نيتشه: «كان يقود فكرة المعرفة إلى الخواء والعدم ، عبر درجات تمجيد الكذب المختلفة» (142) .

ولا أحد يجهل كيف يتضح مبدأ إرادة القوة ، الذى يلوح كالطوفان منذ الأسطر الأولى في كتابات نيتشه ؛ إذ إن مفاهيمه للصراع ، والحرب ، والوحشية ، والعنف أو التدمير لا رحمة فيها على الإطلاق ، وهو يتوج كل أيديولوجياته هذه في كتابه الشهير المعروف باسم : «غروب الأصنام أو الفلسفة بالمطرقة» الذى كتبه عام 1888 ، وتبعه بكتابه المعروف باسم : «ضد المسيح» ، وهو أول كتاب فى تحويل كل القيم ، والذى يتضمن فلسفة السيادة وإرادة القوة التى يوضح فيها لأتباعه كيف يتفلسفون بالمطرقة ! ومن أشهر أقواله فى هذا الصدد : «إذا ما كانت الحقيقة ستؤدى إلى تدمير الإنسانية ، فمرحبا بها ! لقد أودعت المطرقة التى ستدمر الرجال بين أيديكم فدمروا !!

وكانت اللعبة تتسم ببساطة بشعة ، إذ بدأ بهدم مفهوم القيم مع حرصه الشديد على الاحتفاظ بجانب كبير من «الغموض» ، كما يعرض لذلك هو نفسه فى عديد من مؤلفاته ، ولم لا ؟ ألم يصبح الواقع الفنى بعد ذلك عبارة عن خواء عبثى غير مفهوم ؟! وهكذا قام كل فنان من الفنانين ونقاد الفن بإعادة تشكيل الفن

هدما بالمطرقة؟! وفي شهر يوليو عام 1875 ، وبعد ظهور كتابه المعروف باسم : «أصول التراجيديا» ، كتب نيتشه إلى صديقه جرسدورف Gersdorff قائلاً : «إننى أُلحِم بجمعية للرجال المتطرفين ، الذين لا يعرفون أى موارد ويرغبون فى أن يطلق عليهم «الهدامون» ، فهم يقومون بتطبيق ناموس الهدم على كل شيء ويضحون بكل شيء من أجل الحقيقة» .

ومن الواضح أن فلسفة الهدم هذه ، والفكر العدمى المتسلط ينتميان أساساً إلى آلهة التراث الألماني ، الذين اشتهروا - حتى فى التراث الأسطورى - بتخصصهم فى شئون الحرب والدمار ، والذين كانوا يشتركون بأنفسهم فى الغزوات الحربية أو يتولون أمر ضحايا المعارك وأمواتها .

ومن الواضح أن فكر نيتشه برمنته ينحدر من فلسفة الحروب السائدة فى التراث الألماني الجرمانى ، وهو فى الآن نفسه يمثل أساس الشكل التدميرى الذى يكسى به الفن الحديث ؛ فلقد استولى نيتشه على مطرقة الإله تور Thor الشهيرة والمسماة «ميولنير» Mjollnir ، التى تشبهها الأسطورة بالبرعد ، ليجعل منها سلاحه المفضل ؛ إذ إن تعبير المطرقة الذى يستخدمه باستمرار فى كتابته يمثل ، فى نظره ، السلاح الأمثل لتدمير المنطق ومفاهيم القيم السائدة . وهكذا يتضمن العنوان الفرعى «لسقوط الآلهة» توصيته الواضحة للتفلسف بالمطرقة .

ولكى يستولى نيتشه على إعجاب معاصريه وعلى إعجاب مثقفى أوروبا ، اتخذ من نفسه صورة للبطل المغوار الذى يتبنى الفكر اليونانى (الموقف نفسه الذى وقفه هيلدرين على سبيل المثال) وها هو سليل الأولمب يصك فهمه مؤتسماً ومتوحداً بروح ديونىوس ، بكل ما فيها من ألم وتشاؤم وأفعال رديدة - Reaction Formation من نشوة التدمير والفوضى وحيوية التوتر ، الذى يعشق الخطر والهدم!!

وليس من الصعب أن نتساءل لماذا لم تلق مبادئ الهدم والتدمير فى فلسفة نيتشه أى عوائق أو اعتراضات تذكر عند مطلع القرن العشرين ؟ وفى الآن نفسه لا يصعب علينا - فى ظنى - أن نرى كيف قام معظم المثقفين ، والفنانين بخاصة ، أولئك الثائرين شكلاً ضد البورجوازية والأكاديمية - بتبنى أقوال «نبي اللامعقول» وجبار القوة والتدمير، وحولوا هذه الأقوال إلى أسلحة هجومية ، وإلى

مطارق حقيقية ؛ لكى يهدموا أسمى ما ابتدعه الإنسان خلال تطوره عبر العصور؟
إن رייمون ديسينى ، الذى كان واحدا من أهم دعائم الحركة الدادية واحدا
من رفاق السريالية ، يوضح تطور وتوالى المذاهب الفنية منذ «التكعيبية» (ولا
يصعب على قارئ كتابه المعروف باسم : «آنذاك» أن يرى آثار رسول التدمير عبر
صفحاته) .

فطوال ذلك النص الكاشف ، لا يكف القارئ عن مطالعة مفردات بعينها
تتوالى بشكل متسلط وتكرر فى دأب ، من قبيل : الهدم ، التدمير ، الأنقاض ،
الغثيان ، الانحلال ، التفتت ، العدم ، الاضطراب ، ضد الإنسان ، ضد الفن ، ضد
الله ، ويتوازى معها فى الآن نفسه سلسلة أخرى من المفردات التى تمثل الأصداء
المكملة لأنشودة الخراب والعدم هذه ، ومنها : نهاية الفن .. نهاية الفكر الإنسانى ..
نهاية النقد .. الثورة الدائمة .. والثورة على كل القيم السائدة فى هذا العالم !

ولا نقل نصوص بيانات المذاهب الفنية كشفا عن معطيات هذا الفكر نفسه ،
نظراً لاحتوائها على المفردات نفسها السابق ذكرها . وتدل قراءة هذه البيانات
على ما تتضمنه من هدم وتدمير وتخريب . وأياً كان الأمر ، فإن التعريف الذى
يورده رייمون ديسينى عن الدادية لشديد الوضوح ؛ إذ يقول : «لقد كان قانون
الدادية هو هدم العالم بحيث لا يبقى منه شيئاً ؛ لإقامة عالم سواه» ! (122) .

ولا شك فى أن هذا المذهب ، الذى تتألق فيه العدمية بوضوح ، قد أدى إلى
كسر الدعائم الأساسية للقيم الجمالية ، ومع الأسف فإن ما تم هدمه أيام الدادية لم
تقم له قائمة فيما بعد .

ويعكس زاهر سياق هذه الكوميديا السوداء المعدة سلفاً ، قائلاً عن هؤلاء
الشبان البورجوازيين المثقفين لاعبي الأدوار الرئيسية : «كانوا يعصفون بصخب ،
ويهدمون ، ويطبعون المنشورات المسعورة ، ويقومون بأنفسهم بأعنف المظاهر
الهذيانية . لقد كانت بعض حيلهم بارعة ، لكنها عدوانية ، باعثة على الضحك .
وكانت كل هذه الخزعبلات تتم بجلال ووقار ؛ إذ إن الذين يقومون بإخراجها كانوا
يحفظون بجديتهم التى تعد القوة النفسية العظمى لأدائهم» (142) .

وتصل هذه الدراسة المهمة التى قام بها زاهر إلى أوجها ، حينما يقوم
بمحاولته الجادة للبحث عن تلك الصلات القائمة بين فلسفة نيتشه والفكر الألمانى

لمؤسسة «أتنسيوم» Athenaeum ، والتي أسسها الشبان الرومانسيون فى القرن التاسع عشر ، وهى التى كانت تبحث على غرار جمعية «الروزيكروشن» عن اكتشاف الكيان الفلسفى للفلسفة ، التى يمكن للإنسان بفضلها أن يستعيد النقاء ، والقوة ، والحكمة التى افتقدها (142) .

ولا يعنينا فى سياق هذا الاستشهاد سوى تعبير «روزيكروشن» ؛ لأن أعضاء هذه الجمعية انضموا جميعا إلى الماسونية ، وأصبح تعبير «روزيكروشن» يمثل حاليا إحدى درجات الماسونية ! وبها لها من صلات .

ولقد كان للنظريات الفلسفية الألمانية تأثيرها العميق على تطور الفن فى القرن العشرين عبر نظرية الفن للفن .. تلك النظرية التى تهدر وتهدم هى الأخرى تلك العلاقة العضوية بين الفن والمجتمع . وقد يرى البعض أن كوزان Cousin قد استعان ببعض الأفكار حول الفن من المفكرين المثاليين الألمان مثل كانت Kant وهيجل Hegel ، إلا أن للحقيقة وجهاً أبعد من ذلك ؛ إذ إن الفكر الألماني كله قد لعب دوراً رئيسياً فى عالم الفن فى القرن العشرين .

وليس غريباً أن نهتم بهذا الدور الذى لعبته ألمانيا بالذات ؛ إذ إنها قامت بدور أساسى فى تغيير رقعة المسرح وفقاً للأحداث السياسية التى تودى فوق خشبته وأبسط الأمثلة على ذلك ، تلك الحركة التطهيرية التى قام بها هتلر والنازى ، والتى يمكن أن نتأمل بعضها من أبعادها عن قرب ، ذلك أن بلداً يصل به الأمر إلى أن يحرق الأعمال الفنية التى أطلق عليها تعبير «منحلة» (وهو تعبير ضمنوه كل إنتاج الفن الحديث) ، ثم يتحول هذا البلد نفسه بعد الحرب ، وبعد هزيمته الساحقة ، إلى مستعمرة لسوق الفن الأمريكى لموقف يلفت النظر .

ألمانيا :

ترجع أولى هزات الفن التشكلى فى ألمانيا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، عندما أسست جماعة ميونخ عام 1892 ، وبعدها أسست الجماعة الثانية فى فيينا عام 1897 ، ثم أسست الجماعة الثالثة فى برلين بعد ذلك بعامين . ولقد لعبت جماعة برلين دوراً رئيسياً فى شيوع أسلوب مذهب «اليوجندستيل» Jugend Stil ، أى الفن الجديد ؛ لأنها مدت نشاطها إلى أبعد من فن التصوير البحث ، لتمتد إلى

بقية الفنون الزخرفية والموسيقى والآداب . وفى عام 1901 قام كاندينسكى بإنشاء جماعته المعروفة باسم «فالنكس» ، التى حلها بعد ذلك بثلاث سنوات .

غير أن مؤسسة «دى بروك» التى قام فنانون مدينة دريسد بإنشائها عام 1905 والذين كانوا يصارعون من أجل فرض الفن الحديث ، تمثل نقطة التحول الفنى الكبرى التى حدثت فى ألمانيا .. لقد كان هدف مؤسسيها القيام بربط مختلف المذاهب التى أسموها «الطليعية» آنذاك . وفى هذه الحقبة ، تحولت ألمانيا إلى أكبر مستودع أوروبى لأعمال الشعوب البدائية ، ويمثل عام 1912 استتباب واستقرار الفن الحديث نهائياً فى ألمانيا .

ويوضح أحد الخطابات التى أرسلها نودل Nodle ، أحد أعضاء جماعة «دى بروك» ، تلك الأهداف الأساسية المسيطرة لهذه الجماعة ؛ إذ كتب يقول : «هل هناك قواعد للفن؟ أيمكننا أن نتحدث عن اللامنطق أو عن العنف ؟ إذا أمكننى أن أسدى لك نصحا فسأقول الآتى : حينما تجد نفسك أمام بعض لوحات الفن الحديث المعاصر وتشعر حيالها بنوع من الفوضى ، والغضب ، والعنف ، وأن ترى فيها السوقية بعينها ، قف وتدارسها بعمق ، تمنعها طويلا ، وعندئذ سترى كيف يتحول اللافن الظاهرى إلى حرية ، وكيف تنتهى السوقية لتصبح حسا مرهفاً ؛ إذ إن الأعمال غير العدوانية عادة ما تساوى لا شىء» .

ولقد تم حل جماعة «دى بروك» كلية عام 1913 ، إلا أن ما يعيننا فى هذا الخطاب هو تعبيرات الفوضى ، والعنف ، واللامنطق ، والحرية ، وما إليها .

ثم قام كاندينسكى فى الثانى عشر من ديسمبر عام 1911 بتأسيس «البلاو رايتز» Blau Reiter ؛ أى الفارس الأزرق ، وهو مذهب ينعكس إلى أبعد مدى عن الأكاديمية . إلا أن قيام الحرب العالمية الأولى ورحيل كاندينسكى إلى روسيا قد أديا إلى تفريق أعضاء هذه الجماعة وتشتتهم .

ومع الانهيار العسكرى الذى منيت به ألمانيا (فى الحرب العالمية الأولى) وردود أفعاله العنيفة بجانب المخطط المحكم الصنع ، الذى تلعبه الأيادى الخفية فى لعبة الفن الحديث ، تسربت الدادية من خلالها . وأدت الدادية بدورها ، كظاهرة دولية للفوضى المتعمدة ، إلى انفجار عنيف خاطف ولافت للنظر فى عام 1919 .

ولقد قام جروبيوس فى ذلك العام نفسه - كما سبق أن رأينا - بإنشاء «الباهاهوس» . وعلى عكس بقية مدارس الفن ، فقد كونت «الباهاهوس» صلات حميمة مع مجال الصناعة ، وكان ذلك إرهابا ومؤشرا للتحويل الذى أرادوه للفن ولقيم الجمال . وما أن أتى عام 1926 حتى اختصر دور الفن وتضائل ليصبح مجرد حقل تجارب للتصميم (Design) ، وفى عام 1928 أسندت إدارة «الباهاهوس» إلى هانس ماير Hannes Mayer ، الذى أعطى للتعليم فيها شكلا عقائديا وسياسيا يتجه بها نحو اليسار . وإن كنا نظن أن ذلك كان جزءا من مخطط يتخذ شكلا ثوريا للإيهام بدور ورسالة مفتقدين ؛ إذ إن كل الدراسات الماركسية فى الفن على سبيل المثال ، وبخاصة لماركس ولينين ، لها موقفها الحاسم بجانب الواقعية ، ويدين مضمونها كل هذه الأشكال العبثية ؛ وهو ما رأينا ثورة أكتوبر 1917 تعيه فتقف بحزم ضد هذه اللعبة وشبهاتها .

ومنذ عام 1925 ، نقلت مدرسة «الباهاهوس» من مدينة فايمار إلى مدينة ديساو تحت ضغط النازى . وفى عام 1932 ، وتحت الضغوط نفسها ، تم نقلها إلى برلين ، وبعد ذلك بعام تم إغلاقها باعتبارها مركز إشعاع بلشفى !! ومن الغريب والكاشف معا أن كلا من جروبيوس ومايس فان در روه Mies Van Der Rohe ، وألبرس Albers قد هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية (ولم يتجهوا لروسيا) ، وانضموا إلى موهولى ناجى Moholy Nagy ، الذى قام عام 1937 بتأسيس «الباهاهوس الجديد» فى مدينة نيويورك كما سبق أن رأينا !!

إن ما يلفت النظر فى مؤسسة «الباهاهوس» هذه أنها قد استطاعت فى غضون عشر سنوات تقريبا ، أن تغير جذريا معالم ثقافة القرن العشرين فى ألمانيا ، مستعينة بكل الوسائل لتدعيم هذه الأراجيف فى مجال الفن .

إن وصول النازى إلى الحكم كان بمثابة الضربة القاضية للفن الألمانى الحديث الذى اعتبروه «فنا منحلا» ، والذى بدأ هتلر حملته لمناهضته منذ عام 1930 .

فى السادس من شهر يونيو عام 1931 ، وكانت فترة طويلة من زمن السلم بعد الحرب العالمية الأولى قد سادت ، تم هدم قصر الزواج فى مدينة ميونخ خلال حريق مروع . وكان هذا المبنى الذى صنع بأكمله من الزجاج (ويبلغ طوله

240 متراً وارتفاعه 24 متراً) مقخرة للعاصمة الألمانية (البافارية). لقد كان مكوناً من خمس وسبعين قاعة ، بها مائة وعشرة من أعمال فن التصوير الألماني الحديث . ولقد التهمت النيران المبنى بسرعة خاطفة حتى أن رجال الإطفاء بالمبنى لم يتمكنوا من إطلاق صفارات الإنذار ! وتم إرسال اثنين وثلاثين عربية إطفاء عندما شوهدت ألسنة اللهب عن بعد ، ولكنها لم تتمكن من الاقتراب من مكان الحادث إلا بصعوبة كبيرة .

وهنا لابد لنا من وقفة قصيرة ، نقارن فيها بين هذا الحريق والحريق الآخر الذي كان قد وقع قبل ذلك بعامين ، في السابع عشر من شهر مايو عام 1929 بقصر الشعب ، في مدينة امستردام ، وأتت عليه النيران خلال ثلاث ساعات دون أن يتمكن أحد من إنقاذه . ترى هل كانت مصادفة بحتة ؟ إن السؤال يأخذ شكلاً آخر حينما نعلم أن هذا القصر كان صورة طبق الأصل من قصر الزجاج بمدينة ميونخ . بل وقد تصبح المصادفة أكثر غرابة حينما نقارن بين هذين الحريقين وحرق لوحات الفن الحديث في متحف «جى دى پوم» Jeu de Paume بباريس عام 1943 .

وعلينا - أيضاً - أن نأخذ في الاعتبار كيف أنه ابتداء من عام 1931 ، لم يعد سوق الفن الألماني قادراً على ممارسة نشاطه بحرية ؛ ذلك لأن الأيديولوجية النازية اتهمت هذه الجمهرة من فنانين «البواهاوس» وتجارها بأنها «يهودية - ماركسية» ؛ مما اضطر التجار والفنانين للهجرة إلى منفاهم الاختياري - منذ حقبة مبكرة قبل الحرب العالمية الثانية - وهو أمريكا !! ولن نخوض الآن في ذلك الاتهام وحقيقته ، ولكن لا يمكن أن ننفي عن يمين إليهم صفتهم كيهود (*) .

لقد كان أول رد فعل لهذا الموقف هو ضياع إمكانات عديدة لتصريف لوحات الفن الحديث في ألمانيا ، بما أن جامعي اللوحات لم يعد بوسعهم الشراء ، وإنما كان عليهم أن يتخلصوا مما لديهم لكي يتمكنوا من الفرار . وهكذا ، تركز سوق الفن في أماكن أخرى ؛ خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية التي هاجر

(*) مرة أخرى ليس من حق أحد أن يتهمنا بمعاداة اليهودية ، والتي لا اعترض عليها .. فنحن نقر ونائق جلها أصبح جزءاً من حركة التاريخ.

معظمهم إليها وكأنها أرض ميعاد أخرى ، لقد كانت بالفعل أرضا خصبة طوحت بالمبادئ وكشفت الأتفة ، وها هو انخفاض الأسعار يؤدي إلى تمكين من لديهم السيولة المالية (وجلهم من كبار أثرياء الجيتو) من تكوين مجموعات كبيرة من الفن الحديث بأسعار زهيدة ، وها هم يدخرونها لمرحلة قادمة ، وها هم يثرون ويحققون الهدفين معا : المال ، والكمون لوثية جديدة تتحقق فيها خططهم .

لقد كان إغلاق «الباهاوس» مؤشرا لنهاية المعركة الاقتصادية ، واستثمارا ضاريا للضربات التي لوحث بها النازية ، وبالغ اليهود في آثارها !! لقد كانت ألمانيا في مرحلة إعادة تسليح وتطوير للصناعات الثقيلة (والتي ساهمت مصانع كروب في تدعيمها!!) .

وأيا كانت النتائج السابقة ، فإن ما تكشفه هذه الأحداث التاريخية الاجتماعية هو أن مجال الفن التشكيلي يتبع لعبة السياسة بشكل قاطع ويتشكل تبعاً لمعطياتها ، ويستثمر كل حركة في إيقاعها ، حتى حملة هتلر العنيفة ، الموجهة ضد كل مظاهر الفن الحديث ، والتي لم يرحم فيها حتى أولئك الأشخاص الذين يدافعون عن هذا الفن ، الذي رأى فيه «أنه الانحطاط بعينه .. والمهمنون عليه معزّون إما لمستشفى المجانين أو السجن» .

وما أكثر ما استثمروا مثل هذه العبارات ، وحاولوا من خلالها أن يبرهنوا على دور غائب لفنهم ، الذي رحلوا بكل لوحاته واستثمروا ما نزل بهم من ضربات أبشع استثمار . لكن علينا هنا أن نقرر أننا نختلف مع ما فعله هتلر ، بقدر ما نختلف مع القيم المنحطة التي تسللوا بها للفن ، ويجب أن نشير إلى أنهم قد استثمروا ما فعله هتلر ، ولم يكفوا عن ترديده ليخفوا عنا تلك الأقلام الجادة التي كشفت دورهم في التخريب والهدم ... ذلك أن انتباه البعض لأهداف الفن الحديث الخفية كان مبكرا .

وما أن يأتي عام 1933 حتى يأمر «الفوهرر» بتطهير المتاحف ؛ فقامت اللجان المختصة بجمع سبعمائة وخمسين لوحة ، تم جمعها من خمسة وعشرين متحفا بألمانيا . وفي العاشر من شهر مايو ، أقيمت مواقع الحطب في الميادين العامة بالعاصمة والمدن الجامعية الحكومية ، وتمت قراءة أسماء المخربين علانية . وفي نهاية حرق اللوحات ، قال جوبلز Goebbels في خطابه : «إن عهد النزعة

الثقافية اليهودية التي وصلت إلى أوجها قد انتهى الآن ، وبدأت انبثاق الثورة الألمانية لتفتح الطريق للفكر الألماني من جديد، (وارد في بريز «السياسة الفنية للحزب الوطني الاشتراكي»).

القضية ليست قضية النازية في مواجهة اليهود إذاً ، بل النزعة الثقافية اليهودية التي كشف النازيون عن وجهها ، ومرة أخرى ، بقدر ما ندين النازية وفلسفتها وسياساتها التدميرية ، ندين النزعات العرقية التي تعمل لحساب أهداف تناهض الحضارة والإنسانية وتعمل على تدميرهما .

وقد حاول الكونت بدويسين Boudissin استغلال الهجوم الموجه ضد الأعمال الفنية الحديثة ، ونادى ببيعها بدلاً من حرقها . وهكذا قامت قاعة عرض فيشر Fischer بمدينة لوسيرن Lucerne بتنظيم مزادات بيع علانية لأعمال الفن «المنحط» ، والتي كانت تضمها مخازن شارع كوبرنيكر Koperknicker strasse ، في عام 1938 قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بعام واحد .

لكن تجار الفن ومعظمهم إن لم يكونوا كلهم من اليهود ، قاموا بتكوين كتل احتكاري ، اتفقوا فيه على ألا يدفعوا غير الحد الأدنى ؛ حتى يمكنهم إعادة بيع اللوحات بمكاسب كبيرة . وكان ما تبقى في هذا المخزن يمثل ألفاً وأربعمائة لوحة وتمثال ، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة وخمسة وعشرين رسماً بالقلم أو بالألوان المائية ، وهو ما تم حرقه بأسره على أيدي رجال الإطفاء في برلين ، في العشرين من مارس عام 1939 .

وتقول روز فالان Rose Valland عن هذه الواقعة : «إن الفضيحة الدولية كانت من الضخامة ؛ بحيث لم يوجه أى لوم للتجار الذين تمكنوا من الشراء بأبخص الأسعار ، محققين بذلك أقصى الأرباح ، دون أن يمكنوا حكومة الرايخ من الحصول على القيمة المقابلة لهذه الأعمال ، التي كانوا ينتظرون الحصول عليها» (132) .

وهكذا تستثمر الأيدي الخفية التي يلعب معها أثرياء الجيتو اليهودي كل أبعاد اللعبة لخدمة أهدافهم ، مهما كان الثمن الذي يدفعه الآخرون حتى وإن كانوا من أبناء جلدتهم .

لقد مارس هتلر ، أثناء احتلاله لفرنسا ، سياسة تطهير المتاحف نفسها

وعملية الاستيلاء نفسها على مقتنيات اليهود الفنية ، وقام ألفريد روزنبرج Alfred Rosenberg بالدور الرئيسي فى هذه اللعبة . وهنا نقول روز فالان : « كانت أولى المهام الملقاة عليه ، وكلها مهام نظرية ، هى الحصول على الوثائق السياسية والاستيلاء عليها . ولذلك تم الاستيلاء على المواد الثقافية التى يمكن للحزب أن يستخدمها ضد أعدائه المعروفين : اليهود والماسونيين ، (132) (*) .

وفى السابع والعشرين من شهر مايو عام 1943 ، تم فى حديقة التويلرى الداخلية بمتحف جى دى بوم ، فى وسط باريس ، حرق حوالى خمسمائة أو ستمائة لوحة من الفن الحديث . وكانت هذه اللوحات التى تعد « خطيرة وغير صالحة للاستخدام » تحمل - من وجهة نظر هتلر - سمًا زعافا لا بد من إيقاف مفعوله ألا وهو : « الفكر والإلهام اليهودى » ، الذى قام هتلر بحرقه .

إن ما يعيننا فى هذا العرض الموجز لموقف الفن الحديث فى ألمانيا لم يكن إثبات كيف أن الأحداث الفنية تتبع الأحداث السياسية فحسب ، وإنما أن نوضح السبب الحقيقى الذى دفع هتلر والنازية بعامة إلى مهاجمة الفن الحديث ، فما من أحد يستطيع أن يشك فى ارتباط الفن الحديث باليهود وبالماسونية ، وباعتبار أكثر دقة : كان اليهود والماسونيون من ضمن الدعامات الأساسية ، التى تمسك فى أيديها بخيوط لعبة الفن الحديث . بل لقد كانوا الأساس وخرجت من أيديهم كل الدمى الأخرى ، وهو ما سنحاول رؤيته عن قرب .

ومن جهة أخرى ، فإن هذا العرض السريع يوضح كيف تمت محاولة غرس الفن الحديث فى ألمانيا بحيث يتحول هذا البلد إلى مركز إشعاع له ، وكيف باءت هذه المحاولة بالفشل ، ولم تصبح ألمانيا حقلاً خصباً لنشر الفن الحديث ، إلا بعد أن هزمتها الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية .

أما المحاولة الثانية فقد تمت فى فرنسا ، وذلك ما سوف نتعرض له فى النقطة التالية ، وإن كنا نحب أن نشير - مرة أخرى - إلى استثمار كل المعطيات وتوظيفها لخدمة مصالح الأيدى الخفية ، مع إغفال متعمد وإدغام مصنوع وحذف شائع لما يكشف عن وجهها وصناعها الحقيقيين .

(*) نظن أن هذا النص ، إذ يأتى من متعاطفة مع الفن الحديث ، إنما يشير أيضا إلى دور اليهود والماسونية فى هذه اللعبة الخفية ، التى نكرر أنها تستثمر كل حدث ، وتدفع بدالاته فى اتجاهات بعينها ، يستطيعون استثمارها إن عاجلاً أو آجلاً .

اليهود في فرنسا :

بدأت النظريات الفنية تتكاثر في مطلع القرن العشرين ، وهى نظريات ما أن تولد حتى يبالغ النقاد فى مدحها ، إلا أنها سرعان ما تجهض ويخفت ضجيجها . وهنا ، وفى هذه اللحظة بالذات ، يبدأ التجار اليهود فى التدخل وفرض أنفسهم كحماة لأجيال الطلائع من الفنانين .

ومن المعروف أن أولى محاولاتهم هذه ترجع إلى عام 1891 ، فى وسط جو خاص ، أحاط «بالمجلة البيضاء» La Revue Blanche ، حيث كان كل العاملين بها من اليهود ، بدءاً من المديرين ، الإخوة ناتانسن Natanson حتى ليون بلوم Léon Blum ، رئيس الوزراء ، مارين بكل من لويسيان مولفيلد Lucien Muhlfeld ، وفيل Weil ، المسمى رومان كولس Romain Coolus ، ويندا Benda ، وبول المسمى تريستان برنارد Tristan Bernard ، وكانوا جميعاً يزرعون الفوضى وينمون الروح المعادية للعسكرية ، وينشرون الريبة والتشكيك ، ويساندون الفن الحديث .

وابتداء من هذه الحقبة بالذات ، عرف اليهود كيف يضمون الفنانين إلى صفوفهم ، بدءاً من فويلارد Vuillard الذى سيعتمد عليهم طوال حياته ، وابتداء من هذه الحقبة أيضاً لعب اليهود فى فرنسا دور رعاة الفن ، بتقديمهم لأسلوب العقود والاستيلاء على إنتاج الفنانين .

وسرعان ما تبلور هذا النظام الذى بدأ فى أواخر القرن الماضى بجرأة سابقة لها ، لينتظم بشكل منهجى قياسى حوالى عام 1900 ، بتكوين رابطة تجارية تضم كبار التجار اليهود مثل فيلدنشتاين Wildenstein ، وإخوان برنهايم Bernheim ، وهيسيل Hessel ، وروزنبرج Rosenberg ، الذين انضم إليهم عدد آخر من بنى جلدتهم الأقل منهم مكانة ، والذين لا يمتلكون غير قاعات صغيرة .

ومن خلال هذا الختم الذى دمغوا به فن التصوير ، أصبح هذا الفن خاضعاً تماماً للشعارات المعادية للأكاديمية ، ولا شئ غير ذلك . وأصبحوا يشيدون بفن دولى ، وذلك بغرض مواصفاته - عبر الأساليب السابق الإشارة إليها - على كل المدارس فى كل البلدان . وهنا يقول كامى موكلير : «ومن كثرة ما هاجموا البورجوازية ، وتغنوا بالأممية وبالفوضى التحررية ، كان الجميع ينفذون لعبة

اليهود القائمة على تفتيت القيم الاجتماعية ، والذين كانوا يرون في فن التصوير أعظم وسيلة لبلبلة العقول وتحلل الذوق العام (89) .

ومع قيام الجبهة الشعبية في فرنسا ، على مشارف الحرب العالمية الثانية ، سادت روح التعصب للفن الحديث بتياراته بشكل فظ ومقلق ، بإنشاء «بيت الثقافة» ، ثم «جمعية الفنانين والكتاب الثوريين» وهما هيئتان كانتا تحت رعاية وزير الثقافة اليهودي جان زيه Jean Zay . وقد قام بإلقاء المحاضرات فيهما كل من أندريه لوت André Lhote ، وجان كاسو Jean Cassou ، وبلوخ Bloch ، وأراجون Aragon ، وجوردان Jourdain ، وكانت المحاضرات تنموج ما بين السياسة والفن .

وفي هذه الحقبة زادت السيطرة اليهودية ، بحيث لم يعد لأحد أن يغفل تفشيها . ألم يقل أود Eudes إنه لولا اليهود لكانت أوروبا الآرية تثير الخجل بدرجة يرثى لها؟! فضلا عن ذلك فقد رأى أن تأثير اليهود كان باهرا وخارقا للعادة!! وذلك - في رأيه - لأن أكثر من ثلاثة أرباع التجار ونقاد الفن وجامعي اللوحات كانوا من اليهود؟! وها هو يؤكد : «إنه بفضل تأثير اليهود ونقودهم ، استطاعت اللوحات المهمة أن تدخل المتاحف ... إنهم هم الذين يأتون بالإسهام الأساسي لفن التصوير الحديث ، بل إنه لا كيان لهذا الفن إلا بفضلهم!!

نرى هل نحن بحاجة للإشارة إلى الأهمية المزدوجة لهذا النص ، الذي يكشف من جهة عن تحيز نقاد الفن ، بقدر ما يعكس من جهة أخرى موارد ذلك الواقع الذي يسيطر عليه اليهود ، وينحدرون بفنه تحقيقا لأهداف بعينها مناهضة لكل القيم؟!!

لقد أدى الأمر بأوزنفان Ozenfant إلى أن يؤكد في كل مناسبة «أنه لم يعد هناك وجود الماضى ، وما الذكرى غير خديعة . إن الله هو نحن . وحالة التنويم المغناطيسى هي أحد الشروط الأساسية للفن . إنه لا يوجد فن قومي» ! أما برنهايم ، فلم يتورع عن أن يعلن بفظاظة أنه : «لن يصبح موهوبا إلا من نريد نحن فحسب أن يكون موهوبا» !!

لذلك كتب كامى موكليير عام 1944 ، عن دراية واسعة ، قائلا : «لقد كان اتحاد اليهود هو المحرك الفعلى والخفى لفنوننا الجميلة ، منذ أكثر من ثلاثين عاما

على الأقل، (88) .

ورغم كل ما يوجهه موكلير وغيره من الكتاب من نقد ولوم لموقف اليهود هذا ، فإن ذلك كله لم يكن لتدخلهم بهذا الشكل الفج في مجال تجارة اللوحات ، وإنما لأنهم «أدخلوا فيه وسائل الغش والفساد» . وإذا ما كان إميل زولا Emile Zola قد سبق له أن أدانهم في القرن الماضي ؛ فإن تدخل اليهود لم يأخذ ذلك التوسع والشكل المدمر للفنون الجميلة إلا في القرن العشرين ، حينما قاموا بتكوين هذه المافيا المتحكمة ، والتي كان أحد مراكزها الأساسية في «سانت أونوريه» ، والآخر في «لابويسى» ، بباريس .

إن إفساد العادات والتقاليد الفنية لهو إحدى الألاعيب الكبرى ، التي أدخلوها في هذا المجال ، بما في ذلك أولئك الهواة المزعومون ، الذين لا يشترون اللوحات إلا لإعادة بيعها من جديد ، بغية تحقيق مكاسب طائلة ، عندما يعاملون اللوحة باعتبارها قيمة عينية ، ومن ثم يقومون بإيداعها في أحد البنوك . وها هو موكلير يضيف قائلاً : «لا يمكننا التعبير عن كل الألاعيب والاحتيالات ، التي تمت بحجة الأزمة الاقتصادية بتحريض من اليهود ولصالحهم . أما المعرض السريالي الذي أقيم في قاعة فيلدنشتاين حيث كان العبد يتبارى مع الإباحية فتلك فضيحة أخرى» ، (88) .

ولقد استطاعت تلك المكانة التي احتلها اليهود في مجالي الإعلام والاقتصاد أن تستحوذ على الصحافة الفرنسية بأسرها تقريباً . وها هو بامجان Pemjean يشير في كتابه عن «الصحافة واليهود» إلى الأثر الفعال لوكالات الأنباء الإعلام والدعاية ، التي كانت خير أداة في يد اليهود للإفساد ؛ فيقول : «ذات يوم ، قال اليهودي المرتد أرثر ماير Arthur Mayer ، مدير جريدة «لي جلوا» Le Gaulois ، مسدياً النصح إلى «الكونت دي باري» ، الذي كان يتطلع إلى عرش فرنسا : «لا تمتلك جريدة ما ياسيدي ، لا «الجلوا» ولا غيرها . وإنما ضع قدمك بأى ثمن في وكالة أنباء أو أكثر . إن الوكالة تسمح لك بالسيطرة المستترة ، المجهولة الهوية ، ولا أحد يتدخل فيها . إنها سلاح أكيد المفعول» ، (105) .

ومن ناحية أخرى ، كتب الصحفي النمساوي إيبرليه Eberlé ، في كتابه عن «الصحافة كقوة عظمى» ، قائلاً : «إن وكالات الأنباء الكبرى في العالم ، والتي

ترسل عن بُعد ما يود العالم أن يعرفه أو يجهله ، تعمل بالشكل المطلوب منها .
وهي إما ملكيات يهودية ، أو خاضعة تماما للإدارة اليهودية، (45) .

ويرجع اهتمام اليهود بوكالات الأنباء إلى النصف الأول من القرن الماضي، ولكي يقوم اليهودي شارل لوى حواس Charles Louis Hawas بإنشاء الوكالة التي تحمل اسمه ، فقد اشترى عام 1935 من اليهودي الألماني بورنشتاين Boernstein آلتة الخاصة بالطباعة ، واستعان في بادئ الأمر بمساعدة اليهودي «برنارد وولف» Bernhard Woolf الذي أنشأ عام 1849 وكالة «مكتب وولف للتغرافي» ، وفي العام نفسه قام اليهودي جوزافات بيرر Josaphat Beer بتأسيس وكالة رويتر بلندن . وابتداء من عام 1950 تحول اسم «مكتب حواس» ليصبح «وكالة حواس» ، التي تطورت بشكل مذهل بفضل اختراع التلفزيون الكهربائي» (105) .

ثم يضيف بيمجان في كتابه نفسه عن «الصحافة واليهود» قائلاً : «ومنذ قرن تم إنشاء وإغلاق كم لا حصر له من وكالات الأنباء ، قام بتأسيسها أو قادها أو مولها أتباع يهودا المخلصون ، وبالإضافة إلى مؤسسة النقل البحري «هاشيت» ، تلك الهيئة الضخمة لنقل وبيع وتوزيع الورق المطبوع ، فإننا نجد أنفسنا أمام أكبر احتكار لليهود . إن الاحتكار اليهودي الكبير كان يمارس قواه للتخويف حتى على مستوى التمثيل الدولي . «أقول الاحتكار؟» بل لقد كان في واقع الأمر اتحادا حقيقيا ، اتحادا احتكاريا تجاريا وثقافيا في آن واحد ، اتحادا يمثل تقييدا دائما لحرية العمل ، وخطرا جسيما على الصحافة الفرنسية» (105) .

ويقدم لنا بيمجان كشفا كاملا بأسماء كل الصحف والمجلات «التي كانت ملكياتها ، أو مديروها ، وهيئة محرريها وإدارتها بأكملها أو جزء كبير منها خاضعا لليهود» (صفحة 55) . ولم يكن بيمجان وحده هو الذي يدين هذا التدخل في الصحافة ، موضحا كيف كانت الصحف اليومية والمجلات والدوريات واقعة تحت وطأة تأثير اليهود ونفوذهم ، بل لقد كان هذا التأثير والنفوذ من القوة لدرجة جعلته يؤكد قائلا : «إن الصحافة الفرنسية كلها صحافة الأقاليم والمستعمرات مثلها مثل الصحافة الباريسية خاضعة بأسرها تحت قباب اليهود» .

وفي واقع الأمر ، لم تكن وكالات الأنباء والصحف وحدها هي الخاضعة

لسيطرة اليهود في فرنسا ، فحتى منتصف هذا القرن ، كان الوجود اليهودي متشعباً كالأخطبوط في كل الأماكن القيادية . فما أكثر المؤلفات التي ارتفعت نبراتها احتجاجاً في تلك الفترة ، وقامت بنشر عديد من القوائم التي تتضمن المجالات التي لا تنتهي والتابعة لليهود ، مما يدفعنا إلى القول بأن كل وسائل الاتصال الإنساني والسلطات التنفيذية كانت واقعة تحت سيطرة اليهود ، وبين أيديهم خيوطها ، ومنها : الصحافة ، والطباعة ، وتجارة الكتب ، والنقد ، والإذاعة ، والتلفزيون ، والسينما ، والمسرح . ولا يمكن أن نغفل هنا البنوك والتجارة بشكل عام .

ولم يكن الأمر عشوائياً أو مقولات بلا دليل ، عندما قال الأديب سلين Céline عام 1937 في كتابه «ترهه من أجل مذبحه» ، والذي صدره البوليس الفرنسي : «إن اليهود يمتلكون في فرنسا الاتحادات الاحتكارية التالية ، والتي تصل قيمتها إلى سبعمائة وخمسين مليار من إجمالي ألف مليار هي قيمة الثروة الفرنسية ، سواء أكانت هذه الملكية بشكل مباشر أم عن طريق وسطاء . ثم يورد قائمة في صفحتين من صفحات كتابه بعنوان هذه الاحتكارات ، والتي لم يضمها سوى العناوين الرئيسية للمؤسسات التابعة في فرنسا وحدها (22) .

إن كل المراجع التي تناولت هذا الموقف ، لا يتضح منها أن اليهود يستولون دائماً على كل وسائل التعبير والإعلام والمال والسلطة فحسب ، وإنما يقومون في الوقت نفسه بمحاولة بث أهدافهم وفرضها على أغلبية الشعوب الحديثة ، لتمضي خطاها على وتيرة واحدة عبر إيقاع بعينه ونمط واحد .

ولا يخفى على أحد أن الجماهير التي صنعتها الدعاية اليهودية ووضعتها في أطر قالبية Stéréotype واحدة ، لا يمكنها أن تضر بالسلطة اليهودية ؛ الأمر الذي لم يتم على المستوى الفني فحسب ، وإنما حدث أيضاً في المجال الاجتماعي الذي يمكن أن نذكر منه - على سبيل المثال - ببدعة الهيبيز Hippiers ، وموضة الـ Blue Jeans التي أصبحت لباساً مشتركاً لا بين الجنسين فقط وإنما بين الشعوب بزعم المساواة الشكلية بينها ! وإن كان الهدف جد واضح بغية إلغاء الهوية التراثية حتى في الملابس ، وكلها بدع قام يهود أمريكا بنشرها وفقاً للمخطط نفسه المستخدم في لعبة الفن الحديث .

لقد تناول سلين قضية الفنون الجميلة بعد تناوله للصحافة . وها هو يرى أن اليهود : «في مجال الفنون الجميلة قد استولوا على كل شيء ! كل الفنون الفطرية والفولكلورية ! إنهم ينزعون هوية كل شيء ، ثم يزيفونهم ويعدها يعيدون تقديمه مع تحقيق مكاسب طائلة ! إنها «الصلصة» (La sauce) اليهودية ! ثم يتغنى به النقاد من يهود وماسونيين ويهللون له . يا للعبقرية ! وهو أمر يبدو طبيعيا ، ومنضبطا ؛ إذ إن كل المدارس واقعة تحت سيطرتهم ، فهم السادة وهم الطغاة ، وهم الملاك المطلقون لمختلف مجالات الفنون الجميلة في العالم بأسره ، وفي فرنسا بصفة خاصة . ولا يمكن أن نغفل هنا أن كل الأساتذة وكل أعضاء لجان التحكيم ، والقاعات والمعارض كلها ملك لليهود» (22) .

وها هو الكاتب كوستون Coston في كتابه عن «التمويل اليهودي والاتحادات الاحتكارية» يتناول القضية نفسها ، فيضيف قائلا : «إن كل الاقتصاد الفرنسي ، والزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والبنوك ، والخدمات المتاحة كلها تقع تحت سيطرة اليهود .. إنهم سادة الاقتصاد في البلد ، كما أنهم سادة السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . وتعمل هذه القوى المالية في توافق متضافر لتمارس سلطاتها ونفوذها . ولكن يبدو لنا أن آل روتشيلد Rothschild من بين كل هؤلاء الأشخاص هم أقوى من فيهم» (32) .

لقد كان بنك الإخوة روتشيلد - في واقع الأمر - الذي كان رئيسه البارون إدوارد دي روتشيلد ، رئيس المجمع المركزي اليهودي في فرنسا ، أقوى البنوك الفرنسية . فبتحالفهم مع آل روتشيلد في لندن وفيينا ، ومع آل ساسون Sassoon ، كبار الصيارفة اليهود في الهند ، فإن آل روتشيلد في باريس يمثلون - والحال هذه - «ملوك الجمهورية الفرنسية» ، على حد تعبير النائب جول جيد Jules Guesde في منبر النواب (32) .

ومن المدهش إذا ما تتبعنا التطور الاستعراضي المذهل لآل روتشيلد أن نرى أنهم استطاعوا - في وقت جد قصير ، هو اللازم بعينه - أن يصعدوا ويترعوا على قمة الاقتصاد العالمي ! ويحكي كوستون تاريخ هذه الأسرة في فصل طويل بكتابه «التمويل اليهودي والاتحادات الاحتكارية» مدعما إياه بالوثائق ، ليصف فيه أعمال التهريب ، التي كانت هذه الأسرة تقوم بها عبر أوروبا ، وكيف أقامت

ثروتها على أنقاض وجثث معركة واترلو ، وسنكتفى هنا بأن نذكر كمثال فحسب سيرة روتشيلد الأول (رأس هذه الأسرة) .

إن اسم الأسرة مشتق من اللافتة الحديدية ، التي كانت موضوعة على واجهة المحل بالمبنى الذى يقطن به الجد الأول . ولم يكن اسمه آنذاك غير أمستل ماير Amstel Mayer ، وكان هذا الجد يقوم بتوريد المرتزقة مقابل الحصول على نسبة معينة عن كل رأس يورده ! وكانت تلك اللافتة الحديدية تحمل بالألمانية كلمة «روت شيلد، Rot Schild أى «الدرهم الأحمر» .

وعند وفاته ، كان أمستل ماير قد أنجب من زوجته جوتا Gutta عشرة أطفال نصفهم من البنين . وما أن مات الأب حتى قام الأبناء الذكور الخمسة بتحويل اسم محل العاديات الذى خلفه والدهم إلى إجازة رسمية مع تغيير الاسم . وبذلك أصبح أمشيل Amschel وسلمون Salmon وناتون Nanthon وكارل Karl وجيمس James يدعون روتشيلد بضم الاسمين اللذين على اللافتة وتعديل هجائهما . مما حوّل اللافتة المتواضعة من Rot Schild إلى اسم أغنياء العالم ، بعد إضافة حرف H وربط الكلمتين ليصبح لقب العائلة Rothschild !

إننا نستشهد بهذه الواقعة التي أوردها كوستون ؛ لأنها كانت متبوعة في كتابه بجملة لها أهميتها بالنسبة لأطروحة هذا البحث ، ألا وهي : «كانت فرنسا آنذاك خاضعة لسيطرة الماسونية ، وكان آل روتشيلد من أتباع هذا المذهب ومن حكامه في آن واحد» (33) .

إن أهم ما يلفت الانتباه في هذا الاستشهاد إنما هو تعبير الماسونية والصلة الحتمية بينها وبين اليهودية ، وهو ما سنتناوله بالتفصيل بعد قليل .

ومن ناحية أخرى ها هو رايمس يكتب عن هذه الأسرة قائلا : «منذ خمسين عاما وآل روتشيلد لم يكفوا عن تجميع كم من التراث الفنى ، بحيث إذا ما جمعنا مقتنيات هذه الأسرة في مختلف بلدان العالم نجد أنها فاقت أكبر متاحف العالم من حيث الكم والقيمة ، دون أن نأخذ في الاعتبار كل هذه الهبات الأسطورية التي تهديها هذه الأسرة إلى المتاحف والمكتبات العامة منذ قرن تقريبا» (121) .

وفى أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، تم إغلاق قاعات العرض اليهودية ، ووضعت تحت الحراسة أو أسندت إلى سيطرة يقومون بتصفية اللوحات المخزونة التى تركها التجار أمثال فيلدنشتاين ، وبرانهايم ، وروزنبرج ، وهيسيل ، وغيرهم . كما تم فصل نقاد الفن اليهود من الصحف ، واستبعاد الفنانين اليهود من صالونات العرض وقاعاتها .

وإذا ما بدت ملامح السيطرة اليهودية تنحسر إلى حد ما فى فرنسا ، فلقد بدأت تزدهر وتتألق فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما سبق أن أشرنا ، وهو ما سنتناوله تفصيلا بعد حين .

أما من الناحية السياسية ، فقد كانت الأحداث تأخذ مجرى آخر. إذ إن موافقة القانون الدولى على إقامة وطن لليهود فى أرض فلسطين ، والذي يرجع إلى اقتراح تيودور هرتزل Théodor Hertzl ، الذى قدمه عام 1897 فى المؤتمر المنعقد فى مدينة بازل بسويسرا ، والذي استمر من 29 إلى 31 أغسطس وحضره مائتا مندوب ، كما حضره مراسلون عن قرابة اثنتى عشرة صحيفة من بينها «لندن تايمز» و«نيويورك هيرالد» ، بجانب مندوبى الصحف السويسرية والعبرية ، وذلك كله لكى يحصل على ميثاق سياسى لعودة اليهود إلى أرض صهيون .

إن برنامج العمل الذى أقره المؤتمر الصهيونى الأول ، والذي انعقد فى الكازينو الخاص بمدينة بازل ، إنما يمثل القانون التنفيذى للصهيونية لخلق وطن لليهود فى فلسطين بتشجيع الاستعمار الاستيطانى بها . وقد أتاح هذا المؤتمر إمكان الاتفاق من حيث المبدأ ، بين جميع الصهيونيين . وفى نهاية هذا المؤتمر أعلن تيودور هرتزل قائلا : «ذلك هو ما أعدته الماسونية خفية ، منذ أجيال ، ولم تتخل مطلقا عن وعدها» .

وإذا ما كانت سنة 1879 تمثل تنويع اقتراح تيودور هرتزل بالنجاح ، وهو القائل «فى بازل قمت بتأسيس الدولة اليهودية» ، فإن ذلك يعنى بكل تأكيد أن السنوات السابقة على هذا التاريخ كانت تمثل فترة الإعداد والتخطيط ، وهى فترة شهدت على الصعيد الفنى ، ظهور مذهب التأثيرية ، الذى سبق أن أشرنا إلى استثمار صناع لعبة الفن الحديث له كنقطة تحول فى تاريخ الفن ؛ ليضعوا أول شرح

كبير في صرح التطور الطبيعي والمتسلسل لتاريخ الفن (*) .

وأثناء انعقاد المؤتمر الثالث والعشرين عام 1951 ، وهو أول مؤتمر ينعقد بعد فرض الكيان الاستيطاني الاستعماري العنصري الصهيوني في أرض فلسطين ، تم تعريف مهمة الصهيونية على الوجه التالي :

«أولا : تقوية دولة إسرائيل .

ثانيا : تجميع المنفيين إلى أرض إسرائيل .

ثالثا : المحافظة على وحدة الشعب اليهودي، (60) .

ولسنا في حاجة إلى القول - في ظني - بأن ذلك هو ما تم تنفيذه بدأب حتى يومنا هذا .

أما المؤتمر السابع والعشرين ، والمنعقد عام 1968 في القدس المحتلة ، فقد تبنى برنامجا جديدا ما زال ساري المفعول وينفذ بدأب هو الآخر ، ولكننا لا ننقل منه سوى البند الرابع الذي ينص على :

«تقوية هوية الشعب اليهودي عن طريق تشجيع التعليم اليهودي والعبري ، وعن طريق توضيح ويلورة التراث الروحي والثقافي اليهودي، (60) .

وما يعنينا هنا إنما هو هذه العبارة الغنية عن التفسير .

ومن ناحية أخرى ، فإن المؤتمر الصهيوني الأول - السابق الإشارة إليه - كان يرمى إلى تحقيق هدفين أساسيين ، هما : إقامة «وطن قومي» ، وخلق «منظمة صهيونية» . ولقد تم تحقيق المخطط السياسي الرائد والثقافي لهذه المنظمة الصهيونية بفضل أجهزة متخصصة ، تم إنشاء بعضها منذ أيام هرتزل عندما كان ما زال على قيد الحياة . ولقد قامت الوكالة اليهودية التي أنشئت عام 1929 بدور المنظمة الصهيونية ، واعتبرت إلى حد ما الجهاز التنفيذي وممثل الدائم لدى القوى المفوضة فيما بين عامي 1929 و1948، (60) .

(*) ولا نود الغوص والتشعب لتحليل تعبير «التأثيرية» Impressionisme في حد ذاته ، ولا البحث عن شخصية من أطلق هذا التعبير الذي يبدو وكأنه مصادفة ، بينما إذا ما قسمت الكلمة فسنري أنها مركبة من Impression أي ضغط ، وSionnisme أي صهيونية !

وها نحن نرى فى هذه الحقبة نفسها عديدا من الكتاب ، الذين يتبنون الفكرة التى طرحها سلين قائلا : «لقد قام اليهود بالإعداد لكل الحروب وليس الحرب الأخيرة وحدها (الحرب العالمية الثانية) ، وقد قام اليهود بتنظيمها مسبقا وكأنها نوتة موسيقية، (22) .

وفى عام 1942 كتب كوستان قائلا : «فى عشية هذه الحرب التى أرادها اليهود وأعدوا لها ، فإن نبوءة دستوفسكى قد تحققت ، إذ إن رجال المال اليهود أصبحوا يحكمون البلد كآسياد ، لقد كان البرلمان والإذاعة والصحافة تحت تصرفهم ، وكانت الحكومة خاضعة لأوامرهم ، وكانوا يستنون القوانين تلبية لأقل رغباتهم . ويقومون بتوقيع المراسيم بغية حمايتهم من هجمائنا .

إنه حتى الحادى عشر من شهر يونيو عام 1940 ، كانت الدولة خاضعة تماما تحت إمرة رجال المال اليهود ، ولم يكن من الممكن عمل أى شئ دون موافقتهم، (31) .

لقد كانت حكومة ليون بلوم تمثل فى الواقع ذروة الاستيلاء اليهودى على فرنسا . وها هو بيمجان يقول فى هذا الصدد : «إن الفريق الوزارى كان مكونا كله 100 ٪ من اليهود والماسونيين ؛ الأمر الذى يثبت بشكل واضح وملوس ، ولا يمكن دحضه ، سيطرة الصهيونية على إدارة شئوننا السياسية والاقتصادية والاجتماعية» (المافيا اليهودية الماسونية) (104) .

وحينما قام هتلر بكتابة وصيته عشية ليلة 28 29 أبريل ، قال عن الحرب العالمية الثانية : «لقد كانت الحرب مطلوبة ومثارة فحسب من رجال المال الدوليين ، سواء أكانوا يهودا أم يعملون من أجل مصالح اليهود» .

وحينما يئس اليهود العالميون عند وصول الحزب الوطنى الاشتراكى إلى السلطة ، قبل اندلاع الحرب ببضع سنوات ، وانتابهم الذعر من حملات التطهير العنصرية التى قام بها هتلر ، قرروا إعلان حرب لا هوادة فيها على ألمانيا الجديدة!

وفى الرابع والعشرين من شهر مارس عام 1933 ، نشرت جريدة «الدلى إكسبرس» ، التى كان يرأس تحريرها اليهودى بلومندال Blumendal ، ما طلب منه من إطلاع العالم بأسره على إعلان الحرب ، والذى وافق عليه اليهود بالأغلبية

الساقطة وهذا نص ترجمته :

«إن الشعب اليهودى فى العالم بأسره يعلن الحرب الاقتصادية المالية على ألمانيا» .

«إن ظهور رمز الصليب المعقوف لألمانيا الجديدة قد أيقظ رمز معركة يهوذا من جديد» .

«لقد اجتمع أربعة عشر مليوناً من اليهود على قلب رجل واحد لإعلان الحرب ضد ألمانيا» .

«إن السمسار اليهودى السمين سيترك داره ، والمصرفى سيترك بورصته ، والتاجر سيترك دكانه ، والشحاذ سيترك كوخه البائس ليقفوا جميعاً معاً ويحاربوا فى حرب مقدسة ضد رجال هتلر» .

وبعد عدة أسابيع ، نشرت المجلة الأمريكية العبرية ، (وهى مجلة اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية) ما يلى :

«إن هتلر يتأرجح على موجة سيغرق فيها .. لقد نسى مصير من يضطهدون الشعب المختار ولديه مثل من الفراعنة .. إن هذا الشعب يقف دائماً ثانية لبعض كعب الذين يودون سحقه» .

ويحدثنا بيمجان قائلاً عن هذه الفترة : «وعندئذ بدأت الصحافة والإذاعة ، والسينما ، والصالونات ، والبرلمان ، والأوساط الدبلوماسية ، ونقابات الموظفين والعمال ، اختصاراً ، فى كل مكان ، حيث كانت السيادة لليهود أو حيث كان لهم يد فيها ، لقد بدأت حملات من الأخبار الكاذبة والتلميحات الوقحة ، والأكاذيب والإثارة تهدف إظهار هتلر كشخص كله أطماع لا قلب له أو مبادئ» (104) .

أما هتلر ، فقد كتب عن اليهود فى كتابه الذى ظهر بعد وفاته فى نيويورك ، عام 1961 ، يقول : «إن هدفهم الأخير هو نزع الهويات ، والإذابة غير الشرعية بين الشعوب ، والعمل على تدهور مستوى أفضل الأجناس ، والسيطرة على ما تبقى منها بفضل انتزاع ممثلى الثقافات القومية ، ليحلوا محلهم أشخاصاً من بنى جلدتهم» .

أما فى كتابه الأول ، المعروف باسم «كفاحى» ، فقد كتب هتلر يصفهم قائلاً :

«إن اليهود يفسدون الطبقات الحاكمة بواسطة الماسونية ، بينما تقوم الصحافة بتحويل الطبقات الدنيا إلى بلهاء» .

لقد تناولنا هذه النقطة بشيء من الإسهاب ؛ لكى نرى كيف أن ما يقوله اليهود أو يتناثر من صنائعهم إنما يقومون بتنفيذه حرفيا . وكيف أنهم سيطروا على مختلف وسائل الإعلام إلى جانب الوسائل الأخرى ، وذلك فى توافق تام ، رأينا طرفاً منه بغية تحقيق الهدف الذى يحدونه مسبقا . ومن جهة أخرى ، فإن ذلك يكشف لنا أن ما يحدث فى المجال السياسى ، يحدث بالفعل فى المجال الفنى أو الثقافى أو الاجتماعى أو غيرها من المجالات .

وأيا كان الأمر ، فليس بجديد أن نقول إن هتلر كان مقتنعا تماما بأن اليهود ، فى كل مكان وفى كل زمان ، يعملون بغية الوصول إلى السيطرة على العالم . ولعل كراهيته العميقة لليهود ترجع إلى هذا السبب ، وهى كراهية غذتها الحركة الصهيونية ، وخاصة ذلك الكتاب المعروف باسم «بروتوكولات حكماء صهيون» ، والذى يمثل ذروة الفكر والتحريك اليهودى .

وها هو ديروجى Derogy ، فى كتابه «التاريخ السرى لليهود» يرى أن الحركة الصهيونية قد بدأت فى أواخر القرن الماضى بصورة أقرب للسرية ، فى أهم أماكن التجمعات للشعب اليهودى ، أى فى بولندا وفى روسيا القيصرية . ولقد ضحى الصحفى تيودور هرتزل ، المتنكر ، والذى يعمل مراسلا للصحافة النمساوية فى باريس ، بسرية الكيان ، حينما أرسى القواعد الأساسية للمنظمة الصهيونية⁽³⁹⁾ .

إن غرس مركز التجسس بالكيان الصهيونى فيما بعد ، والذى احتفظ باسمه «موساد» ، كان يعتمد على التواطؤ الإيجابى للهيئات وإدارات الخدمات فى البلدان التى ينفذون إليها ، والتى تعد بمثابة الأبواب الخلفية التى تساعد على الهجرة السرية . ويقول ديروجى : إن هذا التواطؤ كانت له عواقب وخيمة ، إذ إن «إسرائيل» لم تكن قد أعلنت كدولة رسمية بعد ، ورغم ذلك فقد كانت فى فرنسا عبارة عن دولة داخل الدولة،⁽³⁹⁾ .

وإذا ما كانت الحرب العالمية الأولى تمثل - كما هو معروف - هزيمة عسكرية وتضخما أتى على ألمانيا المهزومة كالوباء ، فقد تجاوز الموقف كل حد

عندما خرجت من هذه الحرب ، وعلى ذراعيها ستة ملايين عاطل ، بالإضافة إلى ما أصاب الطبقات الوسطى والفلاحين والعمال من بؤس وكآبة لا حد لهما .

وعندما بزغ نجم هتلر عام 1923 ، كان كل فكره قد تشبع بكثير من الحقائق التي تتصل بمعاداة السامية ، بل إن ذروة تألق الحزب النازي في عام 1930 إنما ترجع بخاصة إلى معاداته للسامية ، وفي عام 1933 عيّن هتلر مستشاراً للحزب ، ومنذ أوائل شهر أبريل من العام نفسه بدأ اضطهاده لليهود ، وفيما بين عامي 1943 و 1944 ازداد إيقاع المطاردة . وما أن حل خريف 1955 حتى كانت الحملة توشك على الانتهاء .

أما فيما يتعلق بمعاداة السامية ، فها هو كوهن Cohn في كتابه «تاريخ أسطورة . التآمر اليهودي وبروتوكولات حكماء صهيون» : يرى أنها ترجع أساساً إلى حقيقة «أن اليهود - كل اليهود بلا استثناء وفي كل مكان - يكونون جزءاً لا يتجزأ من التآمر ، الذي يهدف هدم بقية الإنسانية ، ثم السيطرة عليها تماماً» (27).

ويرى كوهن أيضاً أن ذلك العداء الأخرس ، الذي كان يغذى كيان النازي ضد اليهود ، إنما كان يرجع في واقع الأمر - كما سبق أن رأينا - إلى الكتاب المسمى : «بروتوكولات حكماء صهيون» ، وهو يرى أن هذا الكتاب : «يتضمن صراعاً لا رحمة فيه لعصابة من المتآمرين المتعطشين إلى السيطرة العالمية ، وإلى تكوين إمبراطورية عالمية واحدة قائمة على جماعة صغيرة من الرجال ، ولكنها جماعة شديدة التنظيم والانضباط ، روضت تماماً على احتكار أي مشاعر إنسانية وعلى التمتع بالنتائج الناجمة عن هدم الجماهير الشعبية وبؤسها» (27) .

لقد كان تداول هذا الكتاب يتم سراً عند بداية ظهوره ، ثم طبع وترجم إلى كل اللغات . وكانت الطبعة الألمانية التي ظهرت عام 1933 ، تتضمن نداءً ملحاً إلى كل المواطنين جاء فيه : «إن مهمة كل ألماني هي دراسة هذه الاعترافات البشعة لحكماء صهيون ، ومقارنتها مع حالة البؤس المرعبة التي وصل إليها شعبنا ، وأن يخرج بالخلاصة التي يفرضها الواقع» .

ومع انتشار هذا الكتاب في مختلف بلدان العالم ، بدأ اليهود يتذكرون ، لكي يواجهوا الهجمات التي تعرضوا لها ، ثم سرعان ما تم سحبه من الأسواق . إن ما

كتب حول حقيقة شرعية هذا الكتاب سواء أكان مؤيدا أم معارضا إنما يمثل كما هائلا من النصوص ويخرج عن إطار هذا البحث . ومع ذلك فإن شهادة رجل محكوم عليه بالإعدام ، بالإضافة إلى وقائع الأحداث التاريخية ، لكافية لحسم هذه الشرعية .

والواقعة التالية منقولة عن كوهن ، في كتابه السابق الإشارة إليه ، إذ يقول : «في عشية إعدام إندري Endre ، يوم 21 مارس 1946 ، كتب الرسالة التالية :

«إن كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» حقيقى لا ريب فيه . فالأساليب المطلوبة لإقامة مملكة عالمية لليهود موجودة بين أيديهم ، وسوف يحطمون كل ما يمكن أن يمثل عائقا لإقامة دولتهم العالمية . إن السياسة اليهودية ليست قائمة على إبادة كل من اختلفوا إنما فحسب ، وإنما على إبادة كل من قد يعترف شيئا أو كان من الممكن أن يعترفه !! (27) .

ولاشك في أن جذور أكبر موجة دمار ، على الصعيد السياسى أو الاجتماعى للحضارة الإنسانية ترجع إلى ذلك التاريخ المشؤم ، فى الثلاثين من شهر أغسطس عام 1939 ، عشية الحرب العالمية الثانية ، حينما اقترح أينشتاين ، ذلك اليهودى الذى لعنه هتلر ، على الرئيس روزفلت محاولة صناعة متفجر ذرى «أكثر قوة من أى سلاح أمكن لدولة أن تحصل عليه فى تاريخ البشرية» على حد قول راجون فى كتابه 39/34 ، ما قبل الحرب» (115) .

وسرعان ما حصل المعسكر الأنجلوسكسونى على دعامة التدمير الثانية ، ألا وهو الإيطالى اليهودى إنريكو فرنى Enrico Ferni ، أحد كبار علماء الذرة ، الذى رفض العودة إلى بلده إيطاليا ، بعد حصوله على جائزة نوبل فى ستوكهولم عام 1938 ، بسبب موجات معاداة السامية التى كانت قد بدأت هناك .

لقد كان معظم علماء الطاقة الذرية من اليهود . ونذكر منهم على سبيل المثال فيجمر Wigmer ، شيلار Szilard ، وتيلر Teller الذين هربوا من ألمانيا بعد أن لاح نظام الحزب الوطنى الاشتراكى . وكان قد سبق لهتلر بعد أن استولى على الحكم عام 1933 ، أن استبعد سبعة أساتذة من كلية العلوم فى جوتينجن ، التى كانت تعتبر بمثابة العاصمة العالمية لعلم الفيزياء فيما بين عامى 1920 و 1933 . إلا أن استقرار أينشتاين فى الولايات المتحدة الأمريكية قد أدى إلى جعل هذا البلد

البراجماتي مركزاً جديداً للأبحاث العلمية .

ونظراً لرغبتهم الشديدة في التخلص من اليهود بأى ثمن ، فقد كان أعضاء حكومة الرايخ الثالث يشجعونهم على الرحيل إلى أى بلد يريدونه حتى وإن كان رحيلهم إلى فلسطين ! ، إلا أنه ابتداء من عام 1937 فقد أعلنت وزارة الخارجية البريطانية عن المجازفة التى يمثلها «تكوين دولة يهودية ستزيد من نفوذ التأثير اليهودى فى العالم بشكل كبير» (60) .

ويقول كل من فرانك وهرشليكوفيتش فى كتابهما عن «الصهيونية» ، لقد اجتمع ستمائة نائب ، وكلهم تابعون لمنظمات صهيونية عبر الأطلنطى ، فى ربيع عام 1942 ، بغندق بيلمور ، مع بن جورديون ، لإقرار برنامج عمل يفرض فتح فلسطين فوراً فى وجه المهاجرين من أوروبا ، ونقل كل السلطات المتعلقة بالهجرة إلى الوكالة اليهودية ، وإنشاء دولة مستقلة لليهود فور انتهاء المعارك، (60) .

ولا نتعرض هنا لنشأة الكيان الصهيونى ولا إلى انتشار الصهيونية ، وإنما كل ما يعنينا فى هذا المقام إنما هو صلتها بالفن الحديث . وها هو كوهن ينشر نصاً كاملاً لخطاب أحد الحاخامات ، وذلك فى كتابه السالف الذكر «تاريخ أسطورة» ، والذى ننقل منه بعض الفقرات ، التى توضح إلى أى مدى تصل أبعاد النصوص التى أوردناها فى هذا الفصل ، وإلى أى مدى يصل ارتباطها بالفن الحديث :

«عندما سيتحقق لنا أن نكون المسيطرين وحدنا على كل ذهب العالم فإن القوة الحقيقية ستنقل إلى أيدينا ، وعندئذ سنحقق الوعود التى قيلت لأبراهام .

«الذهب هو أكبر القوى على الأرض ، والذهب ، الذى يمثل القوة ، والمكافأة ، وأداة الطغيان ، وكل ما يخشاه الإنسان أو يتمناه ، إنما هو اللغز الغامض ، وأكثر العلوم تأثيراً على العقل الذى يدير هذا العالم . وهذا هو المستقبل .

«واليوم ، فإن الأباطرة والملوك ، والأمراء الحاكمين غارقون فى الديون من أجل الحفاظ على الجيوش المتعددة الدائمة وصيانتها ، لكى يحافظوا على عروشهم الهاوية . إن البورصة تحدد وتنظم هذه الديون ، ونحن فى الغالب الأعم السادة المتحكمون فى البورصة فى كل مكان .

«إن الشعب اليهودي يجب عليه أن يوجه طموحه ناحية تلك الدرجة العليا من الحكم والسلطان ، التي ينساب منها كل تقدير وتكريم : وأضمن وسيلة للوصول إليها هي السيطرة التامة على كل العمليات الصناعية والمالية والتجارية» .

«وإذا ما كان الذهب بمثابة القوة العظمى في هذا العالم ، فإن الصحافة تمثل القوة الثانية بلا أدنى شك . لكن ، ما الذي تستطيعه هذه القوة الثانية دون الأولى ! وبما أنه لا يمكننا تحقيق ما تقدم دون مساهمة الصحافة ، فلا بد لأبنائنا من أن يرأسوا إدارة كل الصحف اليومية في كل البلدان . وما أن نصبح سادة الصحافة بشكل مطلق ، فإننا سنتمكن من تغيير الأفكار والمفاهيم من قبيل الشرف ، والأمانة ، واستقامة الخلق ، وأن نوجه أول ضربة قاضية إلى تلك المؤسسة التي يقدمونها حتى اليوم ويسمونونها الأسرة ، وأن نحقق تفتتها» (27) .

ودون أن ننساق إلى تناول هذا النص بالتحليل وإبراز كل حيثياته ، التي نراها من الوضوح بما لا تحتاج معه إيضاحا ، ها نحن نكتفى بالإشارة إلى أهم ما يتضمنه ، ألا وهو «أهمية الذهب» ؛ أي الشؤون المالية والاقتصادية والبورصة ، والصحافة ، والسيطرة على العقول والتفكير وتغيير أنسقة القيم ، وتفتيت الروابط الأسرية والقيم الإنسانية ، وبث الفساد ، والهدم والانحلال ؛ أي بعبارة واحدة : كيفية تدمير الحضارة والسيطرة عليها . وهو الهدف الذي تم تحقيقه بإسهاب بفضل تداخل وتضافر عناصر متشابكة لعب فيها الفن الحديث دورا رئيسيا ، وتسلبوا به لمسرح الواقع ، وما أن يسدل الستار وينكشف رافد من روافده حتى يبعثوا تيارا غيره ومذهبا آخر يحقق استمرار اللعبة التي لا ينسدل ستارها أبدا .

وقبل أن نقوم بربط كل العناصر المتداخلة في نسيج هذا الفصل ، بقى أن نتناول موضوع الماسونية ، الذي سبق أن أشرنا إليه في أكثر من موقع ، والذي تعددت الكتابات والأقوال - وضمنها كتابات لقيادات صهيونية - حول صلته العضوية باليهود والأهداف الخفية للتدمير والهدم .

الماسونية :

إن النصوص الخاصة بالماسونية تمثل كما هائلا من الكتابات فى إجمالها . والنصوص التى تتناول الصلة بين هذا المجال واليهودية تمثل كما لا يقل عنه ضخامة . وما كتب مؤيدا أو معارضا يتراكم ويتداخل بشكل يصعب فض تشابكاته أحيانا ، ومع ذلك فإن الخطوط العريضة التى تكوّن عناصر هذا الجزء من البحث والذى بدا كخاطرة مرهصة فى بدايته . ها هى تزداد وضوحا ؛ إذ إن المعطيات التى تربط الماسونية باليهودية بـ «بروتوكولات حكماء صهيون» (الأفعال لا ذلك الكتاب الذى كثرت الأقاويل حوله) بالفن الحديث أصبحت واضحة المعالم .

يبدو الفكر الماسونى منذ الوهلة الأولى وكأنه ذو نزعة إنسانية واسعة المدى ، لكن ما أن يتعرض للسياسة حتى يتخذ شكلا مخالفا تماما ؛ مما يجعله يبدو وكأن له وجهين مختلفين متناقضين : أحدهما يتعلق بكل ما هو نبيل ومتعال وإلهى ؛ والآخر يلجأ إلى أكثر الدسائس دناءة وتلطixa بالدماء . وكل الأحداث الجارية على المسرح السياسى والاجتماعى للعالم تؤكد هذه الحقيقة ، وتبين عن وجه الماسونية القبيح .

إن الفكر الماسونى الذى يتطلع زعما إلى تحقيق نزعة إنسانية جديدة على المستوى العالمى للكون ، إنما تتلخص معاييرها فى النقاط التالية : الحقيقة ، المطلق ، التوحد . أما دعائمه الأساسية فهى : الإيمان بوجود إله واحد ، هو المهندس الأعظم لهذا الكون ، وفى خلود الروح ، والبعث ، والحياة الآخرة ، وهى معتقدات تبجلها مختلف الديانات بصورة أو بأخرى . لكن ترى إلى أى مدى اختلفت معاول الهدم فى طيات هذه الكلمات خلف نقاط أحرفها ؟ سنأخذ مثلا بسيطا لتعبير «المهندس الأعظم» والذى تشير «الموسوعة الكبرى للماسونية» (84) ، إلى أنه لا يعنى «خالق العالم» وإنما «منظمه» .

وهكذا يسمح التعبير لمن يؤمنون بالله أن يروا فيه رمز الألوهية ، ومن يؤمنون بالرب - مهما اختلفت التفسيرات حوله - أن يروا فيه رمز الخالق ، أى كانت صفاته ، ومن يؤمنون بالروحانية أن يروا فيه رمز العقل الأعظم والروح المحرك للعالم ، ومن يؤمنون بالفلسفة وينشغلون بالنزعات الإنسانية أن يروا فيه دينا بلا رب ، كرمز للضمير الجماعى للإنسانية والمنظم الأساسى الذى يوجهها ناحية التقدم .

وهكذا ، فإن رمز المهندس الأعظم ، يشمل جميع الصفات التي تسمح لمختلف العقائد أن تفهمها كما تشاء ؛ إذ إنه صورة فضفاضة ، اختير بعناية لتتعدد معانيه ومعطياته . وهكذا يصبح التعبير أداة فعالة في إيجاد رابطة متوهمة - وإن كانت متحققة بالفعل بين كل معتنقي الماسونية ، كل وفقا لفهمه الذاتي - عبر تلك العبارة الماسونية ، التي أوردناها مثالا يفسر انتشار الماسونية في مختلف بلدان العالم والأفراد مهما اختلفت معتقداتهم واتجاهاتهم ، وبلا حساسيات دينية يحاول التعبير أن يتجاوزها من ناحية الشكل ؛ ذلك أن هذه المثالية الفضفاضة الشكلية لم تحجب عن العيون المبصرة تلك الأهداف الخفية التي تتناقض مع التعبيرات المثالية شكلا ، والتي تتناقض مع الواقع الفعلي ، الذي ينكشف تستره من حين لآخر في هذا البلد أو ذاك في هذا المحفل أو غيره ؛ مما يرتفع بأصابع الإدانات الموجهة والفاضحة للماسونية كنتيجة حتمية لانكشاف زيف هذه الأخيرة . وما أكثر الصعاب التي تعرضت لها الماسونية سواء من داخلها أو من الخارج ، وكيفنا - في ظني - مجرد مثال لهذه المشاكل من خلال موضوع السلالة والديانة وصلتهما باليهود وأهدافهم الخفية .

وها هو كلافيل Clavel ينشر نصا له مغزاه الواضح في تقويمه الماسوني الذي يرجع إلى عام 1846 ، يقول فيه : «إننا نعلم أنه بدءاً من عام 1815 فإن المحافل البروسية تستبعد تأهيل اليهود للدخول في خفايا الماسونية . وهي تستبعدهم حتى من مجرد المساهمة في أعمالها ، وهي مشكلة قد تم حلها إلى حد ما في يومنا هذا ، وإن كانت المحافل التي تزعم أنها مسيحية ، تختبئ خلف هذه الكلمة ، يخفي أتباعها - في براءة - عداؤهم الدموي ، وذلك لرفضهم اليهود بينهم . إن هذه المحافل تتصرف بالطريقة المعادية نفسها ، التي تعتبر مناهضة للماسونية ، والتي تستخدمها المحافل الأمريكية التي توصل أبوابها في وجه السود .

وما أكثر الأقوال المتشابهة التي يدسها اليهود في الدراسات التي تتناول المساونية حتى ويوهما الجميع بأنهم لا علاقة لهم بها . إلا أن جمهرة من الدارسين الأمناء وحشدا من مختلف النصوص يرى أن مشكلة اليهود تبدو أكثر عمقا مما نتخيل ، ذلك أن اليهود ليسوا مجرد أتباع للماسونية ، وإنما هم أجدادها في الواقع ومؤسسوها وأصل بلائها ! ومما يثير الفضول ، وقد يؤدي إلى لبلة ذهن القارئ هذا الحشد الهائل من النصوص المتناقضة أو المتعارضة ، التي يشير

بعضها إلى صلة اليهود بالماسونية ، بينما يعارضها البعض الآخر . ومع ذلك ، فإن الكتابات المؤيدة لهذه الصلة تثبت ما تقوله مدعما بالوثائق . ها نحن نذكر منها على سبيل المثال ما يقوله الحاخام وايز إسحق Wise Issac : «إن الماسونية مجرد مؤسسة يهودية ، نجد أن تاريخها ودرجات الترقى بها ، وكلمات السر المستخدمة فيها ، بل وكل التفاسير ، إنما هي يهودية من البداية حتى النهاية، (يهود أمريكا، 1886) .

وها هو سليلين يورد في كتابه عن مجلة «الحقيقة الإسرائيلية» : «إن روح الماسونية هي نفسها روح اليهودية في أكثر معتقداتها عمقا ، إنها الأفكار نفسها ، واللغة نفسها ، إنها منظمتهم» (22) .

وقد نشر الحاخام بنياموزيغ Benamazegh في كتابه عن «إسرائيل والإنسانية» : «من المؤكد أن علم اللاهوت الماسوني ليس غير الديانة اليهودية ويتفق تماما وعلم تفسير العهد القديم» .

أما المجلة الماسونية المعروفة باسم «الرمزية» فقد نشرت عام 1926 النص التالي : «إن أول ما يقع على عاتق الماسوني إنما هو تمجيد الجنس اليهودي ، الذي حافظ على مستودع العلوم الإلهية بلا تحريف ؛ لذلك ستعتمدون عليه لإلغاء أى حدود» .

ولقد كتب الأخ الماسوني اليهودي عمانويل أريه Emmanuel Arié (وهو المستشار الفيدرالي للمحفل الأعظم) . إلى لويس دوانيون Louis Doignon في خطابه المؤرخ في 29 أغسطس عام 1938 ، وذلك بمناسبة المحاولة المزعومة لاستبعاد اليهودية عن الماسونية قائلا : «وإن كان الأمر كذلك فلا بد لنا من استبعاد كل الطقوس ، من الدرجة الأولى حتى الرتبة الثلاثية ، إن كل رموزنا يهودية . لقد ولدت يهوديا ، لذلك فأنا ماسوني» .

ومرة أخرى ها هم يزعمون أن هناك محاولة لاستبعادهم عن أصل من أصولهم ، وكأنهم أبرياء من تأسيس الماسونية ، وها هم - كعادتهم - إذ يكذبون يتعمدون طرح الرأى ونقيضه ؛ فيفضحون أنفسهم لمن يعرف أساليبهم . وفى كل الأحوال لا نظن أنه بإمكاننا أن نغفل ذلك التساؤل الذى يجب عن نفسه : كيف يمكن إنكار الأصول اليهودية للماسونية؟! خاصة عندما نعلم أن حيرام Hiram ،

مؤسس الماسونية وأول سادتها الكبار ، هو الذى بنى المعبد الشهير فى القدس أيام الملك سليمان ؟ وما من أحد يجهل التبجيل الذى يحصل عليه كل من ملك اليهود الشهير ومهندسه الأعظم فى كل المحافل الماسونية ، وما من أحد يجهل الأضواء السبعة التى تمثل الأعضاء السبعة ، الذين لا يمكن للمحفل أن يجتمع بغير اكتمال عددهم . هذا الرقم نفسه «سبعة» يمثل مدة بناء المعبد ، الأمر الذى يضافى عليه اليهود أهمية بعينها .

وأيا كان الأمر ، فمن الواضح الجلى أن اليهود هم دون غيرهم من نشر الماسونية فى أوروبا . ويقول كوستون بهذا الصدد : «نظراً لانعزالهم فى الجيتو ، فلم يكن بوسعهم أن يعملوا بمفردهم . ولكى يتمكنوا من بث سمومهم الماسونية إلى الشعوب الأوروبية ، فقد كان لابد لهم من حقبة طويلة ؛ لذا فقد اختاروا إنجلترا . ولم إنجلترا بالذات ؟ لأن العمل المطلوب إنجازَه كان ضخماً ، والوسيط الذى سيستخدمونه لابد أن يكون قوة حقيقية فى العالم المسيحى ، وأن تحركه رغبة جامحة فى السيطرة مثله مثل إسرائيل» (حينما كانت الماسونية تحكم فرنسا) (33) .

ولو رجعنا للتتبع التاريخى ، فسنرى أن تاريخ الماسونية الحديثة يرجع إلى عام 1717 عندما تكون أول محفل ماسونى فى إنجلترا . وهما هو راجون الذى يعد من أكبر مؤرخى الماسونية فى القرن الماضى يقول فى عام 1853 : «تعد إنجلترا بمثابة المركز الأساسى الوحيد الذى تفشت منه الماسونية ، أى صحوة الفلسفة القديمة السرية للطقوس القديمة ، وانتشرت فى كل اتجاه ، لتستقر لدى شعوب العالم» .

ولو أننا تتبعنا تاريخ الماسونية فى بعض من بلدان أوروبا تلك التى تفشت فيها دعاوى الفن الحديث ، فسند أن تاريخها فى ألمانيا يحيطه الغموض . إلا أن إنشاء المحافل الماسونية كان يتم فى كل مكان وبسرعة فائقة ، فى الوقت نفسه الذى كانت فيه ألمانيا فى قمة عصر نهضتها، وهى الحقبة المسماة Aufklärung ، تلك التى تعادل عصر التنوير فى فرنسا (وخاصة فترة فريق عمل الموسوعة الكبرى) ، والتى استمرت حتى عام 1933 ، حينما بدأت حملة هتلر والاشتراكية القومية ، وصبت جام غضبها على اليهود ، مستندة إلى الأدوار التخريبية التى كانوا يقومون بها ، والتى أمدت «الفوهرر» بتبريراته المتصاعدة مع النزعة القومية

التي كرهت سمومهم . ومن المعروف أن المد الماسوني قد عاد لألمانيا مع نهاية الحرب وهزيمتها ، التي دفعت ثمنها من روحها وفرنكاتها معاً .

أما في أمريكا ، فإن القوى الماسونية ترجع هناك إلى بدايات تأسيس الجمهورية . ويرى بلونكار Ploncard في كتابه «الماسونية عدو أوروبا» : «إن كل زعماء حركة التحرير كانوا ماسونيين ، وعلى رأسهم واشنطن ، ومنذ ذلك الوقت ، فإن كل رؤساء الولايات المتحدة هم من الماسونيين .. إن قوى المحافل الماسونية في الولايات المتحدة الأمريكية لرهيبية . فمن بين أربعة ملايين ماسوني متناثرين في العالم أجمع ، فإن بالولايات المتحدة وحدها ثلاثة ملايين ونصف المليون . كما يوجد بها 49 محفلاً ، واثنان من المجالس العليا ، غير تلك المحافل الخاصة بالملونين من الزنوج ، وطريقة بنائى بريث B'nai B'rith لليهود وحدهم» (110) .

وها هو بول نودن Paul Naudon ، كبير مؤرخى الماسونية ، يقوم بتصحيح هذه الأرقام فى عام 1965 (بعد كتاب بلونكار بثلاثين عاماً) ، وذلك فى كتابه عن «الماسونية» حيث يقرر : «إن الماسونية تضم اليوم حوالى خمسة ملايين عضو منتظم موزعين فى العالم أجمع ، منهم أكثر من أربعة ملايين فى الولايات المتحدة الأمريكية» (95) .

ومن الملاحظ أن الدرجة الثالثة للماسونية ، والمعروفة باسم «الماسونية الكونية» عبارة عن محفل واحد فقط فى العالم ، ومقره فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما أنه لا يقبل فى عضويته غير اليهود .

أما عن فرنسا ، فها هو بيمجان يرى أن الماسونية تفتشت فى فرنسا منذ الفترة التى دخل فيها لويس السادس عشر باريس ، وسط الانقراض الملتهبة لسجن الباستيل ؛ إذ إنه أثناء هذا الاحتفال كان على لويس السادس عشر أن يتوجه إلى مبنى البلدية . وما أن بدأ يصعد السلم حتى قام المحيطون به - وكلهم من الماسونيين - برفع سيوفهم إلى أعلى ، مكونين قبة من الصלב ليمر الملك من تحت قوسها قبل أن يصل إلى باب المبنى .

وهذه القبة الرمزية المصنوعة من الصלב بالسيوف المتلامسة ، تعد تكريماً يخص به الماسونيون كبار الشخصيات فى معابدهم ، أو حينما يريدون تبجيلهم فى مناسبة ما . ومع ذلك ، فلقد كان لهذا الحفل معنى آخر ، على حد قول بيمجان فى

كتابته «المافيا اليهودية الماسونية» ؛ إذ إنه «يعنى سيطرة الماسونية العليا على الحكومة الفرنسية في كل حين» .

وهو ما أشار إليه بول نودون قائلاً : «لقد حصلت الماسونية في فرنسا ، عشية الثورة الفرنسية ، على مكانة كبيرة وسيطرة واسعة . فلقد غزت على التوالي مختلف الطبقات الاجتماعية : طبقة النبلاء ، والجيش ، والبرلمان ، ورجال الدين ، والأدباء ، والبورجوازية والطبقات الدنيا» (95) .

إلا أن الجماهير العريضة في فرنسا لم تسمع عن الماسونية إلا عقب عدة فضائح مدوية ، منها انهيار العملة عام 1882 ، والذي تبعته بعد ذلك بعدة أشهر فضيحة بانما ، التي عرف الرأي العام منها أسماء سلمون ريناخ Salmon Reinach وأرتون Arton ، وكورنيليوس هرتز Cornélius Herz ، وكلهم من اليهود . ثم تلا ذلك قضية دريفوس Dreyfus ، عام 1894 ، ثم فضيحة الملفات عام 1904 ، التي تثبت التدخل الرسمي للماسونية في الدولة والجيش . وفي عام 1933 كانت هناك قضية ستافيتسكي Stavitsky . ولا تتوقف القائمة بمقتل السلطان عبد الحميد ، الذي اغتالته الصهيونية والماسونية ؛ لأنه رفض بيع الأراضي الفلسطينية لليهود . ولا نقول شيئاً عن الماسونية ونابليون بونابرت .

وكلها فضائح معروفة التفاصيل والمغزى ، وتقع مسئوليتها المباشرة على الماسونيين ، ولم يستطع إنكارها أى مؤلف متعاطف مع الماسونية ، وإن نحوا إلى إغفالها ، وإن كانت كلها مدونة بتفاصيلها في «الموسوعة الكبرى للماسونية» وغيرها ؛ مما أدى بعدد من المؤرخين إلى القول تضامناً مع مارييل Mariel : «إنه منذ دخول الماسونية فرنسا وهي تلعب دوراً دبلوماسياً في الخفاء لكنه شديد الأهمية» .

وهو في مؤلفه «الماسونيون في فرنسا» يقول : «إنه في عام 1930 تقريباً ، أصبحت جماعة الماسونية أغنى ملاك الأراضي في أوروبا ، في وقت جد خاطف . كما أصبحوا في الآن نفسه أقوى حائزي الذهب ، وسرعان ما توغل رواد المعابد هؤلاء ليستحوذوا على جماهير الشعب ، أسوة باستحواذهم على الصيارفة والبارونات . وقاموا بإنشاء البورصة ، وإعطاء خطابات الضمان ، والترويج لصناعات جديدة ؛ أى إنهم من الناحية العملية يسيطرون على التجارة ، والزراعة ،

والصناعة التابعة للمسيحية، (86).

ولا نظن أن مثل هذه النصوص تحتاج إلى تعليق حول ذلك التغفل المقيت الذى أفسدوا به الواقع الاجتماعى الاقتصادى السياسى ، لا فى فرنسا وحدها بل فى كل البلاد تقريبا (إذ إن ما نشير إليه من كتابات مجرد نموذج ، لا نحب أن نشغل القارئ بأكثر منه رغم وفرة فيما يتصل بكل أنحاء العالم) .

وفى 13 أغسطس عام 1940 ، أصدر الماريشال بيتان قراره بإغلاق كل المحافل الماسونية فى فرنسا مع مصادرة ممتلكاتهم ، وهو القرار الذى هلت له الأمة الفرنسية بأسرها ، ويشير بذاته إلى الروح العدائية التى بثتها الماسونية فى نفوس الجماهير . مما حظى معه قرار بيتان بفرحة غامرة ، تعكس دلالات لا تحتاج إلى فطنة لنعرف محتواها ، وإن كان علينا أن ندرك فى الوقت نفسه - مع كوستون - أنه «لا بد أن يكون المرء ساذجا لكى يتصور أن أشخاصا كانوا يمثلون كل شيء فى الجمهورية الثالثة ، سيخضعون فى يوم وليلة ويقبلون ألا يصبحوا شيئا فى الدولة الفرنسية» (33) .

ولقد كان استتباب الأمر لليهود والماسونيين فى فرنسا من القوة بحيث كتب مارييل ، مؤكدا أن معظم المؤسسات والمنظمات كانت تابعة للماسونية ، بل إنه يرى: «أن هيئة الأمم كانت أساسا منشأة ماسونية ، وأول رئيس لها كان الماسونى الفرنسى ليون بورجوا Léon Bourgeois . ورغم كل شيء ، فإن «هيئة الأمم ، مثلها مثل «اليونسكو» ، فإن معظم أعضائها فى كل الأنحاء من الماسونيين» (86) .

لقد كان النفوذ الاقتصادى اليهودى الماسونى فى فرنسا من الخطر ، بحيث دفع عديد من الكتاب ليدقوا الأجراس منبهين وكاشفين خبايا هذا النفوذ ، الذى أطلقوا عليه مافيا المال . ويتحدث بيمجان - على سبيل المثال - عن قوة البنك اليهودى الماسونى المعروف باسم كوهن لوب وشركاه Kohn . Loeb & CO ، والذى كان بمثابة العمود الفقرى للاقتصاد الدولى فى النصف الأول من هذا القرن : «لعلنا ندرك الموقف حين نعلم أن أصحاب أكبر مستودع للذهب كان لهم موضع قدم فى كل معسكر أثناء الحرب ، وها هما الماسونيان اليهوديان ماكس وبول فاربورج Max & Paul Warburg شقيقا فليكس فاربورج ، كان أولهما يشغل منصب المستشار المالى الأول المقرب للملك غليوم الثانى ، بينما كان ثانيهما يقوم

بدور كبير أمناء الخزانة فى الولايات المتحدة الأمريكية أيام الرئيس وليس، (105) .

إن هذا البنك ، أو بتعبير أدق هذا الكيان المالى لم يكن - فى الواقع - إلا اتحادا مصرفيا ضخما، يضم أكبر خمس مؤسسات مالية ، بالإضافة إلى مائة واثنى عشر من أقوى البنوك، إلى جانب عديد من التكتلات الصناعية والمالية فى مختلف أنحاء العالم . إن رأس مال هذا الاتحاد الاحتكارى وفقا لما يقدمه بيمجان «يرتفع إلى اثنين وعشرين ملياراً ومائتين وخمسين مليون دولار» . وحينما نعلم أن بيمجان كتب مرجعه عن «المافيا اليهودية الماسونية» فى عام 1934 ، فإن قيمة المبلغ تأخذ بعدا مختلفا ؛ مما يدفعنا للتساؤل مع بيمجان : «ترى كم من الضمانات الفردية أو الجماعية يمكن إغراؤها بمثل هذا المبلغ الرهيب !! وكم هى القلاقل والمظاهرات والثورات والانقلابات والحروب التى يمكن إثارتها» ؟! (105) .

إن هذه القوى الهائلة التى لا يمكن إغفالها لليهودية الماسونية ، سرعان ما أدت إلى موجات عدائية اتخذت أشكالا مختلفة عبر التاريخ . ولربما اندلعت هذه الموجات من كثرة ما كشف عنه الواقع من فضائح ، ومن كثرة ما أثير حولها من غموض وخفايا وألغيب .

ويرجع مارييل بداية هذه الموجات العدائية إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى سادت فيها الفكرة القائلة : «بأن الماسونيين ليسوا إلا العرائس التى يحرك اليهود خيوطها» . وها هو يؤكد بعدها بقليل : «إن الموجة المعادية لليهود الماسونيين وجدت ما يدعم مخاوفها فى الكتب المعروفة باسم «بروتوكولات حكماء صهيون» المنشور عام 1864 (86) .

ولقد اتخذت هذه الموجة المعادية أعنف صورها فى تيار الفاشية والنازية . أما فى فرنسا فلقد كانت فترة ما بين الحربين هى الحقبة التى شهدت ذروة هذا الهجوم . وعلى العكس من ذلك ، فلقد كانت موجة معاداة اليهودية الماسونية فى أمريكا عنيفة فى البداية ، ثم أخذت تخبر رويدا حتى بدايات الحرب العالمية الثانية ليعلو أوار لهيبها من جديد . وأيا كان الأمر فليس هناك بلد آخر قد تحالفت فيه الماسونية واليهودية بهذه الصورة العضوية الانصهارية .

ولقد أدت كل هذه التداخلات إلى أن يجمع عديد من الكتاب على أن «الماسونية تمثل أداة سياسية واقتصادية واجتماعية لمافيا دولية» ، دونت أهدافها

المعتوهة في بروتوكولات حكماء صهيون». ثم يورد كوستون في الصفحة العشرين من كتابه فقرة لها أهمية خاصة من ذلك الكتيب الذى يقده الماسونيون: «إن هدفنا هو: القوة والدهاء؛ فالقوة وحدها هى التى يمكنها الغزو والانتصار فى السياسة خاصة إذا ما كانت مختبئة فى المهارات اللازمة لرجال الدولة.

«لا بد من أن يكون العنف هو المبدأ، والدهاء والخدع هما القانون تجاه الحكومات التى لا ترضى بوضع نتائجها تحت أقدام أجهزة القوى الجديدة.

«إن الشر هو السبيل الوحيد إلى الخير. لذلك يجب ألا نتردد أبداً فى استخدام الفساد والخيانة حينما يمكنهما معاونتنا على تحقيق أهدافنا. ففى السياسة لا بد من الاستيلاء على ملكيات الغير بلا تردد، إذا ما كان ذلك سيؤدى إلى حصولنا على السلطة وعلى إخضاعه» (33).

وها هو يقول بعدها: «إن الجمعية السرية الماسونية تلعب دوراً أساسياً فى السياسة الدولية منذ أكثر من قرن.. فالحرب، والثورات، والأزمات الاقتصادية إنما هى من صنعها. إنها هى التى أدت إلى اندلاع حرب 1914 (الحرب العالمية الأولى)، بقيام أحد أتباعها باغتيال أرشيدوق النمسا فى مدينة ساراييفو. وهى أيضاً التى أشعلت المنازعات فى أوروبا، بفضل معاهدة مضحكة وبشعة فى آن واحد، وذلك بغية أن تثير صراعاً جديداً كانت تنوى الاستفادة منه.

أما جوليفيه Jolivet، مؤلف كتاب «مسئولية حرب 40/39»، فهو يرى: «رغم أن همة فرنسا قد خبت طوال السبعين سنة الماضية، وعانت من عدم المسؤولية البرلمانية، فإن هناك قوى ومنظمات أخرى قد استطاعت، على العكس من ذلك، أن تطور أساليب تحركاتها؛ ونعنى التحدث عن الماسونية واليهودية؛ أى عن عنصرى الانحلال الفرنسى» (73).

لقد أوردنا فى الصفحات السالفة بعضاً مما رأينا أنه يشير إلى ذلك الترابط الحتمى والعضوى بين الماسونية واليهودية، متجاوزين ذلك الجدل حول «بروتوكولات حكماء صهيون»، والذى يعتبره البعض أهم النصوص الكاشفة لهم. ولكننا أثّرنا أن نرجع - كما رأينا - إلى جمهرة من الكتاب يقررون وقائع دامغة تكشف عن عمق الرابطة، التى نرى أنها أقوى من كل تصور، بل هى أكبر من حدود هذا البحث ولم نتناول من هذه النصوص إلا ما له صلة بالفن بعامه، وكان

مؤثرا على حركة تطوره ، وأسس للفن الحديث بخاصة ، وهو ما نؤثر الحديث عنه بعد هذه الصفحات الكاشفة عن الأواصر والنشأة .

لقد جاء في «الموسوعة الكبرى للماسونية» عند مصطلح «الفن» هذا الهامش التفسيري : «إن إدخال مفهوم الفن - وأحيانا الفنون - في الطقوس التي تؤهل (الماسوني) للترقى لدرجة رفيق ، إنما هي حديثة نسبيا . وهو مصطلح لا يوجد في غير الطقوس الفرنسية . أما في المحافل الأخرى فإن المهندس الأعظم يحل محل الفن» (84) .

ويقول بلانتاجينيه Plantagenet الذى صك تعريف مصطلح «الفن» فى هذه الموسوعة ، موضحا فائدة الفن ودوره الاجتماعى قائلا : «إن الفن يعطى للإنسان الرغبة فى المثل العليا والشعور بها ، إنه يرفعه إلى أعلى من ذاته ويجعله يشعر بأنبيل المشاعر . وبفضل الفن استطاعت الديانات المختلفة أن تستحوذ على عقول أتباعها ، ويفضله أيضا يفتح الناس قلوبهم لأسمى المشاعر .. الفن إذا بمثابة الشرط الأساسى لتطور الإنسان وتقدمه ؛ لتفسح له أكبر المجالات فى أعمالنا وفى تنشئة الأجيال الجديدة . والغريب هنا وعيهم بالدور والرسالة والمعطيات ، ولكنهم استثمروا هذا كله للأهداف الأخرى التى رأينا طرفا منها .

وها هو بول نودون ، فى كتابه عن «النزعة الإنسانية للماسونية» يقول : «إن الصلة بين الفن والماسونية تبدو واضحة منذ البداية ، إذ إن الاثنين مرتبطان بشكل طبيعى .

إن الصلة بين الفن والماسونية تتعدى بكثير تلك الطقوس التأهيلية للماسونية» (94) ؛ مما يدفعنا إلى القول بأن الفن فى مجمله ، وبخاصة فى دوره الاجتماعى ، ليس بغريب على الماسونية . وإنما يمثل بالفعل إحدى دعائمها ، بمعنى أن الماسونية مثلها مثل الكنيسة فى عصر النهضة ، قد لجأت إلى الفن بكل مجالاته ، لخلق ذلك التجاوب والتحاور مع الجماهير العريضة ، لتتمكن من تحقيق غاياتها على الصعيد الاجتماعى المحلى والعالمى . بدليل أننا نقرأ فى «الموسوعة الكبرى للماسونية» ما يلى : «إن كلا من هيجيل ، وجوته ، وهاردنبرج ، وفريدريك ليست ، فيخته ، كانوا فى غاية الأهمية ، ليس بالنسبة للماسونية التى انضموا إليها فحسب ، وإنما لأنهم قد ساعدوا على نشر الحكمة والحب الماسونى

خارج أبواب معابدهم بفضل أعمالهم ، وأفعالهم ، وطباعهم ، والمثل الذى ضربوه ، دون أن يعى الجمهور أى شىء ، (84) .

وها نحن نقرأ فى الموسوعة نفسها كيف أن هانز كرستيان أندريسن Anderson الروائى الشهير ، الذى جند حديثاً للماسونية ، لم يكن سوى الأديب الذى تم اختياره بعناية لصياغة النص الأساسى ، الذى يحدد مصير عملية بعينها كانت تبدو صعبة التحقيق ، وتبعا لنجاحها كان سيتم تغيير وجه «المهنة» لترقى إلى رتبة «كهنة» . وها نحن نطالع اسم هنرى أرمسترونج «الموسيقى الشهير فى مجال الجاز ، والذى كان عضواً فى المحفل المعروف باسم مونتجومرى رقم 18 فى نيويورك» - وإن لم يشيروا إلى مهمة بعينها قام بها .

ودونما إبحار فى لجج قوائم مذهلة من أسماء المؤلفين والفنانين والموسيقيين والفلاسفة وغيرهم ، الذين تم تجنيدهم ، والذين لعبوا دوراً محدداً فى انتشار الماسونية وفى تنفيذ مخططاتها ، وإن كان بعضهم على وجه اليقين بكل حسن النية ودونما معرفة بخفايا اللعبة وأهدافها المدمرة التخريبية .

لقد لجأت الماسونية التى خرجت - على وجه القطع - من حضن اليهودية كأداة عنكبوتية تفترس فى شباكهها العقول وتزين بالشعارات مسرياً ، ما أن يقع المرء فى براثنه ، حتى يصبح حلقة أو ترساً فى العجلة الدائرة التى تقضى على كل القيم . وقد قامت الماسونية بدور محدد فى الفنون ، ولعبت دورها بمهارة لتدعيم الفن الردى الذى يفصل الفن عن دوره فى الحياة ، ويحوّله إلى لعبة مضللة للجماهير ، يهرب بها من الواقع إلى أطر زائفة مدمرة للحضارة والإنسان معا ، ولدور الفن وتواصله ورسالته للناس وبالناس ، وتسود قوانين محرّكى خيوط اللعبة لحساب أهدافهم ، التى تضمن بجانب دمار الآخرين ثراء خزائنهم .

وبالها من مفارقة لم تدع وسيلة إلا سلكتها حتى يغشى العيون الدوار ، وعندها - عندما يحاولون أن يمدوا البصر للأمام ، للوجود الملئ حامل المعنى - ينتهى بهم المطاف لمسيرة المؤلف ، ويضيعون فى زجاجة اللعبة المصنوعة وأدواتها المحكمة الصنع من إعلام بكل جنبااته ونقاذ مشترتين وماسونية براقة وبهود متخفين وراء ذلك كله ، وبالها من مطارق تدمر الروح والضمير والقيم المستقرة والإنسان والأمل والغد .

بقى لنا أن نتعرض للدور الذى لعبته الولايات المتحدة الأمريكية فى الفن الحديث قبل أن ننهى هذا الفصل عن «التدمير بالمطرقة» .

الولايات المتحدة الأمريكية :

إن قصة الولايات المتحدة الأمريكية والفن الحديث لأكثر تعقيدا مما تبدو للوهلة الأولى ؛ إذ إنها تتطلب دراسة التطور التاريخى لذلك البلد ، وفكرة السيادة الأمريكية ، والتوسع الأمريكى ، والوجود اليهودى هناك ، ومن ثم دور الدولة اليهودية الماسونية والفن الحديث .

إن الظروف الصعبة والنشأة الوعرة التى أحاطت بميلاد أمريكا ، لم تكن لتترك الفرصة للمستعمرين المهاجرين كى يهتموا بالمسائل الجمالية ؛ ونظرا لأن هؤلاء المستعمرين المهاجرين كانوا يتكونون من أجناس متفرقة من أولئك الذين انتزعوا ليغرسوا من جديد فى الأرض الجديدة . فلقد تكونت أمريكا كلها بلا أى جذور تاريخية ، وبالقالى بلا أى تراث ثقافى أو فنى ، ولسنا فى حاجة لذكر أنبنى الفوقية ، إنما تقوم على قوى إنتاج فى البناء التحتى .

ومنذ الرابع من شهر يوليو عام 1776 - وهو تاريخ تكوين الولايات المتحدة الأمريكية - وحتى مطلع القرن العشرين كان الفنانون الأمريكيون فى حالة تخلف يرثى لها . وتزداد الهوة اتساعا حينما نقارنها بمستوى الإبداع والإنتاج الفنى فى أوروبا أو فى البلدان الأخرى ذات الجذور الممتدة فى التاريخ وذات الحضارة العريقة .

ورغبة منهم فى معالجة ذلك النقص الحضارى ، فقد أخذ الأمريكيون على عاتقهم فكرة تكوين تراث لهم . وبالفعل ، ابتداء من القرن التاسع عشر أخذوا يشتررون أى أعمال فنية يمكنهم شراؤها ؛ خاصة أن الثورة الفرنسية وحروب نابليون كانت قد أدت إلى حركة واسعة بين الأعمال الفنية ، التى لم يكن بحميتها أى قانون كثرات قومى يحرم نقله أو تصديره ويدفعهم أعلى الأسعار لأجمل المقتنيات ، لم يلهب ظهور الأمريكيين حب الغرور والتظاهر القومى المتعطش إلى التسابق وتحقيق الأرقام القياسية فحسب ، وإنما اندفعوا إلى نهاية الشوط ، وأسسوا لأنفسهم أغنى متاحف العالم ليفتخروا بما لا يملكه الآخرون ، ويعوضوا افتقارهم لأى تراث أصيل ، مما أتاح لهم - فى الوقت نفسه - الانتقال إلى مستوى من

الحضارة لا غنى للفن الحديث عنه . ورغم كل شيء فقد ظلت عقدة النشأة ملازمة لهم ؛ فاندفعوا للعبة الفن الحديث ، ثم أصبح عديد من مؤسساتهم ركائز أساسية فى اللعبة .

وتمثل الأعوام الخمسة والثلاثون التى سبقت الحرب العالمية الأولى عملية اقتناء نهمة ، أشبه ما تكون بجوع البقر الذى لا يعرف شبعاً !! وهكذا عندما وصل جاك سليجمان Jacques Seligman إلى نيويورك عام 1912 ، كان كل اهتمامه مركزاً فى العناية بالصناديق التى تمثل مقتنيات السيد مورجان Morgan وعددها ثلاثمائة وخمسون صندوقاً ! فقيما بين عامى 1905 و 1906 كان الأخير قد اشترى مجموعة مقتنيات البارون الألمانى ألبرت فون أوبنهايم Albert Von Oppenheim ، ثم فيما بين عامى 1906 و 1911 اشترى مجموعة الأرشيذوق الفرنسى جورج هونتشال George Hoenstschal .

وبخلاف هذا المورجان الشهير ، تمتد القائمة لتحتوى المئات من الأسماء نذكر منها بنيامين ألتمان Benjamin Altman ، وفيدنير Widener ، ويلومنتال Blumenthal ، وفريك Frick ، وجولد Gould ، وكريس Kress ، دون أن ننفل بالطبع اسم آل روتشيلد ، الذين تهافتوا على شراء الأعمال الفنية حتى فترة ما بين الحربين . ولقد أدت سياسة الشراء إلى إنشاء متحف الفن الحديث عام 1929 ، فى ذلك العام نفسه الذى أعلن فيه عن الأزمة الاقتصادية الطاحنة !!

ولقد دأب هذا المتحف منذ إنشائه على تنظيم معارض الفن الحديث الأوروبى ، بينما قام جوجنهايم Guggenheim بتأسيس متحف «الفن غير الموضوعى» Non objectif Art ، وهو الأول من نوعه فى العالم . ولم لا فالنفعية الأمريكية تستطيع أن تتمثل التقاليع ، وتستثمرها معاً مضيئاً إلى ما لا نهاية ، وبخاصة أن للعبة وجهها الاقتصادى .

وكان نظام هبة المجموعات الفنية للمتاحف مرتبطاً بنظام الضرائب فى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ إذ إنه لم يكن يستبعد الفن عن الاستثمارات ، كما سبق أن رأينا . وكان ثمن الأعمال المقتناة يسقط من المبالغ المستحقة للضرائب . وهى لعبة مزدوجة - والحال هذه - تتفق وعملية الشراء النهمه ، التى يقوم بها أصحاب الملايين . فمن جهة كانوا يزودون بلدهم بتراث ما ، ومن جهة أخرى

كانوا يخفضون قيمة المبالغ الخاضعة للضرائب !

أما فيما يتعلق بفن التصوير الأمريكي .. فإن أول أعمالهم الفنية يرجع إلى القرن السابع عشر . وإن لم يوجد من تراث هذه الفترة سوى حوالى خمسين لوحة مرسومة وفقاً للمدرسة الكلاسيكية أو الواقعية ، ثم دخل المذهب التأثيرى بفضل بعض الفنانين الذين درسوا فى فرنسا ، وبعد ذلك تنابت المدارس والمذاهب على التوالى .

وفى السابع عشر من شهر فبراير عام 1914 ؛ أى قبل الحرب العالمية الأولى ببضعة أشهر ، تم افتتاح أول وأكبر معرض فى مدينة نيويورك . وكان عنوانه : «المعرض الدولى للفن الحديث» ، وكان المعرض مقاماً فى أحد مستودعات الأسلحة الأمريكية . وعلى وجه الدقة ، فى إحدى قاعات الأسلحة الخاصة بالفرقة التاسعة والستين من سلاح الفرسان ؛ لقد كان المكان الوحيد الذى يمكنه أن يستوعب ألفاً وستمئة لوحة وتمثالاً ورسماً ، مما أدى إلى إطلاق ذلك الاسم الذى اشتهر به المعرض وهو «معرض السلاح» ، Armory show . ترى أكانت نبوءة قدرية أم تخطيطاً ؟! إذ سرعان ما استخدم هذا الفن ليكون من أشد الأسلحة فتكاً بالحضارات والتراث والشخصية القومية فى كل بلد غزاها !

لقد ضم هذا المعرض بضع لوحات ابتداء من جوايا مروراً بأشهر الفنانين التأثيريين ، ليغرقوا حوائطه بعد ذلك بكل المعاصرين من معارول لعبة الفن الحديث ، وعلى رأسهم مارسيل ديشان Marcel Duchanp ، ولوحته الشهيرة «عارية تنزل السلم» ، والتي كادت الجماهير الغاضبة تدمرها .

وكان لهذا المعرض تأثيره الفجائى والحاسم على فن التصوير الأمريكى ؛ فقد عكس من ناحية ذلك التطور الفنى العالمى ، وما وصلت إليه أحدث تياراته التى تابعتها بعضاً منها فيما تقدم ، ومن جهة أخرى كان تنويراً لشعار الفن الحديث برمته وبخفائاه التى لا يعلمها الجمهور ، ومنذ ذلك الحين وضحت علاقة السلطة بالفن الحديث ؛ إذ إن الدولة كانت تقود وتغطى اللعبة ! من ناحية ، لأن بعض مؤسساتها جزء من اللعبة ، ومن ناحية أخرى كان الجرى وراء التقاليع سمة مميزة للواقع الأمريكى . وانساققت مدرسة فن التصوير الأمريكى فى اختلاق تراث محلى فى الوقت نفسه ، الذى جاهدت فيه لإخفاء تبعيتها للفن الأوروبى - وبإلها من مفارقة !!

فابتداء من مطلع القرن العشرين ، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تستقبل وتحتضن الفنانين النازحين إليها ؛ خاصة الألمان الذين يطاردتهم النازي ، والذين أسندت إليهم مهام تعليمية ، مثلما حدث مع هانز هوفمان Hans Hofman ، وألبرز ، وموهولي ناجي ، وجروبيوس . وكانت لكل من بيكابيا وديشان فترات إقامة طويلة في نيويورك . وكان لصلات ديشان الحميمة مع آل أرنسبرج Arensberg ، تلك الأسرة المثقفة اليهودية الشاسعة الثراء ، ثم استقراره النهائي وتجنسه بالجنسية الأمريكية أثره العميق على الفنانين المحليين بتشجيعهم على تقليده .

ولقد عانى الفنانون المحليون من الأزمة الاقتصادية ؛ لذلك تم إنشاء العديد من المؤسسات التي تقوم بتنفيذ المشاريع الحكومية لتخفيف وطأة الموقف . ومن ثم تم إسناد الأعمال الحكومية لآلاف الفنانين العاطلين . وكان أولها «مشروع الأعمال الفنية العامة» Public works of art project الذي أنشئ عام 1933 وقامت وزارة المالية بتمويله ، ثم تحول في العام التالي إلى «مشروع الفنون الفيدرالي» Federal art project . وعلى مدى تسع سنوات ، قام أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة فنان (يتقاضون راتبا شهريا مجددا) بتنفيذ حوالي خمسة عشر ألف عمل فني لتزيين المرافق العامة كالمطارات والمدارس ومكاتب البريد... إلخ . في عام 1943 تحول هذا المشروع إلى «إدارة تقدم الأعمال» Works progress administration ، التي كان برنامجها من وحي سياسة روزفلت .

الأمر الذي يتضح فيما يطرحه تيسو R. Tissot في كتابه عن «الفن في مواجهة الأزمة» عندما يقول : «كانت حكومة البيت الأبيض تساند بكل ثقلها المعنوي والسياسي وبكل الوسائل الممكنة لتهذبة مطالب هؤلاء الفنانين ، الذي كان يمكن للبطالة أن تحولهم إلى عناصر مقلقة» . والطريف أن المقصود بتعبير «عناصر مقلقة» هنا إنما يعنى ميلهم إلى اليسار .

من هنا نرى أنها لم تكن مجرد مساندة معنوية وسياسية فحسب ، وإنما كان البيت الأبيض يساهم بثقله في استتباب مذهب فني بشكل رسمي ، بأن يخضع الفن لسياسة الدولة ، بما أن هؤلاء الفنانين كانوا يتقاضون مرتباتهم من الدولة . ومطلوب منهم تنفيذ أعمال خاصة بالدولة تبعا لتوجيهاتها . وفي ذلك الوقت يوضح جان كلير الأمر قائلا : «إن الفنانين الذين رفضوا الانسحاق لتوجيهات

الدولة وتجريدياتها أمثال إدوارد هوبس Edward Hoppes أو ديكينسون Dickinson ، كان مصيرهم الصمت أو النسيان والنفي داخل البلاد، (26) .

وابتداء من عام 1940 استتب الأمر للفن التشكيلي . ويعد تطوره في نيويورك ، فيما بين عامي 1940 و1950 ، من أكثر المظاهر اللافتة للنظر في تاريخ الحركة الفنية بأسرها .

ففي أثناء هذه الحقبة ، وبخاصة في منتصفها تقريبا (عام 1945) عندما خرجت الولايات المتحدة الأمريكية منتصرة في الحرب ، اتضحت معالم عدة أحداث لها مغزاها . ذلك أن التاريخ لم يكن يعنى فحسب قصف كل من هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية - والذي يمثل قمة التدمير المتعمد - وإنما كانت هناك أحداث أخرى منها توقيع ميثاق منظمة الأمم المتحدة، والتي كان الهدف الشكلي لها هو المحافظة على السلام والأمن الدوليين وإقامة تعاون اقتصادي واجتماعي وثقافي بين الدول ، ومنها أيضا مؤتمر يالطا الذي تم فيه تقسيم العالم إلى مناطق تابعة للقوتين العظميين ، فأصبح هناك معسكر تابع لليمين وآخر للييسار ؛ أى أن الواقع العالمي قد أصبح بإزاء أيديولوجيتين مختلفتين متناقضتين ، إحداهما حكومية رأسمالية ، والأخرى جماهيرية اشتراكية .

وكان ذلك بمثابة إعلان للحرب الباردة ، تلك الحرب التي قال عنها فرانك شكسبير Frank Shakespeare ، مدير أوشاء U.S.I.A : «إنها كانت صراعا للسيطرة على عقول البشر» .

وابتداء من عام 1945 أيضا ، بدأ البناء الفوقي الأمريكي لمشروع غزو الفضاء ... ذلك المشروع الذي انطلق تنفيذه من أجل تحقيق تلك الرغبة المحمومة للسيطرة على الكرة الأرضية وما يحيط بها من كواكب .

ولا يفتونا في هذا الصدد أن نشير إلى أن السيطرة على الكرة الأرضية وما حولها، إنما هي حجر الزاوية الرئيسي وهي التي تسعى إليها الأحلام اليهودية الماسونية ، والتي كانت تحتاج إلى مدد زمني يحتاج بدوره إلى مخطط مقنن ومدرّوس يدخل ضمن أدواته الفن بكل الجنبات المتصلة بمجاله .

ولعام 1945 أهمية واضحة في حقل الفن ذلك أن لعبة الفن الحديث قد بلغت ذروتها كأداة تخريبية . وابتداء من ذلك التاريخ بدأت ممارسة كل أشكال

اللعبة بكل القحة وبلا موارد .

ليس غريبا إذاً أن تكون الحملة القومية والعالمية لحرية الإعلام هي أول مخطط دولي ، هرعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تنفيذه عقب الحرب العالمية الثانية . وما أكثر المؤسسات التي تم إنشاؤها كنتيجة لهذه الحملة وأثر من آثارها ومواكبة وتدعيمها لها ، وإن كانت منظمة اليونسكو هي أضخم هذه المؤسسات التي لم يعد أحد يجهل تبعيتها للولايات المتحدة الأمريكية . ومهما اختلف معنا البعض حول هذه الحقيقة ، فيكفي أن نذكرهم بما سبق أن دللنا عليه من أن معظم أعضائها - كما رأينا - من الماسونيين .

لقد زعموا أن هذه المنظمة قد أنشئت من أجل حماية حرية الإنسان وتطوير الثقافة بشكل حيادي . ورغم هذه الشعارات وغيرها ، ها هي المنظمة منذ إنشائها عام 1946 ، ترفع عاليا راية الفن التجريدي رسميا . ويكفي أن واجهة المبنى تعلوها لوحة زخرفية تجريدية مساحتها مائة متر مربع ، تزهر بالتحدي أو بالسخرية بجوار مبنى Invalides الذي يضم رفات نابليون ، مؤسس حضارة فرنسا الحديثة !! الأمر الذي أثار في هذا الموقع بالذات موجة عارمة من الصراعات ، نورد منها تساؤلات جازافا : « ترى أيعنى ذلك تواطؤاً أم تخريباً؟! » .

أما الباحث أود Eudes فيقول في كتابه عن « السيطرة على العقول : جهاز تصدير الثقافة الأمريكية للعالم الثالث » : « لقد استولت الولايات المتحدة الأمريكية عمليا على المنظمة لتوجه ، بانتظام ، كل أساليبها ودراساتها وبرامج مساعداتها لتحقيق أهدافها الدولية . إنها تستثمر المنظمة كلية إذ تؤمرك كل مشاريعها . لقد استخدمت الحكومة الأمريكية مسرب اليونسكو لتزيد من سيطرتها الكاملة على قطاع استراتيجي من الدرجة الأولى ، ألا وهو : تكوين الصحفيين ورجال الإعلام المحترفين » (52) .

ولا أظننا بحاجة لإعادة عرض أهمية الصحافة ورجال الإعلام وتأثيرهما المباشر في انتشار الفن الحديث ، وزرع بذرته وبث سمومه في كل المجتمعات تقريبا .

إن ازدياد سرعة أحداث الحرب الباردة ، والتي اشتد أوارها منذ عام 1947 ، قد عجل بإنشاء منظمات جديدة لتصدير الثقافة الأمريكية ؛ الأمر الذي يمثل

الموجة الثانية لتجديد كل الإمكانيات البشرية والمادية لخدمة الدعاية الرسمية وأيديولوجياتها .

ولم يكن عبثاً أن يصرخ فيليب كومس Philip Coombs ، وهو أول من شغل منصب وكيل الوزارة المساعد في وزارة الثقافة والتعليم الأمريكية قائلاً : «إن الحكومة الفيدرالية قد أضافت بعداً رابعاً للمجالات الكلاسيكية الثلاثة (المجال الدبلوماسي ، والعسكري ، والاقتصادي) ألا وهو : مجال العلاقات الثقافية» .

أى إنه تم إدخال الثقافة رسمياً ضمن الترسانة الضخمة ، التى تستعين بها الحكومة الفيدرالية لتؤثر على العالم الخارجى . إن هذا البعد الجديد ، الذى يمثل مجالاً رابعاً ، سرعان ما سيصبح السلاح ، الذى لابد من توجيه كل ما فى ترسانته ضد البلد الذى يتطلب الموقف غزوه .

إن الأمر يتجاوز كل حرب باردة بين الدولتين العظميين ... يتجاوز تلك الرؤية الضيقة ، التى يرى فيها البعض أن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن يعلم الاتحاد السوفيتى أنها قد أصبحت دولة ثقافية قوية ، وإنما أرادت الولايات المتحدة - فى ظننا - أن تفرض على أوروبا وعلى بقية البلدان الخاضعة للسيطرة الأمريكية ، بل والعالم أجمع ، فكرة أن نيويورك قد أصبحت - منذ الآن - المركز الجديد للعلوم والفنون . بعبارة أخرى : أنهم «سادة» العالم الحقيقيين !!

وسرعان ما تصافرت الجهود لتصنع نيويورك أسطورتها الذاتية ، إذ إن إنشاء قرية جرينتش Greenwich على غرار الحى اللاتينى فى باريس بما به من بوهيميين ، لم يكن أمراً عشوائياً ، وإنما كان يعنى بوضوح : أنه قد أصبح على الأوروبيين أن يذهبوا ، بدورهم ، ليحجوا ويطوفوا حول «مكة» الفنون الجديدة !! ولم يكن عبثاً أو محض مصادفة أن تنشر مجلة «الفيننشال تايمز» Financial Times (التي يعد بابها الفنى من أكثر الأبواب التى يقدرها القراء حق تقديرها) . مقالاً ضخماً عاماً 1964 حول أقول باريس كمركز لعالم الفن عنوانه : «باريس، عاصمة الفنون المعزولة عن العرش» !!

وفى أواخر الخمسينيات ، وفى قمة اشتعال الحرب الباردة ، تم إقامة سلسلة من المعارض الدولية فى البلدان الخاضعة للولايات المتحدة الأمريكية ، لتثبت أن الفن الحديث الأمريكى هو التيار الوحيد المهم ، الذى شب عملاقاً على يديها بعد

الحرب ! وبعد ذلك بعامين ، وفي مطلع الستينيات ، أصبحت مدينة نيويورك بالفعل هي عاصمة ما يسمى بالفن الحديث بلا منازع ؛ بفضل أساطين اللعبة بمكونات تلك أُمافيا التجارية الاحتكارية التي لا مثيل لها على مر التاريخ ، والتي عرفت كيف تفرض «عبادة» مسوخ الفن الحديث في مختلف البلدان .

وابتداء من هذه الحقبة أيضا ، أصبح استبعاد أى قيمة انفعالية أو إنسانية من الإنتاج الفنى الأمريكى هو القاعدة السائدة بلا تردد . ويمثل بولوك وما ابتدعه من فن حركى Action painting ، قمة ذلك التيار إلى جانب البوب آرت من Pop' Art الذى كان كل من وارول Warhol ، وروزنكويست Rosenquist ، ولوكنتشتاين LuiKtenstein ، وأولدنبرج Oldenberg من أهم ممثليه .

وما أن تم استقرار الأسطورة فى الأذهان ، حتى بدأ العمل من أجل فرضها وتصديرها بل وتقديسها . ويقول فرانك إلجار Frank Elgar فى هذا الصدد : «لقد نجحوا فى ذلك بما أن بينالى فينسيا الدولى قد منح جائزته الكبرى عام 1964 إلى روشنبرج Rauschenberg ، وفى ذلك العام نفسه كان ألبوب آرت يعرض بحفاوة فى متاحف جاند ولاهاى وأمستردام . ولا يمكن لعين أن تخطئ أنه كان فنا أمريكيا مستقلا بذاته غير متأثر بأحد ، يغزو التاريخ منتصرا» (92) .

وللحق ، لم يكن بينالى فينسيا وحده الذى قدم مائدة القربان ، وإنما تضافرت معه كل المعارض الأخرى فى البلدان الغربية ليقيموا التراتيل ويقدموا القربابين للفن الحديث ، بالرغم من ذلك الخلط الهائل والبلبله المثيرة التى أدت إليها سرعة تتابع الحركات والمذاهب والتيارات ، وما صاحبها من كتابات لا تقل عنها تجريدية ، وسادت نغمة نشاز واحدة ، وانطلق نوع واحد بكل تنويعاته المتكررة ، تراه فى باريس أو فى نيويورك ، فى فلورنسا أو فى اليابان ! وكانت المتاحف المسماة بالطليعية الأمريكية ، تعد بمثابة حلقات الوصل بين متاحف البلدان الخاضعة للسيطرة الأمريكية . وها هي معارضها تتصاعد فى الستينيات بجرأة لا مثيل لها ، وامتد التوسع الجغرافى للفن الحديث الأمريكى ليغطى بنشازه مساحات البلدان التابعة بأسرها .

وبعد السادس من أبريل عام 1961 ، (وهو تاريخ إطلاق القمر الصناعى المعروف باسم «إيرلى بيرد» Early Bird من قاعدة النازا N.A.S.A.) ، بمثابة

تاريخ مولد نظام جديد للاتصال عبر الكرة الأرضية كلها . ولقد عانت منه حضارات العالم بأسره ، فعلى حد تعبير أود Eudes ، « كان المقصود هو قتل أى أيديولوجية قومية وطنية ، ولسنا هنا دعاة إطار شوفانى أو إحياء للزعات العرقية ، ولكننا ندرك خطورة إبادة الثقافات القومية وحضارتها ؛ إذ المعروف أن لكل ثقافة خصائصها النوعية التى تمثل العائق الحقيقى فى وجه تلك النزعة ، التى تتشدد بالشعارات لحساب القوى الاحتكارية العالمية عن تذويب الفوارق بين الشعوب . وذلك ما ترمى الماسونية اليهودية إلى تحقيقه ، بفضل أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا الأمريكية المستخدمة فى مكانها ؛ حتى تحكم حلقة سيطرتها لتحقيق مآربها .

إن أهمية ثورة الإلكترونيات فى وسائل الاتصال لا تكمن فى تخطى مفهوم السيادة المحلية فحسب ، وإنما فى ازدياد وطأتها عبر محطات الإرسال الإذاعية أو التليفزيونية المنبثة من الأقيمار الصناعية ، والتى تسمح للأفراد بالتقاطها مباشرة بما تتضمنه من برامج ، أحكموا تركيب مكوناتها للقضاء على كل روح وطنية أو قيم دون المرور عبر قنوات الإشراف المحلى لكل بلد . وهو ما يعنى من جهة أخرى أن الحدود الجغرافية للدول قد فقدت كيائها ، ومن ثم ضرورة مجابهتها للغزو العلمى الثقافى الأمريكى ؛ إذ إن توافر إمكان التقاط الإرسال ، أى كانت المسافة الجغرافية أصبحت لا معنى لها ، فهذا هو التدخل يتم مباشرة من منبع الإرسال إلى المتلقى فى أى مكان ، ورغم أنف أى رقابة محلية أو كل حس وطنى ، لتقديم الوعى بقضايا هذا الشعب أو ذاك ، والتسلل إلى الوجدانات والعقول ، وخلق التبعية الفجة عبر إعلام أكثر فجاجة .

وما من أحد يجهل فى يومنا هذا حجم الكم ودلالة الكيف الناتج عن استخدام كل هذه الوسائل التقنية لصالح الهدف الرامى إلى نشر كل أوجه الأنشطة الحياتية والثقافية والحضارية، الأمريكية الحديثة بمضامينها المصدرة للشعوب . وهكذا أصبح تعبير « أسلوب الحياة الأمريكية » هو النمط ، الذى تم فرضه بفضل التضايف الشرس لكل وسائل الخدمات الثقافية ومختلف المراكز السياسية . وبإلها من لعبة يمضى مخططها لما هو أبعد ؛ إذ لا حد لطموح المؤسسة الصهيونية وصنائعها من ماسونية وكيانات دولية وقوى مصنوعة .

ألا يسترقف النظر أن سيادة الأيديولوجية الأمريكية وتصديرها وفرض ثقافتها على المجتمع الدولى ، وهو ما يعد من الوقائع التى تم تحقيقها فى سرعة بالغة - تخضع خضوعا لا تخفى ملامحه لقوى الصهيونية العالمية والكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة؟ بل إنه ما من رجل دولة أو مفكر أمريكى إلا ومالاً اليهود واشترى ودهم وزايد على مطالب الكيان الصهيونى؟! وما هو الحماس المتبجح كثيرا ما ينادى عبر كلمات رؤساء الولايات لامتحدة الأمريكية ومفكرها بضرورة القطع الحاسم مع الماضى ، وإعادة صياغة تاريخ العالم من جديد ! وما أكثر النصوص التى يمكن الاستشهاد بها من الخطب الرسمية أو البرامج الانتخابية ، التى تعكس بوضوح هذه النعرة التى تخفى فى طياتها ضرورة إعادة تشكيل العالم وتاريخه وفقا للناموس الأمريكى !

إن بيان روكفلر الشهير ، فى عام 1969 ، يعد نموذجا ملموسا لكل المبادئ الرامية إلى غزو العقول ... إنه برنامج شامل واضح لكيفية التوغل الثقافى فى أعماق الشعوب ، موضوع بدقة متناهية ، نورد منه النقاط التالية : خلق هيئات محلية متخصصة ، إعادة تنظيم أجهزة التعليم المحلية ، تبادل المهنيين القائمين على التعليم والإعلام والثقافة ، زيادة عدد ساعات الإرسال ، إفساح لدور السفارات فى نشر النشاطات الفنية التى تخدم الأهداف ، التى نأمل أن تكون قد اتضحت بعض ملامحها فيما عرضناه حتى الآن .

ويكفى أن نستشهد هنا بتلك المذكرة التى قدمها كنيدي ، وذلك القانون الشهير لفولبرايت ، وكلاهما من الوثائق التى نرى فيها بوضوح ذلك المخطط المصنوع بعناية للتوغل الثقافى والفنى . فمن الأمور المعلن عنها صراحة أن الهدف الوحيد «لبرنامج الزوار الدوليين» International Visitors Program ، تهيئة الفرصة للفنانين أو المتخصصين الأجانب كي يتعلموا من خلال معايشتهم للأمريكيين ما يمكنهم من القيام بعملهم بشكل أفضل فى بلادهم !! فإذا كانت جمهرة من شعوب العالم (أفرادا ودولا أحيانا) يتسمون بالحساسية تجاه اليهود والكيان الصهيونى ، فما هى أمريكا ومن خلال اليهود أيضا تدعو الصفوة منهم لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية ، وعبر برنامج مدرّوس يتم «غسيل المخ» بل والتجنيد أحيانا . وما أكثر أولئك الفنانين المحليين الذين سافروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعودوا منها وقد غيروا اتجاههم وينساقوا فى التجريديات !

ولأن الأمانة العلمية لا تعرف المشاعر الشخصية فحمة مثال يوضح هذا الذي نقوله ونذكره على مضمض فيما يتعلق بمصر ، عندما نقراً في «روبير» Robert ، في المجلد الأول من «الموسوعة الدولية لفن التصوير» أن الفنان المصرى صلاح طاهر «قد انساق فى التجريد عقب زيارة له للولايات المتحدة الأمريكية» !! (124) .

وها هو إزييجنيف بجنزنسكى Ezbigniew Brzezinski لا يكف عن التريد ، فى كتابه المعروف باسم «الثورة التكنو إلكترونية» ، معبراً عن شغفه كى «يرى ذلك اليوم الذى تزدهر فيه الولايات المتحدة الأمريكية بفضل الفنون والعلوم بقدر ما يتم ذلك بالسلاح والاقتصاد ، وصولاً لخلق التجمع الاحتكارى الدولى» ! ولا نظننا بحاجة للإشارة إلى المضمون اليهودى الماسونى وراء ذلك كله .

وها هو كارتر يفصح أكثر من مرة قائلاً : «إن الزعامة الدولية التى آلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تكون قائمة بثبات على احترام وإعجاب العالم لمميزات أمتنا العليا ، والتى تعد بمثابة المرشد فى مملكة الأفكار والعقل» ؟ وبالفعل لقد تصافرت جهود فريق العاملين معه لسن أيديولوجيات جديدة ترمى إلى احتكار كل شىء لصالحهم ، جاعلين من أمريكا المركز الثقافى للعالم ؛ أى مركز الفنون والعلوم والاقتصاد ... لا أظننا بحاجة لتكرار رؤية ، أصبحت جلية للعيان من دور اليهود فى تدعيم هذا المركز واستثماره .

لقد أصبح العمل من أجل الصالح العام الأمريكى من مهام الدولة فى نظر قادتها وفى نظر ملاكها الكبار . ولقد أصبحت فترة ما بين الحربين نوعاً من الهوس فى إقامة المتاحف الخاصة بالفن الحديث والمؤسسات الفنية . ويعد مثل جورج بلومنتال ، أحد كبار المشاركين فى بنك «لازار» Lazard ، الذى أهدى ملايين ومجموعات مقتنياته إلى متحف «المتروبوليتان» من الأمثلة المتكررة بالمئات ، وكان معظمها من اليهود .

لذلك يتساءل برنييه Bernier : «كيف إذاً يمكن ألا ندهش ونصبح شديدي الحرس حيال ظاهرة سوق الفن ، الذى أصبح حالياً فى أيدي اليهود ، وها هم التجار والنقاد الذين يروجون له والمصورون اليهود من الكثرة فى مجال الفن القائم فى أيامنا هذه ، وقد اتفقوا على مهاجمة التراث اللاتينى والإذعان لروح نقد قائمة

على هدم وتفكيك كل القيم، (133) .

وبخلاف عملية الشراء بشراسة وإهداء المجاميع الكاملة للمتاحف القومية ، فإن هؤلاء المليونيرات الأمريكيين كانوا يقومون بتجنيد الشخصيات المسؤولة للاستفادة من معلوماتهم ؛ فأسماء من قبيل بيرنسون Perenson ، وماكس فريد لاندلر Max Fried Landler ، وروجييه Roger ، ودوران رويل ، وعديدين غيرهم ، ليست وحدها أسماء الأجانب الذين يعملون كمستشارين لصالح أمريكا .

وفى الوقت نفسه تم إنشاء عديد من المؤسسات الفيدرالية ، وكان أشهرها O.S.S: Office of State Security, O.W.I: Office of War Information, U.S.I.A. United State Information Agency U.S.I.C.A. United State International agency . ويقول أود Eudes : «إن كل هذه المؤسسات قد أنشئت وتم تشغيلها بفضل تجنيد آلاف الصحفيين ، والكتاب ، ورجال الإذاعة والسينما ، والجامعات ، الذين كان يسند إليهم تنفيذ مهام معينة على الصعيد الدولى ، لخدمة استراتيجية الثقافة والأيدولوجية الأمريكية طوال فترة الحرب بدلا من إرسالهم إلى الجبهة، (52) .

إلا أن هذه الآلة الضخمة التى تم حلقتها لزمان الحرب ، قد تم استخدامها أيضا فى زمن السلم . وهكذا وجدت الدولتان الكبيرتان المنهزمتان ، ألمانيا واليابان ، كل مناهج التعليم بها وكل وسائل الاتصال الجماهيرى ، وكل إنتاجهما الفنى وقد تم تغييره تماما على يد المحتل الأمريكى ، الذى وصل صلفه وثقته بدوره أن صك ذلك الختم الشهير : «صنع فى اليابان المحتلة» !!

ولقد لعبت أجهزة الإدارات الثقافية التابعة للجيش الأمريكى دورا هائلا حاسما فى هذين البلدين بقدر ما قامت به فى كل البلدان ، التى وجدت فيها قواعد عسكرية أمريكية ؛ مما يثبت أن الجهود المبذولة من أجل نظام جديد للإعلام الدولى ، لم تكن فى الواقع إلا جهودا من أجل عرقلة ومراقبة التطور الداخلى فى البلدان المحتلة ، أو تلك الخاضعة والتابعة للأيدولوجية السياسية الاقتصادية نفسها . لكن الأمر تجاوز الإدارات الثقافية التابعة للجيش إلى كل أجهزة الدولة ومؤسساتها ، بل لقد تجاوز ذلك كله إلى مؤسسات تتجاوز كل تصور . وهماو أود يشير لطرف منها قائلا فى المرجع السابق : «إن كم النشاط الثقافى والتعليمى الذى

تقوم به الحكومة الأمريكية على المستوى الدولي ، والذي يتم بدرجات متفاوتة من العلنية ، يجب ألا ينسبنا الدور الأساسي لإدارات التجسس ، والتي تأتي الـ «س. أى. إيه. C.I.A في مقدمتها في هذا المجال» (52) .

أما بداية إقامة اليهود بأمريكا فترجع إلى كريستوف كولومب ، الذي حمل معه وسط بحارته عددا من أولئك الأشخاص المضطرين إلى مغادرة إسبانيا ، بناء على المرسوم الذى صدر بذلك فى الثانى من أغسطس عام 1492 .

ولقد اعتبر اليهود هذا العالم الجديد حقلاً خصباً لاستيطانهم ، وبدأت الهجرات اليهودية تتوالى ، لكنهم نظرا للصعوبات التى واجهتهم عند محاولة إقامتهم فى الجنوب ، فقد استقروا فى الشمال ، فى تلك الأراضى التى يقيم عليها المهاجرون الهولنديون ، والتى أصبحت فيما بعد ولاية نيويورك . وها هو كوستون فى كتابه المعروف عن «أمريكا معقل اليهود» يذكر بأنه : «بعد حرب التحرير صاغت الولايات المتحدة الأمريكية دستورها المدنى والسياسى ، وبذلك حصل اليهود على كل حقوق المواطنين الأمريكيين» (31) .

لكن عملية استيطان اليهود لم تمر هكذا ، دون أن تثير المشاكل من جانب المواطنين الذين تولوا الدفاع عن بلدهم حيال هذا «الغزو» الجديد . ولقد سبق لبنيامين فرانكلين أن تنبأ بالمأساة وأخذ يحذر مواطنيه من مغبة حركة اليهود ، فى الخطاب الذى ألقاه أمام الجمعية الدستورية عام 1789 ؛ إذ قال صائحا:

«هناك خطر كبير يواجه الولايات المتحدة الأمريكية . وهذا الخطر ممثل فى الاستيطان اليهودى ؛ فلقد انخفض المستوى المعنوى والشرف التجارى على أيديهم . وقد ظلوا منفصلين عنا ولم يذوبوا فينا . ونظرا لإحساسهم بالقهر ، فهم يحاولون خنق الأمة ماليا ، مثلما فعلوا فى إسبانيا وفى البرتغال ؛ فإذا لم نقم بطردهم من الولايات المتحدة الأمريكية بموجب هذا الدستور ، ففي أقل من مائة عام سوف يغزون هذا البلد بدرجة تجعلهم يسيطرون علينا ويدمرونا . لسوف يغيرون من شكل الحكومة التى قد دفعنا ، نحن الأمريكيين ، دماءنا ثمناً لها . إن أفكارهم ليست أفكار الأمريكيين ، حتى وإن عاشوا بيننا لمدة عشرة أجيال . إن اليهود يمثلون خطرا لهذا البلد . وإذا ما تمكنوا منه فسوف يدمرون كيانتنا . فلا بد من طردهم بحكم الدستور» .

ولقد استشهدنا بهذا المقطع الطويل نظرا لأهميته المزدوجة ، من حيث النبوءة ، التى يتضمنها فيما يتعلق بالدور المتصاعد لهجرة اليهود ؛ إذ إن اللوى اليهودى الأمريكى الذى يحكم الولايات المتحدة الأمريكية حاليا ، من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، لا يفسح المجال لأى تعليق ؛ ومن جهة أخرى فإن فرانكلين حتى إلقاء هذا الخطاب ، لم يكن قد وقع فى حبال الماسونية بعد ؛ ذلك أن اليهود لم يدخروا جهداً حتى انضم فرانكلين للركب الرهيب بعد هذا التاريخ بقليل ، ليصبح واحداً من كبار زعمائها !! وهنا أيضاً لا يسمح المجال بأى تعليق ؛ وبخاصة أن انضمام فرانكلين إلى الماسونية من الحقائق التى توجد فى كل المراجع والقواميس تقريباً .

لقد استقر اليهود فى نيويورك منذ عام 1880 ، ومن ثم بدأوا يحضرون عائلاتهم . وما أن مضت خمسون عاماً تقريباً ، حتى كانت ذرية هؤلاء المهاجرين تمثل ربع تعداد هذه المدينة ، وسرعان ما أصبحوا يحتكرون عددا كبيرا من المهن بها ، وتغلغلو فى كل جنبات المؤسسات الحكومية ، وسيطروا على الاقتصاد الأمريكى . لقد كان لابد لليهود أن يمارسوا تأثيراً قويا - بلا أدنى شك - على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ، على حد قول كوستون ، الذى يوضح الدور الرئيسى ، الذى لعبه اليهود فى الاقتصاد الأمريكى ، وفقا لما هو وارد فى الجريدة الأمريكية «يابليسست إيكونوميست» (Publicist economist) :

«إن اليهود يمثلون 97% من رؤساء تحرير الصحف الأمريكية ، و90% من شركات البريد ، وتقريبا 100% من صناعة الأفلام والمسرح ، و76% من أعضاء المهن الحرة ، و98% من البنوك ، و90% من تجارة التصدير ، و87% من الصناعات الثقيلة ، و72% من وسائل النقل ، و99% من صناعة النسيج ، وكل ذلك كان إما فى إيدى اليهود أو خاضعا لسيطرتهم .

لقد كتب كوستون ذلك فى عام 1942 ، وهى السنة التى ظهر فيها كتابه ، ومنذئذ قد تضاعفت يقينا هذه الأرقام ؛ خاصة أن اليهود كانوا يملكون وقتها 62% من الأراضي .

لقد أردنا بهذه الإحصائية أن نوضح حجم وتأثير وثقل اللوى اليهودى فى أمريكا فى فترة الحرب العالمية الثانية ، وأيام فرض وانتشار الفن الحديث ، الذى

لعبوا الدور الأساسى فى ترويجه ونشره .

ومع ذلك .. فإن أكثر ما يثير الفضول ، والذي فضحه كوستون فى كتابه ، إنما هو تلك الصلة - التى نضطر للعودة إليها مرة أخرى - بين اليهود والماسونية فى أمريكا ، إذ كتب يقول : «ومثلما حدث فى أوروبا ، فقد بدأ اليهود يتسللون فى المحافل الماسونية الشديدة الانتشار فى أمريكا ، وبدأوا يسيطرون على نشاطها بفضل أبناء جلدتهم الماسونيين ، الذين كانت هذه المحافل تجمع بينهم . وكانت الطرق الماسونية الخاصة بهم والمغلقة فى وجه كل من ليسوا يهودا ، عبارة عن أربعة محافل هى «المحفل المستقل لبنائى برث» Independent Order of B'nae B'rith ، و«محفل أبناء إسرائيل الأحرار» Independent Order of freesons of Israel ، و«محفل كشير شيل بارتزل» Order of KesHer shel Barzel ، و«المحفل الإصلاحى لأبناء إسرائيل الأحرار» Improved order of freesons of Israel . وكان أشهر هذه المحافل الأربعة يعد محفل «بنائى برث» B'nae B'rith ، الذى أسس عام 1843 ، وانتشر من نيويورك ليمتد عبر العالم القديم ، ومنه إلى أوروبا حيث أنشئ عديد من المحافل» (31) .

لقد تغلغلوا فى كل المحافل وأرادوا أن يوهمو الكافة بأنهم منعزلون فى محافلهم بعيدون عن الآخرين . لكن الوقائع تكشف حقيقة الدور الذى لم يكفوا عن القيام به ، وها هو كوستون ينهى هذا الجزء من كتابه قائلا : «لقد أصبحت الماسونية والمال أقوى الأسلحة فى أيدي اليهود ، ولقد استعانوا بهذا السلاح للتأثير على حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . واستعانوا بها للتأثير على الحكومات الأخرى» .

ويؤكد بول نودون ، كبير مؤرخي الماسونية ، هذه المعلومة إذ يقول فى كتابه عن «الماسونية» صفحة 68 : «لقد لعبت الماسونية دائما دورا مهما فى الحياة العامة الأمريكية ، فلقد كانت الثورة من فعل الماسونية . و«حفل الشاي» Tea Party الذى أقيم فى بوسطن تم إعداده فى محفل «سان أندريه» St . André ، كما أن خمسين توقيعاً من بين السنة والخمسين الموقعين على بيان الاستقلال كانت لماسونيين ، وهناك ثلاثة عشر رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية كانوا ماسونيين ، من بينهم واشنطن ، وروزفلت ، وترومان» (95) .

ولقد تم إعداد البنود الأربعة عشر الشهيرة ، التى كان على الرئيس الماسونى ويلسون أن يقرأها فى التاسع من يناير عام 1918 أمام الكونجرس الأمريكى فى القاعة الكبرى لمجلس إدارة بنك كوهن لوب وشركاه Kohn Lob & Co. ، وهو من أكبر البنوك اليهودية فى العالم كما رأينا .

وعلى ذكر البنوك ، فقد لعبت البورصة فى الولايات المتحدة الأمريكية الدور نفسه الذى تلعبه فى البلدان الأخرى : فعلى مواعيدها تدار اللعبة الكبرى ، وأهاو شارل ديو دونيه Charles Dieudonné يقول : «إن تلك الساحرة الحيزيون للمعاملات المالية تقود الحفل وتحبذ الغش ، وتهرع لنجدة الاختلاس ، وتشل الجهد الشريف ، فهناك يغرقون فى الديون برغبة وشوق ، يستثمرون بجنون ، ويلعبون ، ويراهنون ، ويجازفون . إن اليهودى هو الذى يقود هذه اللعبة الجهنمية ، وهو ينتظر اللحظة التى يحوز فيها على كل «القواشيط» .

سواء أكانت اللعبة «جهنمية» أم «مؤامرة سوداء» أم مخططا لاحد لأبعاده لتدمير الحضارة الإنسانية وقيم الجمال والخير ، فإن اللعبة قد تمت . ولكل الذين يرون أنه من المستحيل تحقيق مثل هذا المخطط المخيف ، فيكفى أن ينظروا حولهم ليروا التغلغل النازف فى شرايين الشعوب . ويكفى أن ننوه بأنه ما من إنسان يجهل - فى يومنا هذا - كيف يمكن لبلد أن يغزو العالم ، أو يخضع الشعوب وينثر بينها موكباً من المصائب ؛ إذ إن اختلاس الثروات ، واستعباد الرجال ، وغزو الأراضى ، وإقامة نظم استعمارية لصالح هذه القوى أو تلك ... كل هذه الأمور أصبحت من أبجديات الحيل السياسية منذ تاريخ قديم .

وفى الأزمنة الحديثة ، ما من أحد يجهل أيضاً كيف حلت المفاهيم الأمريكية مكان قوانين وعادات البلدان التى احتلتها ، أو أصبحت تحت سيطرتها أو تأثيرها . وما أكثر الوسائل التى استخدمت وتستخدم ، والتى تصل إلى حد نشر الأمراض لإثارة الأوبئة الفتاكة ، وإدخال الأفيون فى آسيا ، واستعباد اقتصاد العالم الثالث لخلق تبعية مقيتة ما عادت سراً على أحد .

بل ما من أحد يجهل كيف يسعون لهدم الحكومات الحرة ، التى تمثل إرادة شعبها لإقامة حكومات عميلة ، بفضل المملكة الضخمة والشديدة التعقيد لجهاز المخابرات الأمريكية وألاعيبها الجهنمية فى العالم .

ولا نقول ذلك بغية بثّ الخوف في النفوس ولا بغية تقديم كشف للإدانة ، وإنما أثّرنا أن نكشف عن أوجه لهذا الدور لكي نوضح عملية التوغل والإفساد والتخريب والتدمير والتي لم تعد مسائل مستحيلة أو غير معروفة ، فما أكثر ما تكررت وما أكثر ما أجهضتها الشعوب الحرة والضمانات الواعية . لقد أردنا أن نبرهن على أن اللعبة المصنوعة لفرض الفن الحديث ، وكأنه وسيلة التعبير الوحيدة الممكنة والمتاحة ، إنما هي عملية جد بسيطة لمن يحملون على كاهلهم مثل هذه الجعبة التي لا نهاية لمآسيها .

لقد كانت دولة الأمس القريب في أرض الأحلام والمغامرة (أمريكا) مع الكيان الاستيطاني في أرض الميعاد والوهم (الكيان الصهيوني بفلسطين المحتلة) واتفقت الإرادات وتداخلت أوراق اللعبة ، فمن قائل إن أمريكا هي التي تستخدم اليهود والكيان الصهيوني بالشرق الأوسط ، ومن قائل بل هم اليهود الذين تسلّوا لشرابين وأوردة الواقع الأمريكي ، وثالث يتحدث عن المصالح الاقتصادية في عالم اليوم ، ورابع وخامس ... إلخ . وكلها آراء يمكن مناقشتها ، لكننا معنيون في هذا البحث بالفن التشكيلي ، ذلك الفن الذي يختزل التلاحم بين رؤية الفنان والواقع في لوحة ، وإذ بالقوى التي لا نظنها قد أصبحت خفية تقطع تواصل تاريخه وتعزله عن جماهيره وتحوله إلى لعبة تضاف للأدوات التي تحقق أهدافهم المدمرة ، وذلك كله باسم «الفن الحديث» ، وبإلها من لعبة تدفع بالفن ودوره وبالفنان ورسالته إلى هوة سحيقة ، وكلّ أمل أن أكون قد كشفت بعض المستور في قاعها ، ونحن على مشارف ختام بحثنا .

الخاتمة

إن الأحداث السياسية والاجتماعية في تاريخ حضارة ما ، أو حتى تاريخ مجال ما ، شديدة التلاحم ، بل لا يمكن فصلها ، بحيث لم يعد هناك من يدهش حين يرى تلك الأواصر المتشابكة العناصر في مجال كفن التصوير . وأظننا بعد هذه النظرة الخاطفة - وإن أردنا أن تكون شاملة - والتي تبعتها ، قد وضحت لنا صلة الفن الحديث بالبورصة والاستثمار والاحتكار واليهودية والماسونية ، وهو ما نحسب البعض لما يزل ينظر لما نراه ووثقناه ودللنا عليه وكأنه مخاطرة معتوهة !!

وفي الواقع ، إن مشكلة الفن الحديث تعد من أكثر الظواهر تعقيدا ومن أكثرها إثارة للانتباه في هذا القرن ، وإذا ما تعمقنا الرؤية عن كثر .. فإن معالم الأغراض الأساسية تتكشف في كل محاولات غرسه ، بشكل لا يمكن إنكاره . ومن المستحيل ألا نلاحظ كيف أن التطرف التشكيلي كان طرفا مصنوعاً ، يواكب في خطاه التطرف السياسي والاجتماعي لتدمير المجتمعات وحضارتها .

فلقد بدأ فسخ الفن وهدم حصونه في كل مكان تقريبا ، في وقت واحد بالأسلوب نفسه ، بالأشخاص أنفسهم والنظريات نفسها تقريبا - رغم التنوع الشديد وغير المنطقي للمسميات المستخدمة ، بل إن الخلفيات هي بعينها ، وإن لم نذكر منها سوى العبث والعشوائية والتدمير .. إن هذه الملامح مجتمعة ، والمتكررة بدأب وضراوة ، لا يمكن اعتبارها عقوبة أو من قبيل المصادفة ، بل إنها تمثل أحد أشكال الصراع الكبير الدائر بين التكامل القومي وتماسكه ، وتلك الدعاوى التي تتنادى بالتبعية وبدفع الخطى للارتقاء في أحضان الأشكال الجديدة للاستعمار في تنويعاته الأحدث ، ومن ثم لا يمكن - في ظننا - أن نفصل بين لعبة الفن الحديث والأبعاد السياسية القائمة .

إن مطلع القرن العشرين يكشف عن مؤشر واحد ، يقود أكبر عملية تخريب عرفها التاريخ . إنها تلك اللعبة الكبرى التي تتم إجمالا على مستويين : سباق التسليح ، الذي يسانده أو يواكبه سباق في المجال الفني الثقافي . وإن ما يعنينا في هذا المجال الأخير هو عملية تدمير الفن بالفن ، أو الوسيلة التي استخدم فيها الفن

كعنصر أساسى لتحويل المجتمعات والعقليات . كما أن هذا السباق يبدو وكأنه مزود بمهمة لا موارية فيها : تقتيت المجتمع الإنسانى ، وضبط إيقاع الحياة اليومية فى نسق بعينه ليخدم مصالح بعينها ، وتنميط الأشخاص ، ذلك التنميط الذى يؤدى إلى طمس معالم الأصالة الحضارية لكل بلد وضياغ معالمها ، وإلى سحق كل الفنون بوحشية ودأب ، وإلى تججير فن التصوير مما يبعده عن روح الفن ، وبالمثل ترويض الجمهور ، ومحو أى شىء من شأنه التمييز بين فن التصوير كفن إبداعى وفن الزخرفة ، الذى هو بطبيعته فن تجارى . كما يتضح - فى الآن نفسه- نوع من أمركة العقول والعادات يمثل حربا ، لا تقل ضراوة ولا رحمة عن الحرب العسكرية أو الذرية .

أما فى الأزمنة الحديثة، حيث ازداد إيقاع التطور سرعة بشكل مميز ، وحيث تقدمت العلوم بخطى شاسعة، فإن تغيير ظروف المعيشة بتعديل البناء الطبقي الاجتماعى من بلد لآخر فى مجتمع ما قد أصبح كل شىء فيه محسوبا بدقة بالغة، حتى أنه ما من شىء قد ترك اعتباطا أو بلا مقابل، لذلك نجد أن المستحوزين على السلطة هم مجرد حلقة من حلقات مديريها . وقبل أن تلقى نظرة على أولئك المديرين الحقيقيين للتدمير، والذين أخذوا على عاتقهم تحريك الدمي التى غفلت عيون كثيرة عن الوعى بأهدافها الخفية، تحت أشكال براقمة من الصيغ، نطنه مهما أن نرى كيف كان يبدو المجتمع الإنسانى حتى منتصف القرن الحالى .

فمن الناحية العلمية ، يمكن القول إجمالا : إن الأبحاث المتصلة بالذرة وتفتيتها كانت تجرى على قدم وساق ، فى الوقت نفسه الذى كان الاهتمام بالفضاء قد بلغ شوطا بعيد المدى ، تواكبت معه أبحاث الإلكترونيات وما نجم عن ذلك كله من اختراعات مدنية أو حربية ، وكلها مع الأسف فى خدمة الدمار والسيطرة على الشعوب .

ومن الناحية الفلسفية ، ها هى مبادئ فلسفة نيتشه ، الذى كان يحلم بجيل من المدمرين الذين ينتشرون فى كل مكان ، يقومون بالهدم والفوضى والتدمير . وها هى أصداء فلسفته تتردد فى مذهب الدادية الذى قامت بنيته الأساسية على : «تدمير العالم بغية خلق عالم جديد ليس به أى شىء» ! وها نحن نرى معالم التدمير المستمرة فى مذهب السريالية .

ولقد كانت موجة الدمار العارمة مصحوبة بفوضى لا سابقة لها عبر التاريخ ، وكان ناموسها هو : تحطيم كل القيم والمعايير ، مع حرص بالغ على إخفاء الأهداف الحقيقية بإلباس الأشياء طابع الغموض ، ومواكبة الأهداف بحملات فى كل وسائل الاتصال . لقد تضاعفت الجهود فى نهاية المطاف بغية تدمير الإنسان وتدمير العقل وتدمير حب الوطن والارتباط به .

أما من الناحية السياسية ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت منتصرة بعد الحربين العظميين واستخدامها للقنابل الذرية . وتم بالفعل تقسيم العالم إلى معسكرين ، ينتميان إلى أيديولوجيتين مختلفتين شرقاً وغرباً ، على حد تعبير المصطلح السياسى . وما يعنينا فى هذا البحث إنما هو ما حدث فى الغرب إذ إن لعبة الفن الحديث قد تمت فيه وانطلقت منه واستشرت من خلاله . أما الشرق ، فما أن تبين أن الفن الحديث ليس إلا وسيلة لاستبعاد الشعب عن الواقع الذى يحيط به حتى استبعده من أراضيه . والبلدان الشرقية الوحيدة التى نرى فيها بعض الاتجاهات التجريدية ، هى البلدان التى تميل إلى الغرب لسبب أو لآخر ، والتى يمثل تناول قضيتها خروجاً عن إطار هذا البحث .

وفى الوقت نفسه تمثل هذه الفترة بداية الحرب الباردة ، التى تعد صراعاً حقيقياً من أجل السيطرة على عقل الإنسان ، والتى بزغ من خلالها مشروع مارشال لمساعدة أوروبا ، ثم حلف شمال الأطلسى ، ويهدف الاثنان تكوين نقط ارتكاز ومحاور أمريكية . ونحن وإن كنا نغفل الكثير من المعطيات هنا ، فإننا لا يمكن أن نغفل أن هذه الفترة تمثل تقسيم فلسطين وزرع الكيان الصهيونى فى المنطقة العربية .

أما من الناحية الفنية ، فنرى عجيلاً من المذاهب العابرة ، وإفراطاً فى استحداث الألفاظ واستخدام المواد التى تعدت كل ابتذال ومهانة . لقد كانت رغبة دائبة مسعورة لنشر وفرض النمط الزرى نفسه ووسيلة التعبير نفسها فى كل مكان . والأدهى من ذلك كله ، ذلك التحول الذى رأينا طرفاً منه عندما تبدلت قيمة الفن ليصبح قيمة استثمارية ، وتحولت لوحات الفن الحديث بخاصة إلى سندات تواكب معها ارتفاع الأسعار إلى أرقام فلكية ، وأصبح الفن الحديث مقياساً مطلقاً فى كل المتاحف وقاعات العرض . ولترسيخ هذا الغث الذى دمر كل قيمة للفن الأصيل ،

لم يتركوا أى وسيلة إلا اتبعوها من أجل اصطناع جذور تثبت أصوله وليصفوا عليه شرعية هياها أن تكون ، ومن ثم استخدموا الكنيسة كمحاولة أخيرة لتعميده وإضفاء قدسية وهمية عليه .

إن بإمكاننا أن نرى التخريب نفسه والأهداف المدمرة نفسها ومحاولة اجتثاث جذور التراث الإنسانى ، وطمس تطوره فى كل مستويات الحضارة والثقافة الإنسانية ، تقوم بها الأيدى الخفية نفسها والمؤسسات المعاونة نفسها والشخص المصنوعة نفسها وإن اختلفت الأسماء والمسميات . وفى المسرح يمكننا أن نرى العبث بمشققاته ؛ وفى الموسيقى نرى تنافر الأصوات وضجيج تلاطمها ؛ وفى مجال العمارة سنرى التكرارية الشوها نفسها للكتل الصماء المصفدة للحديد والصلب التى تمحو كل آثار التراث العمرانى المحلى (*). وذلك باسم التقنيات الحديثة واختزال الزمن ، وكلاهما يفترض أنه فى خدمة الحضارة لا معول هدم لها . كما شهدت كل مجالات الإبداع الإنسانى بل والمعطيات الثقافية والحضارية ، عملية إلغاء أو تشويه للماضى بكل أشكاله الحضارية لتغرس محله نمطية واحدة مفروضة شوها فى كل مكان .

حتى الأسلوب واللغة اللذين يعدان أكثر مجالات التعبير والتحاور ارتباطا بالجنس البشرى وبالتراب الوطنى ، كادما يصيبهما التصدع والدمار أنفسهما . إن لغة الإسبيرانتو Esperanto ، التى ابتدعها زامنهوف Zamenhof عام 1887 ، كادت تفرض كلغة دولية ، وهى لغة قائمة على أقصى قدر ممكن من مقاطع كلمات دولية ، وعلى جمود العناصر الأجرومية وثباتها . إلا أن محاولة تدمير اللغات وفصل الكلمة عن مضمونها قد فشلت لأن الكلمة - استثناء من أى مجال تعبيرى آخر - قد وجدت بناء على مضمونها ؛ فالشكل والمضمون هنا يمثلان وحدة متماسكة لا يمكن فصلها .

ونحن إذ نشير إلى أن الإنتاج الفنى - مثله مثل أى عمل إبداعى آخر - يتم تحقيقه فى مناخ ظروف سياسية واجتماعية وثقافية وتقنية بعينها ، مستعينا بوسائل التعبير القائمة ، ليدل لنا على مقومات قوى الإنتاج وطبيعتها ، مما يشير

(*) رغم كل شيء فقد ثار المجتمع الفرنسى فى السبعينيات ضد موجة العمارة الحديثة : حفاظاً على التراث والطابع القومى .

إلى استحالة أن يوجد مفصلاً عن الظروف التي تحيط به ويتأثر بها ويؤثر فيها في الآن نفسه ؛ لذلك حرصت تلك القوى المسيطرة على الواقع على أن يصاغ العمل الفني عبر أهدافهم ، في الوقت الذي يسكون فيه بزمأم أموره كافة ، وينحدرون بقممه العالية من خلال معرفتهم اليقينية بأن التعبير لاينتمى إلى المجال التقنى فحسب ، وإنما يتضمن أيضاً قطبين يحتويان على كل إمكانات تحقيقه ، هما : السلطة والقراء .

وعند إقامة معرض ما ، على سبيل المثال ، لابد أن يطرح سؤال بعينه : من هم أولئك الذين يقررونه ؟ وذلك بجانب تساؤلات أخرى عمن يختارون الأعمال والفنانين ، والذين يقولون النفقات الباهظة ، ويقومون بتوجيه ملامح هذا المعرض . ومن ثم من هم أولئك الذين يقومون بكتابة نص الكتالوج أو يتولون الجانب الإعلامى كالصحافة والدعاية وأجهزة الإعلام بعامه ؛ كى يتمكنوا من تلقين وتزيين تلك الرسالة التي يتعين على الجمهور العادى أن «يتجرعها» ؟ وهى رسالة لا تنتمى إلى الحقيقة بقدر انتمائها إلى استراتيجية مخططات أولئك القائمين على أمر اللجنة فى كل المواقع ؛ كى يفرضوا ما يريدون بغية تدعيم وتثبيت كيانهم وتحقيق أهدافهم .

إن الحقيقة المؤسفة إنما تكمن فى أن الكشف عن الحقيقة أمر صعب المنال لكثرة الأدوار وكثرة المؤدين الذين يعملون سواء بحسن نية أو عن وعى بدورهم ووقعهم فى حبال هذه القوى ، التي فى يدها زمام المبادرة واتخاذ القرار وفرضه فى كل المجالات عبر إمكانات هائلة وعلاقات متشابكة ومحكمة التخطيط . ومن هنا ، فإن ما يقال عن إقامة معرض ما يمكن أن يقال عن كل الأنشطة الأخرى .

ولنعد إلى بداية الحديث فى هذه النقطة ، التي أردنا أن نبين من خلالها تلك «السلطة صانعة القرار ، وكيفية تسللها إلى كل المجالات . وهنا يبرز دور الولايات المتحدة الأمريكية التي خرجت منتصرة فى منتصف هذا القرن ، واستحوذت على حكومتها الفيدرالية فكرة الزعامة الكونية المتسلطة ، ومن ثم تلك الرغبة التي لا تنزعج قيد أنملة عن قيادة الكرة الأرضية ، بعدما تشبعت بعقيدة سيادة الأيديولوجية الأمريكية النفعية ، التي تقوم فى وجه من أوجهاها على أن الغاية تبرر الوسيلة ؛ لذا فإنها قد أدرجت الثقافة رسمياً ، ضمن تلك الترسانة الرهيبة التي تمتلكها بغية التأثير على العالم الخارجى .

إن ما أفصح عنه أزيجنجيف بجيزنسكى - وسبقت الإشارة إليه - عن الإشعاع الأمريكى، الذى يجب أن يتم «بفضل العلوم والفنون بقدر ما يتم ذلك بالسلاح والاقتصاد، يعد بمثابة حقيقة جليلة واضحة ومعاشة. لكن أى فنون هذه التى يحاولون فرضها ؟ ذلك هو السؤال الذى يكشف الدور والهدف الذى صنعه الأيدى التى لم تعد خفية، والتى تستخدم كل الوسائل للتدمير والعبث بالقيم. وأيا كان الأمر فإن بجيزنسكى لم يقل هذه العبارة اعتباطاً، وإن كانت تمثل الغاية النهائية، التى تسعى إليها بلده وصولاً لخلق الإجماع الدولى.

أما من وجهة النظر التقنية .. فإن الزعمين الأساسيين اللذين قدمهما فنانو التجريد لتبرير سبقهم بحجة التجديد، لا أساس لهما من الصحة. فسواء أكان ذلك بسبب آلة الفوتوغرافيا التى لا بد لهم أن يتفادوا الشبه بها، أم بسبب الطبيعة التى لا بد لهم من الابتعاد عن محاكاتها، فإن هذين العنصرين لم يكفا عن إمداد فهم بروى لا تحد رغم التحاليل الذى يلجئون إليه.

لقد سبق أن رأينا كيف أن الفوتوغرافيا، كفن مستقل، قد ساعدت الفنانين بمن فيهم مصورو الفن الحديث الذين يهرون منها شكلاً، من حيث إنهم يلجئون إلى إمكاناتها اللانهائية، والتى يعد الكثير منها خاصة فى بعض مجالات العلوم إمكانات تجريدية بحتة.

ومن ناحية أخرى، فإن الطبيعة التى ابتعدوا عنها بزعم تفادى التكرار لم تكف عن أن تكون نبعاً متنوعاً لا ينضب، وكانت مدداً دائماً يلهم الفنان منذ أقدم الحضارات، ومع ذلك فمن الصعب أن نجد تعبيراً متماثلاً لفنانين مختلفين حيال المنظر نفسه أو الشيء نفسه.

أما فيما يتعلق بتلك العناصر الزخرفية، وتلك الأعمال التقنية البحتة التى تقدم بها مصورو الفن الحديث، فلا جديد فيها؛ لأن القوانين التوافقية والخطوط الهندسية التى يزعمون أنها من ابتكاراتهم ويقدمونها على أنها رؤية جديدة، إنما هى قديمة قدم ذلك الكون الذى تنبع منه.

ومن هنا نرى أن محاولة اختلاق ما ادعوا أنه أسلوب عالمى، إنما هى محاولة تخريبية تفرغ الفن من شغفه ومن غنائه الداخلى، ولا يمكن أن تتمخض - من الناحية التشكيلية أو الجمالية - إلا عن نظريات فظة وأشكال مبهضة.

ولقد كان القاسم المشترك لكل هذه المحاولات هو: الرفض الدائم والمعتمد

للأساليب والأهداف الفنية المتوارثة ، وإلغاء الحاضر أو الواقع الذى يحيط بالفنان ويعيش فيه كمحور للإلهام ، وانتزاع للأصالة القومية من الأعمال وتمويه هويتها . وكل ذلك يعنى التدمير التام لقيمة الفن الحق ، ومفهومه الذى تم تكوينه وممارسته عبر العصور .

والأدهى من ذلك كله ، أن المقصود من عملية التدمير هذه - بعد ما كشف جمهوره من شرفاء العالم تلك الأهداف الخفية وراء لعبة الفن الحديث - إنما هو اجتثاث معالم حضارة البحر الأبيض المتوسط ، ومحو جذورها ، مثلما سبق وحاولوا مع الحضارة المصرية القديمة ، التى أرادوا أن ينزعوا عنها قيمتها التاريخية والحضارية كأهم ومنبع لكل الحضارات .

إن هذا التسلط العدمى ، وهذه الرغبة المسعورة المحمومة فى التدمير والتشويه ، إنما تهدم الفكر والفن والمعنويات والتراث والثقافة ؛ إذ تحولها إلى معطيات عبثية ؛ مما يوجب فكرة التدمير التى سادت منذ مطلع القرن ، والتى اكتست بمظهرين مختلفين من ناحية الشكل والمضمون ، هما : الحرب والفن الحديث : الحرب كمجال عمل سياسى وعسكرى ، والفن الحديث كمجال عمل نفسى ومعنوى وسياسى أيضا بقدر ما هو حرب تدميرية لكل تراث إنسانى .

إن قمة التراجيديا الهزلية التى قام بها قادة هذا التدمير ، إنما هى إضافتهم لشعار «الحرية» على هذا الانحطاط الجذرى المتعمد ، بينما الحرية فى مضمونها الحق التزام واجب يخدم قيمتها معاً .

هناك كلمات وحقائق قد توغلت جذورها فى المجتمع الحضارى الراهن ، وعلى الصعيد الدولى ، بحيث لم تعد تتطلب أى جهد لتفسيرها أو لتقديم الأدلة عليها ؛ فالحديث عن معسكرين أيديولوجيين (*) ، أو عن السياسات المخططة سلفاً ، أو التضافر السياسى الاقتصادى ، والاحتكار ، والمافيا والصهيونية ، أو حتى الماسونية يعنى تناول كلمات أو موضوعات قائمة بالفعل ومتداخلة فى الحياة اليومية !

ومن الطبيعى أن نذكر فى هذا السياق ما يراه البعض من العلاقة الحتمية والعضوية بين الكيان الصهيونى وأمريكا . وها هو هنرى كوستون يكتب عام

(*) كتب هذا البحث عام ١٩٨٤ ، أى أنه لم يكن قد تم إقلاع المعسكر اليسارى بعد ، وهو ما قد تم سنة ١٩٩٢ .

1942 عن أمريكا باعتبارها «معقل إسرائيل» ، وهو ما ليس فى حاجة منا لتأكيد ؛ ذلك أن الأحداث المعاشة تثبت صحة هذه المقولات .

ومن هنا فإن رؤية أو إثبات أن الفن الحديث هو التدمير المكمل للتفجرات التى قام بها العلماء فى تفجير الطاقة الذرية ، ليس ابتداء ولا إفراطا فى استخدام الألفاظ ؛ إذ إن الوقائع تفرض نفسها ، بقدر ما تفرض تساؤلا ملحا عن ذلك التقارب الذى يتم تلقائيا بين شتى مجالات هذا التدمير الجماعى ، وهذه الإبادة الجماعية لكل الفنون ، ولكل الحضارات الإنسانية ، والذى تم بالفعل تخريب أعرق أسسها وأبعدها امتدادا .

إننا عندما نقوم بالربط بين فكرة السيادة الأمريكية وسيطرة أيديولوجياتها وأسلوب معيشتها المفروض من ناحية ، والتوسع الصهيونى وفكرة شعب الله المختار ، والنواميس المبرمة التى تتجاوز بوقائعها وبشاعتها ما جاء فى «بروتوكولات حكماء صهيون» من ناحية أخرى ، والماسونية صنيعة اليهودية وفكرة إقامة ديانة دولية من ناحية ثالثة ، ومعنى «العمل الأعظم» Grand Oeuvre (وهو مصطلح مستعار من الماسونية ويعنى «عملية تحويل العالم») ، الكامن فى الدادية ، وهى أكثر المذاهب فوضوية وتدميرا منذ مطلع هذا القرن . من ناحية رابعة ، فإننا نرى خطأ واحدا يرتسم فى أفق هذه المعطيات مشيرا إلى إقامة مملكة دولية ، تحت زعامة الأيادى التى ظنت نفسها خفية .

أندب الخسائر والخراب؟! ترى هل نقف مكتوفى الأيدى ونضحى بالبقية الباقية من قيم إنسانية مستقرة وفن للحياة ، ونستسلم للعبة وصناعها ، أم نواجه ونكشف تلك الأساليب التى تجاوزت فى روحها التدميرية كل الأبعاد؟!

أيا كانت نتائج هذه المسرحية الهزلية المأسوية ، وأيا كانت أبعاد ونتائج لعبة «الفن الحديث» ، فإننا نظن أن الوقت قد حان للبحث عن خلاص ، ذلك الخلاص الذى يكمن فى : العودة إلى الذات ونبذ كل دخيل يخدم أهداف صناع اللعبة ، العودة إلى التراث القومى وجذوره ، إلى الأصول المميزة للشخصية الأصلية المتأصلة والخالدة لكل بلد ولكل فنان لتستقيم الرؤى ويستعيد الواقع وجهه الإنسانى .

كشف بأهم مذاهب وجماعات

الفن الحديث *

Abstraction chromatique 1952	التجريد اللوني 1952 **
Abstraction création 1931	التجريد الإبداعي 1931
Abstraction géométrique 1945	التجريد الهندسي 1945
Abstraction lyrique 1947	التجريد الغنائي 1947
Action painting 1945	فن التصوير الحركي 1945
Aéro-peinture 1929	فن التصوير الهوائي (المتطاير) 1929
Affiches déchirées	فن الإعلان الممزق
All over art 1947	فن تغطية سطح الشيء 1947
American abstraction group 1936	جماعة التجريد الأمريكي 1936
Antinaturalisme chromatique	الفن المضاد للطبيعة اللوني
Art abstrait 1910	الفن التجريدي 1910
Art autre 1952	الفن الآخر 1952
Art brut 1935	الفن الخام 1935
Art cinéique 1955	الفن الآلي المتحرك 1955
Art conceptuel 1969	الفن التصوري 1969
Art concret 1930	الفن العياني 1930
Art électrique 1966	الفن الكهربائي 1966

(*) لانزعم أن هذا الكشف يتضمن كل المذاهب والتيارات والجماعات .

(**) تختلف المراجع في تحديد بعض التواريخ كما تغفل بعضها الآخر .

Art expérimental	الفن التجريبي
Art fantastique	الفن التخيلي (الفانتازي)
Art informel 1950	الفن اللاشكلي 1950
Art magnétique	الفن الممغنط
Art mécanique	الفن الميكانيكي
Art naïf (début xx's)	الفن الفطري (مطلع القرن العشرين)
Art non figuratif	الفن اللاتصويري
Art non objectif 1919	الفن اللاموضوعي 1919
Art pauvre 1966	الفن الفقير 1966
Art sacré 1919	الفن المقدس 1919
Art visuel 1960	الفن البصري 1960
Art auto destructif	الفن المتدمر ذاتيا
Ashcan School 1905	مدرسة فن القمامة 1905
Automatisme 1942	الأوتوماتيكية 1942
Avant gard groupe 1960	جماعة الطليعة 1960
Bauhaus 1919	مدرسة الباوهاوس 1919
Blaue Reiter 1911	جماعة الفارس الأزرق 1911
Body Art 1962	الفن الجسدي 1962
Brucke, die 1905	مدرسة القنطرة 1905
Brutalisme	مذهب الشراسة
Cadre supertemporel	إطار فوق زمني
Calligraphie (école du pacifique) 1934	الخط الجمالي (مدرسة الباسفيك) 1934

Camden Town group 1911	جماعة كامدن تاون 1911
Cercle et Carré 1929	جماعة الدائرة والمربع 1929
Cinétisme 1955	فن الآلية المتحركة 1955
Cobra groupe 1948	جماعة الكوبرا 1948
Collage 1912	الكولاج (الاصق) 1912
Color field 1940	فن المساحات اللونية 1940
Combine painting 1935	فن التصوير المركب 1953
Compressionnisme	مذهب الضغط
Computer Art 1965	فن الكمبيوتر 1965
Conceptualisme	مذهب التصورية
Constructivisme 1920	المذهب البنائي 1920
Contestation 1968	مذهب الاعتراض 1968
Continuità group 1961	جماعة الاستمرارية 1961
Coulage 1939	مذهب الانسكاب 1939
Cubisme abstrait	التكعيبية التجريدية
Cubisme analytique à tendances abstractisantes 1910	التكعيبية التحليلية ذات الميول التجريدية 1910
Cubisme constructiviste	التكعيبية البنائية
Cubisme orphique 1912	التكعيبية الأورفية 1912
Cubisme physique	التكعيبية الطبيعية (الفيزيائية)
Cubisme synthétique	التكعيبية العلمية
Cubism synthétique 1907	التكعيبية التأليفية 1907
Cubi naturisme	التكعي طبيعية

Cubi - futurisme 1913	التكعي مستقبلية 1913
Dadaism 1916	الدادية 1916
Décollage 1962	مذهب النزاع 1962
Décalcomanie 1936	مذهب النقل الملون 1936
Divisionisme	الانشقاقية
Donkey's tail group 1911	جماعة ذيل الحمار 1919
Dripping 1947	التقطيرية 1947
Earth work 1967	جماعة العمل الأرضي 1967
Eat Art	الفن الطعامي
Ecole de Paris 1905	مدرسة باريس 1905
Ecole Ulm	مدرسة أولم
Elémentarisme 1924	العناصرية 1924
Space groupe 1935	جماعة الفضاء 1953
Expressionnisme 1911 - 1918	التعبيرية 1911 - 1918
Expressionnisme abstrait 1945	التعبيرية التجريدية 1954
Fauvisme 1905	الحوشية 1905
Figuration	التصويرية
Figuration narrative 1960	التصويرية القصصية 1960
Fluxus 1960	التدفقية 1960
Fonctionnalisme	الوظيفية
Formisme 1917	الشكلية 1917
Frottage 1925	الدعك 1925

Fumage 1937	الدخن 1937
Futurisme 20.2.1998	المستقبلية 1909/2/20
Géométrisme	الهندسية
Géométrisme abstrait	الهندسية التجريدية
Graphisme	الخطية
Grattage 1938	الكحتية 1938
Gutai group 1951	جماعة جوتاي 1951
Happening 1952	الحدث 1952
Hard edge 1958	فن الحافة الحادة 1958
Hédonisme	المتعة
Hypergraphisme	فوق الخطية
Jeune peinture 1945	فن التصوير الفني 1945
Junk Art 1950	فن الخردة 1950
Lettrisme 1945	الحرفية 1945
Luminographie	الخط الضوئي
Mail Art 1960	الفن البريدي
Méca esthétique intégral	التكامل الجمالي الميكانيكي
Mec'art 1962	الفن الميكانيكي 1962
Minimal Art 1966	الفن الأدنى 1966
Moderne style 1900	الأسلوب الحديث 1900
Mouvement nucléaire	الحركة الذرية
Muralisme 1920	الفن الحائطي 1920

Musicalisme	الموسيقية
Naturalisme abstrait	الطبيعية التجريدية
Néo Constructivisme	البنائية الجديدة
Néo dada 1960	الدادية الجديدة 1960
Néo figuration	التشكيلية الجديدة
Néo géométrisme	الهندسية الجديدة
Néo gestualisme	الحركية الجديدة
Néo impressionnisme	التأثيرية الجديدة
Néo plasticisme 1912	التشكيلية الجديدة
Néo réalisme 1960	الواقعية الجديدة 1960
Non art ou anti forme 1969	اللافن أو ضد الشكل 1969
Non figuration impressionniste	اللاشكل التأثيري
Nouveau réalisme 26.10.1960	الواقعية الجديدة 1960/10/26
Nuagistes groupe 1954	السحابيون 1954
Nouvelle abstraction	التجريدية الجديدة
November gruppe 1918	جماعة نوفمبر 1918
Objecteurs groupe 1965	المعارضون 1965
Op'art 1965	الأوب آرت أو الفن البصري 1965
Orphisme jan . 1913	الأورفية يناير 1913
Panique 1962	الفرعية 1962
Peinture acrylique lyrique 1968	فن التصوير الأكريليكي الغنائي 1968
Peinture post moderne	فن التصوير بعد الحديث

Perspectives métaphisiques	فن المنظور الميتافيزيقي
Photomontage 1918	فن تشكيل مصور (فوتوموناج) 1918
Photoréalisme	التصويرية الواقعية
Pop'art 1950	البوب آرت أو الفن الشعبي 1950
Pop'art assemblagiste 1950	البوب آرت التجميعي 1950
Pop'art pictural	البوب آرت التصويري
Post impressionnisme	ما بعد التأثيرية
Post painterly abstraction 1964	ما بعد التصوير التجريدي 1964
Précisionnistes groupe 1930	جماعة التدقيقين 1930
Purisme 1918	المذهب النقائي 1918
Rationalisme	العقلانية
Rayonnisme 1911	الإشعاعية 1911
Ready made art 1913	الفن السابق التجهيز 1913
Réalisme constructiviste	الواقعية البنائية
Réalisme magique 1930	الواقعية السحرية 1930
Réalisme radical	الواقعية الجذرية
Réalisme socialiste 1935	الواقعية الاشتراكية 1935
Responsive eye	العين المستجيبة
Section d'or groupe 1912	جماعة القطاع الذهبي
Semantic painting 1950	فن المعنى (السيمانطيقى) 1950
Sérialisme	السلسلية
Sharp focus realism	الواقعية الشديدة الحدة

Simultanéisme	التتابعية
Spatialisme 1946	الفضائية
Spatio dynamisme	الفضائية الدينامية
Stripes painting	التصوير التخطيطي
Structure spacial	البنية الفضائية
Stijl, de 1917	دى ستيل 1917
Superréalisme	ما فوق الواقعية
Support surface 1968	السطح المساند
Suprématisme 1918	فن التصوير الهندسى 1918
Surréalisme 1919	السريالية 1919
Symbolisme non figuratif	الرمزية اللاشكلية
Synchronisme 1912	التزامنية 1912
Tachisme 1954	البقعية 1954
Tamponnage 1925	التصادمية
Unisme 1923	الوحدوية 1923
Unit one group 1933	جماعة الوحدة رقم واحد 1933
Valet de Carreau groupe 1910	جماعة الولد الدينارى 1910
Vérisme	الحقيقية
Visualisme	البصرية
Vorticisme 1912	الدوامية 1912
Zebra groupe 1962	جماعة الحمار الوحشى 1965
Zero groupe 1958	جماعة الصفر 1958

كشف المراجع

- (1) AGEE, Philippe: **Inside the compagny** Penguin Book, London, 1975 .
- (2) ANKER, Valentina: **La recherche d'un art logique** L' âge de l'Homme, Lauzanne, 1979.
- (3) APOLLINAIRE, Guillaume: **Les peintres cubistes** Hermann, Paris, 1965.
- (4) ARANYOSSUY, G.: **La presse antisémite en URSS** Albatros, Paris, 1978.
- (5) AYCOBERRY, Pierre: **La question nazie** Seuil, Paris, 1979.
- (6) BAUDIN, Louis: **La monnaie et la formation des prix** Sirey, Paris, 1947.
- (7) BEHRMAN, N.-S.: **Duveen, la chasse aux chef-d'oeuvres** Hachette, Paris, 1935.
- (8) BENDA, Julien: **La trahison des clercs** Paris, 1937, 1977.
- (9) BERGER, René: **Art et communication** Casterman, Tournai, 1972.
- (10) BERNIER, Georges: **L'art et l'argent. Le marché de l'art au XXe. S.** Laffont, Paris, 1977 .
- (11) BRENNER, Hildegard: **La politique artistique du National Socialisme** (tr. de l'Allemand) Maspero, Paris, 1980 .
- (12) BRETON, André: **Le Surréalisme et la peinture** Gallimard, Paris, 1928.

- (13) BRIMO, René: **L'évolution du goût aux Etats-Unis d'après les collections James Fortune**, 1938.
- (14) BRION, Marcel: **L'Art Abstrait** Albin Michel, Paris, 1956.
- (15) BRU, C. B. : **Esthétique de l'abstraction. Essai sur le Problème actuel de la peinture**, P. U. F. Paris, 1955.
- (16) BRZEZINSKI, Zbignev: **La Révolution Technétronique** Calman Lévi, Paris, 1971 .
- (17) CALMETTE, Joseph: **Saint Bernard**: Fayard, Paris, 1953.
- (18) CABANNE, Pierre: **Le roman des grands collectionneurs** Plon, Paris, 1961.
- (19) CAILLOIS, Roger. **Méduse et Cie**. Gallimard, Paris, 1960.
- (20) CASSOU, Jean: **Panorama de l'art contemporain** Gallimard, Paris, 1960 .
- (21) CASSOU, Jean. **Situation de l'art moderne** Minuit, Paris, 1960 .
- (22) CELINE: **Bagatelles pour un massacre** Denoël, Paris, 1938.
- (23) CHAMBERLIN, E. H. : **La théorie de la concurrence monopolistique** P. U. F., Paris, 1953 .
- (24) CHARMET, G. : **Dictionnaire de la peinture moderne** Larousse, Paris, 1978.
- (25) C.I.E.R.C.E. : **L'art face à la crise** Colloque de l'art contemporain, Université Ste. Etienne, 1980.
- (26) CLAIR, Jean. **Considérations sur L'état des beaux arts** Gallimard, Paris, 1938 .

- (27) COHN, : **Histoire d'un mythe, La conspiration juive et les protocoles des Sages de Sion.** Gallimard, Paris, 1967.
- (28) COMAY, Joan. **Every one's guide to Israel** double day, 1964.
- (29) COMBET G.: **Calléop et minos. Essai d'une physique de l'art** de Clérmont, Paris, 1972.
- (30) COOPER, Douglas: **Les grands collectionneurs privés.** Plon, Paris 1963 .
- (31) COSTON, Henry: **L'Amérique bastion d'Israel** C. A. D., Paris, 1942 .
- (32) COSTON, Henry. **La Finance juive et les Trusts** J. Renard, Paris, 1942.
- (33) COSTON, Henry.: **Quand la Franc Maçonnerie gouvernait la France** C. A. D., Paris, 1942.
- (34) COURTHION, Pierre: **De la critique d'art** Rome, 1956.
- (35) COUTURIER, M. A.: **Art et liberté spirituelle** Cerf, Paris, 1958.
- (36) DAIX, Pierre. **Nouvelle critique et art moderne** Seuil, Paris, 1968.
- (37) DENIS, H.: **Le Monopole bilatéral** P.U.F. Paris, 1943.
- (38) DENIS, H.: **Valeur et capitalisme** Sociales, Paris, 1957.
- (39) DEROGY, J. & CARMEL, H.: **Histoire secrète d'Israel** Olivier Orban, Paris, 1978.
- (40) DORIVAL. Bernard: **Les peintres du XXe. siècle** 2vol., Tisé, Paris, 1952.

- (41) DURET ROBERT, François: **Les 400 coups de marteau d'ivoire** Laffont, Paris, 1964.
- (42) DUTHUIT, Georges: **L'Image en souffrance** 2vol., Paris, 1961.
- (43) DUTHUIT, Georges: **Le Musée unimaginable** José Corti, Paris, 1956.
- (44) DUTHUIT, Georges: **Le feu des signes** Skira, Genève, 1962.
- (45) EBERLE, M.: **la presse grande puissance.**
- (46) ELLUL, Jacques: **L'empire du non sens** P.U.F., Paris, 1980.
- (47) ELLUL, Jacques: **L'illusion politique** Laffont, Paris, 1965.
- (48) ELLUL, Jacques: **La trahison de l'occident** Calman Lévi, Paris, 1975.
- (49) ELME, Patrick d': **Peinture et politique** Marne, France, 1947.
- (50) ESTIENNE, Charles: **Pour et contre l'art abstrait** Beaune, Paris, 1947.
- (51) ESTIENNE, Charles. **L'art abstrait est-il un académisme**, Beaune, Paris, 1950.
- (52) EUDES, Yves: **La conquête de l'esprit. L'appareil d'exportation culturelle américaine vers le tiers monde** Maspero, Paris, 1982.
- (53) FAIN, Gael: **Placements et spéculation en bourse** Payot, Paris, 1962.
- (54) FELS, Florent: **L'art vivant de 1900 à nos jours** 2vol., Cailler, Genève, 1956.

- (55) POSCA, François: **De Diderot à Valéry, les écrivains et les arts visuels** Albin Michel, Paris, 1960.
- (56) FRANCASTEL, Pierre: **Peinture et société** Audin, Lyon, 1951.
- (57) FRANCASTEL, Pierre: **Art et technique** Minuit, Paris, 1956.
- (58) FRANCASTEL, Pierre: **Etude de sociologie de l'art** Paris, 1970.
- (59) FRANCELIN, Catherine: **Peinture américaine** Galilée, Paris, 1980.
- (60) FRANCK, C. & HERSZLIKOWICZ, M.: **Le sionisme** P. U. F., Paris, 1980.
- (61) GARAUDY, Roger: **60 Oeuvres qui annoncent le future** Skira, Genève, 1974.
- (62) GIMPEL, Jean: **Les batisseurs de cathédrales** Seuil, Paris, 1958.
- (63) GIMPEL, Jean: **Journal d'un collectionneur de tableaux** Calman Lévi, Paris, 1963.
- (64) GIMPEL, Jean: **Contre l'art et les artistes** Seuil, Paris, 1968.
- (65) GUAZAVA, Georges: **Art et Crime** N. E. L., Paris, 1961.
- (66) GUAZAVA, Georges : **L'Imposture de l'art moderne industrialisé** N. E. L., Paris 1976.
- (67) HADJINICOLAOU, Nicos: **Histoire de l'art et lutte des classes** Maspero, Paris, 1978 .

- (68) HITLER, Adolf: **Mein Kampf** N. E. L. Paris, 1934.
- (69) HUYGHE, René: **Sens et destin de l'art** Flammarion, Paris, 1967.
- (70) JAFFE, Hans Ludwig: **La peinture du XXe. Siècle** Pont - Royal, Paris , 1963 .
- (71) JAKOVSKY Anatole: **Les Peintres naifs** Bibliotheque des Arts, Paris, 1956.
- (72) JANOVER, Louis: **Surréalisme, art et politique** Galilée, Paris, 1980.
- (73) JOLIVET, René Louis: **Responsabilité de la guerre 1939 - 1940** Paris, 1943.
- (74) KAHNWEILLER, D. - H.: **Mes Galeries et mes peintres, entretiens avec f: Crémieux** Gallimard, Paris, 1961.
- (75) LACOSTE, Jean: **La philosophie de l'art** Paris, 1981.
- (76) LAUDE, Jean: **L'art face à la crise** Paris, 1980.
- (77) LAURENT, Jeanne: **Arts et pouvoir** CIERCE, Univ. Ste. Etienne, 1982.
- (87) LEBEL, Robert: **Premier bilan de l'art actuel** Soleil Noir, Paris, 1955.
- (79) LEBEL, Robert: **L'envers de la peinture** du Rocher. Monaco, 1964.
- (80) LEBON, Gustave: **La Psychologie des foules** P.U.F, Paris, 1963.
- (81) LENINE, V. I. : **Sur la littérature et l'art** Sociales, Paris, 1957.

- (82) LEON-MARTIN, Louis: **Les coulisses de l'Hôtel Drouot**
Livre Moderne, Paris, 1943.
- (83) LEVEL, André: **Souvenirs d'un collectionneur** Alain Mazo,
Paris, 1959.
- (84) LIGNON, Daniel: **Dictionnaire Universel de la Franc -
Maçonnerie** 2vol., Navarre., Paris, 1974.
- (85) MAILLAIRD, Robert: **La peinture abstraite** Paris, 1980.
- (86) MARIEL, Pierre: **Les Franc-Maçons en France** Marabout,
Paris, 1969.
- (87) MARX, KARL & ENGELS, Friedrich: **Sur la littérature et
l'art Social** Paris, 1954.
- (88) MAUCLAIR, Camille: **La farce de l'art vivant** N.E.L.,
Paris, 1930.
- (89) MAUCLAIR, Camille: **La crise de l'art moderne** C.E.A.,
Paris, 1941.
- (90) MOLES, Abraham: **Le Kitsch** Marne, Paris, 1971.
- (91) MOULIN, Raymonde: **Le marché de la peinture en France**
Minuit, Paris, 1967.
- (92) MULLER, J. & ELGAR, F.: **Cent ans de peinture moderne**
F. Hazan, Paris, 1979.
- (93) MULLER, J.: **La fin de la peinture** Idées, Gallimard, Paris,
1982.
- (94) NAUDON, Paul: **L'Humanisme maçonnique** Dervy
Livres, Paris, 1962.

- (95) NAUDON, Paul: **La Fran Maçonnerie** P.U.F., Paris, 1965.
- (96) PACKARD, Vance: **La persuasion clandestine** Calman - Lévi, Paris, 1958.
- (97) PACKARD, Vance: **Les obsédés du standing** Calman - Lévi, Paris, 1958.
- (98) PACKARD, Vance: **L'art du gaspillage** Calman - Lévi, Paris, 1958.
- (99) PARETO, Wilfredo: **Manuel d'économie politique** Giard, 1963.
- (100) PARIAT, Maurice: **Le tableau contemporain comme valeur de placement** R. Richon & D. Augias, Paris, 1961.
- (101) PARMELIN, Hélène: **l'art et les anartistes** Bourgeois, Paris, 1969.
- (102) PAROISSIN, R. P.: **Mystères de l'art sacré, des origines à nos jours** N.E., Debresse, 1957.
- (103) PARS, H. H.: **La vie dangereuse des oeuvres d'art** Hachette, Paris, 1958.
- (104) PEMJEAN, Lucien: **La Maffia Judéo-Maçonnique** Baudinière, Paris, 1934.
- (105) PEMJEAN, Lucien: **La presse et les Juifs** N.E.F., Paris, 1941.
- (106) PHAIDON: **Dictionary of twentieth century Art** Phaidon Press, Oxford, 1973, 1975, 1977.
- (107) PICARD, Raymond: **Nouvelle critique ou nouvelle imposture**, Paris, 1965.

- (108) PICHARD, Joseph: **Les Eglises nouvelles à travers le monde** Deux- mondes, Paris, 1960.
- (109) PLEKHANOV, Georges: **L'art et la vie sociale** éd. Sociales, Paris, 1953.
- (110) PRONCARD, Jacques: **La Franc-Maçonnerie ennemie de l'Europe** B. I. A., Paris, 1934.
- (111) RABBIN, René: **Pour comprendre facilement les formes les plus avancées de l'art moderne** La Guilde, Paris, 1976.
- (112) RAGON, Michel: **L'aventure de l'art abstrait** Laffont, Paris, 1956.
- (113) RAGON, Michel: **La peinture actuelle** Fayard, Paris, 1959.
- (114) RAGON, Michel: **Naissance d'un art nouveau** A . Michel, Parise, 1963.
- (115) RAGON, Michel: **1934/1939 l'avant guerre** Planète. Paris, 1968.
- (116) REGAMEY, R. P.: **Reconstruire les Eglises** Cerf. Paris, 1946.
- (117) REGAMEY, R. P.: **L'art sacré au XXe . Siècle** Cerf, Paris, 1952.
- (118) REY, Robert: **L' Homme, la technique et la nature** Rieder, Paris, 1938.
- (119) REY, Robert: **Contre l'art abstrait**, Flammarion, Paris, 1957.
- (120) RHEIMS, Maurice: **La vie étrange des objets** Plon, Paris, 1959.

- (121) RHEIMS, Maurice: **Collectionneurs** Ramsay, Paris, 1981.
- (122) RIBEMONT DESSAIGNES, Georges: **Déjà jadis ou du mouvement Dada à l'espace abstrait** Julliard, Paris, 1958.
- (123) RICARDO, David: **Principe de l'économie politique et de l'impôt** Alfredcostes, Paris, 1933.
- (124) ROBERT: **Dictionnaire Universel de la peinture** VI vol., Bruxelles 1975.
- (125) ROOKEMAKER, H.,-R: **I'art moderne et la mort d'une culture** Guebwiller, France, 1974.
- (126) RUDEL, Jean: **Les grandes dates de l'histoire de l'art** P.U.F. Paris, 1980.
- (127) RUSH, Richard: **Art as an investment** Prentice Hall, N., J., 1961.
- (128) SALMON, Pierre. **De la collection au Musée** La Baconnière, Neuchatel, 1958.
- (129) SEUPHOR, Michel: **La Peinture moderne, sa genèse, son expansion** Paris, 1962.
- (130) SHERIDAN: **Les scandales de l'hotel des ventes** Montaigne, Paris, 1926.
- (131) TROTSKY, Léon: **Litterature et Révolution** Julliard, Paris, 1964.
- (132) VALLAND, Rose: **Le front de l'art. Défense des collections françaises** Plon, Paris, 1961.
- (133) VALERY, Paul: **Pièces sur l'art** Gallimard, Paris, 1935.

- (134) VALLIER, Dora: **L'art abstrait** Livre de poche, Paris, 1980.
- (135) VENTURI. Lionello: **Histoire de la critique d'art** Bruxelles, 1938.
- (136) VERGNADS: Philippe: **Contrats conclus entre peintres et marchands** Rousseau frères, Bordeaux, 1958.
- (137) VIGNEAU, André: **Brève histoire de l' art de Niépce à nos jours** Laffont, Paris, 1963.
- (138) VEBER, J. P.: **La psychologie de l'art** P.U.F., Paris, 1958.
- (139) VOLLARD Ambroise, **Souvenirs d'un marchand de tableaux** Club des Libraires de France, Paris, 1957.
- (140) WEIDLE, Vladimir: **Les Abeilles d'Aristée. Essai sur le destin actuel des lettres et des arts** Gallimard, Paris, 1954.
- (141) WERTH, Léon: **La peinture et la mode** Grasset, Paris, 1945.
- (142) ZAHAR, Marcel: **L'art de notre temps, bilan** Emile Paul, Paris, 1969.
- (143) ZANDER Rudenstein, A.: **L'institutionnalisation du moderne, quelques observations historiques** Paris, 1981.

الفهرس

٧	تمهيد
١٣	المقدمة
٢٣	الفصل الأول : نظرة تاريخية
	الفن لحديث أداة تدمير متعمدة. سيل من الفنانين والمذاهب.
	تتجير الفن وترويض الجمهور. الفن الحديث فى بعض البلدان.
	إفراط فى المسميات والمواد المستخدمة.
٧٩	الفصل الثانى : جهاز الغش
	دور الفنان من مبدع إلى مهرج. جامعو التحف والمستثمرون.
	مافيا الاحتكار والبورصة. يهلوانيات نقاد الفن. الهوس المتحفى.
	البحث عن جذور. الدادية والسريالية أهم معاول الهدم والعدمية.
١٦١	الفصل الثالث : التدمير بالمطرقة
	الهدامون وتوافق عمليات التدمير. دور المانيا الهتلرية والصهيودية
	الماسونية. التمويل اليهودى وزرع الكيان الصهيونى. المافيا
	اليهودية الماسونية وأمريكا. نزعة سيادة العالم.
٢١٩	الخاتمة
٢٢٧	كشف بأهم مذاهب وجماعات الفن الحديث
٢٣٥	كشف المراجع
٢٤٧	الفهرس

نماذج من الفن الحديث



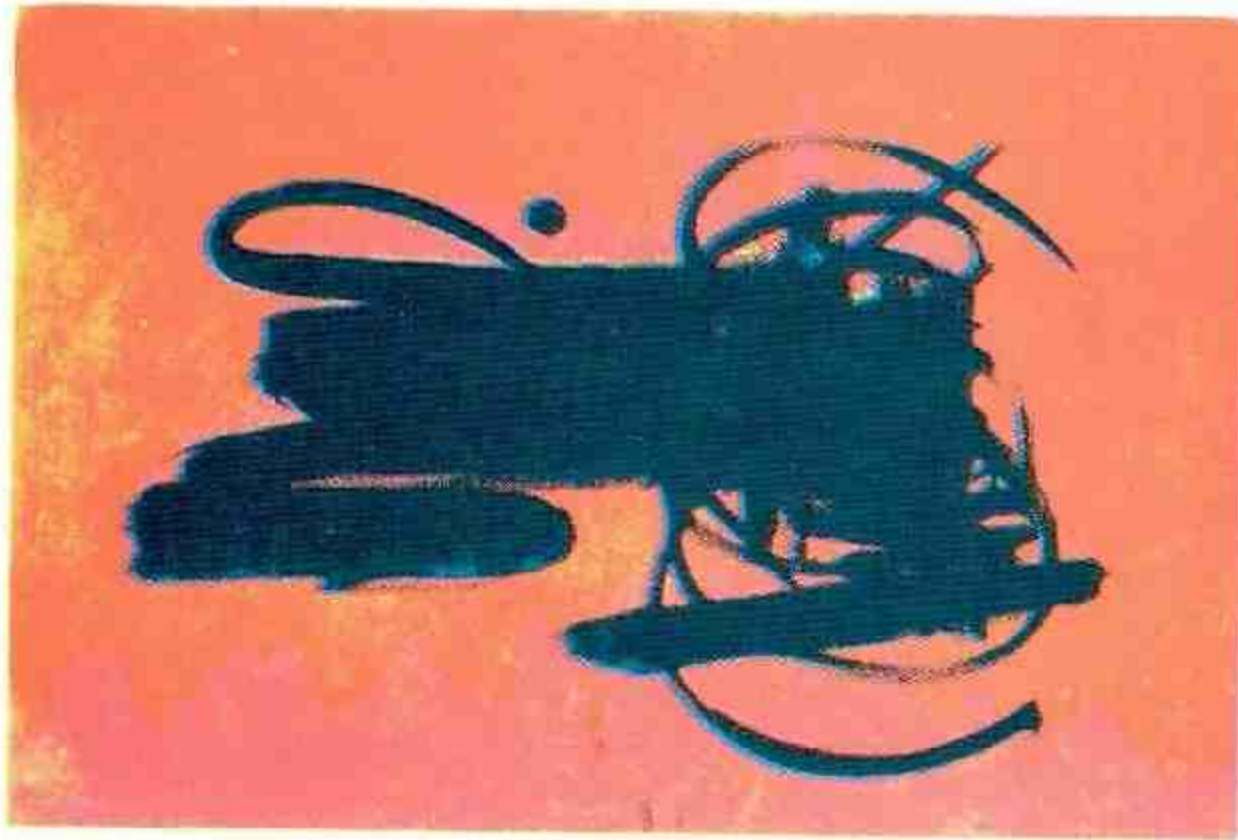
بول كلي : فيالات فلورنسية ١٩٤٦



جان دوبوفيه :
طريق وأشخاص - ١٩٤٤



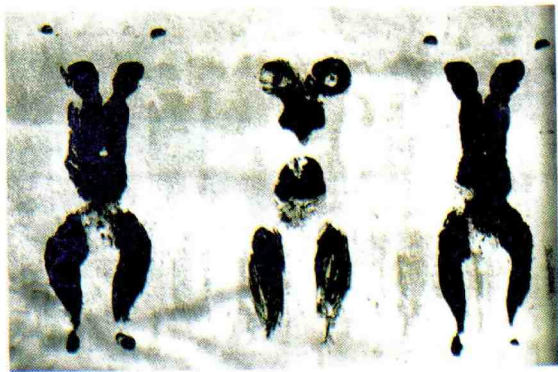
هانز هارتونج : تصوير ١٩٥٧



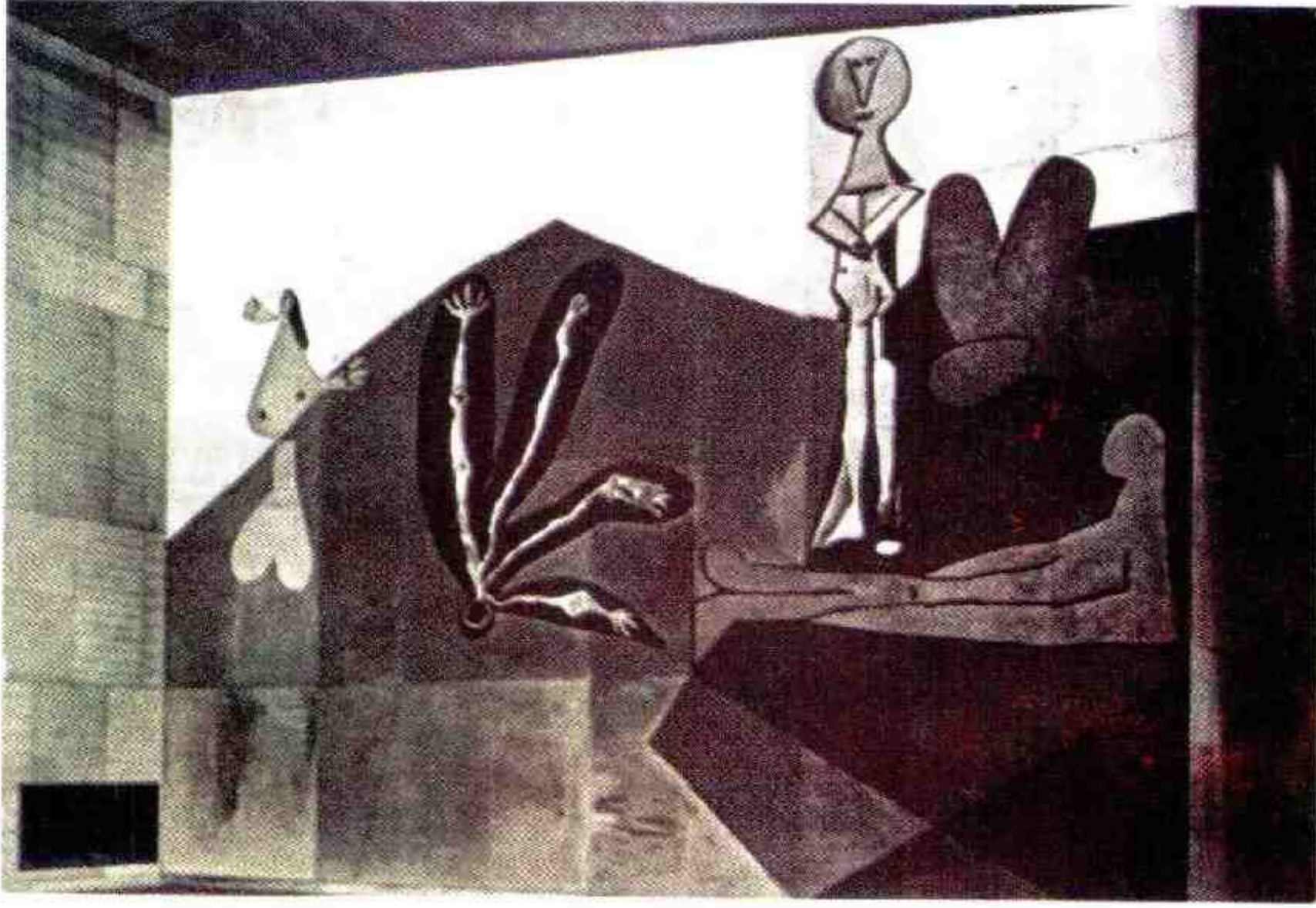
جورج ماثيو : ماري دي بربان - ١٩٥٣



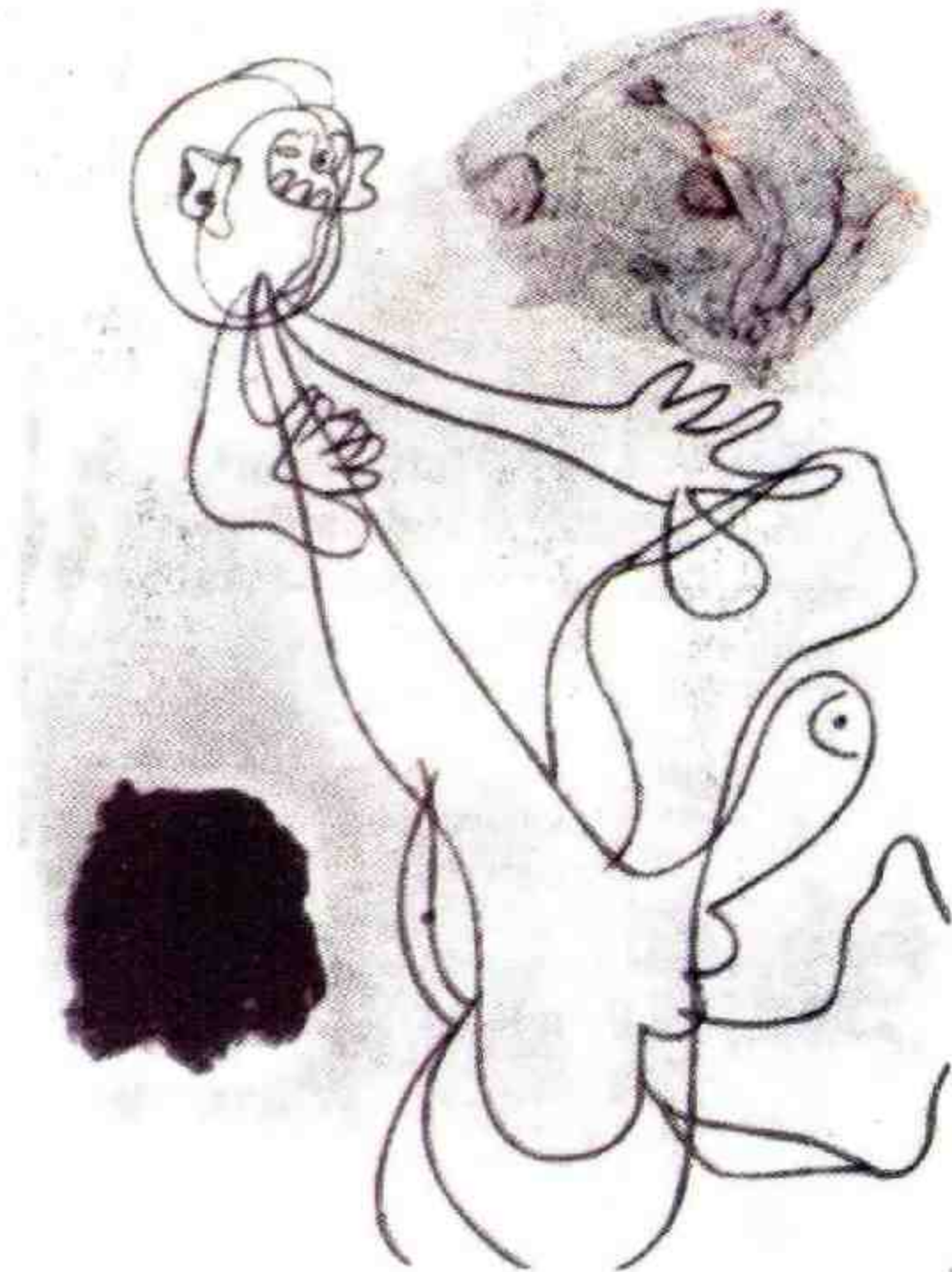
إيف كلاين : يلطخ الموديل العارية باللون الأزرق قبل أن يخلع ثيابه هو أيضاً ليلطخه بنفسه اللون الأزرق



إيف كلاين : إحدى لوحات مجموعة "القياس الإنساني" من المرحلة الزرقاء ١٩٦٠ (ولا نهاية للإسفاف والتدمير المتعمد للقيم الجمالية والإنسانية .. ترى هل صدق من وصف هذا الفن بأنه "فن داعر" ؟ !)



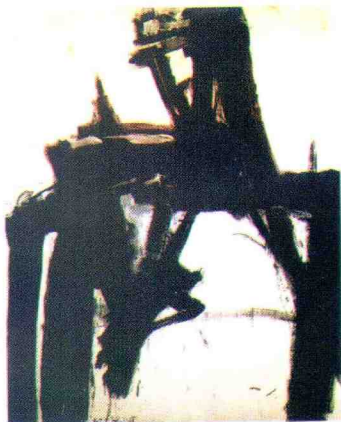
اللوحة الجدارية التي تمثل واجهة مبنى اليونسكو بباريس وتبلغ مساحتها مائة متر مربع ، والتي قال عنها جازافا : " أنها عبارة عن عمالية نصب عن طريق الاستسهال !



خوان ميرو :
"الرجل ذو الورقة الحريرية"
(وهي ورقة تواليت فعلية تم
استخدامها وبروزتها ملوثة !!)



بيير موندرينج : تصوير - ١٩٥١



فرانز كلين : من غير عنوان - ١٩٥٧



جون فرانكلين كوخ :
ياخ ياخ ١٩٧٠



ويلم دي كونينج :
من غير عنوان - ١٩٦٧



فرانك كوبيكا : تتابع بلونين ١٩١٢



أوتو فروندليخ : من غير عنوان ١٩٣٨



جان بازين : تكوين - ١٩٥٦



ستانتون ماكdonلد-رايت :

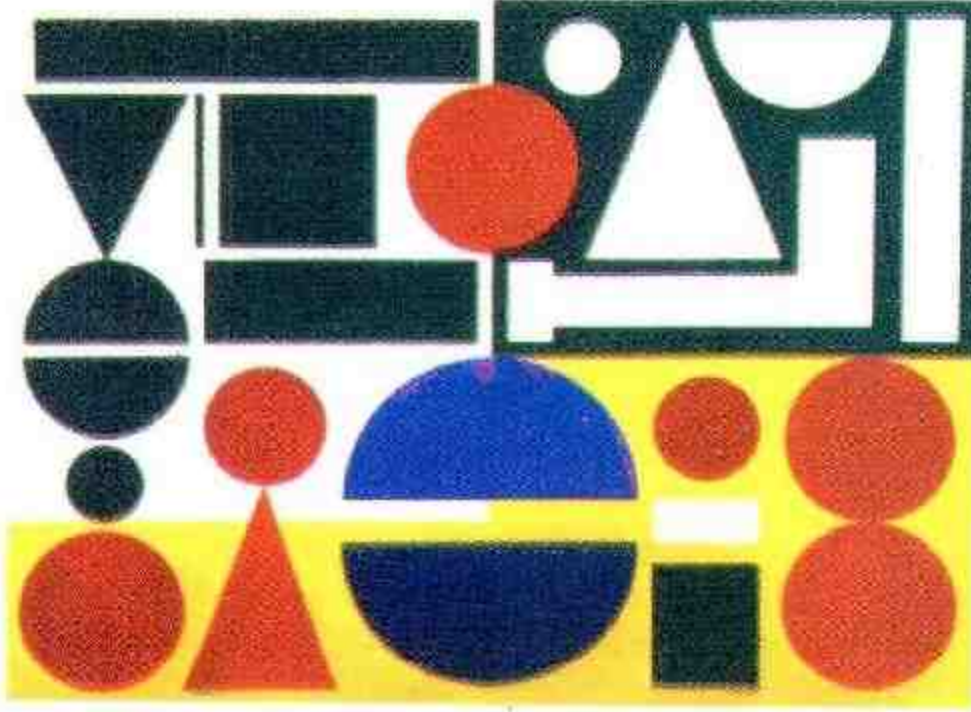
جريد ابتداء من الطيف ١٩١٤



خوان ميرو : مهرجان المهرج ١٩٢٥



فاسيلي كاندينسكي :
أزرق سماوى ١٩٤٠



أوجست هربين : يوم الجمعة ١٩٥١
٩٦ x ١٢٩ سم

(أشكال هندسية أشبه ماتكون بإشارات المرور
ولا علاقة لها بالعنوان الذي تحمله..)



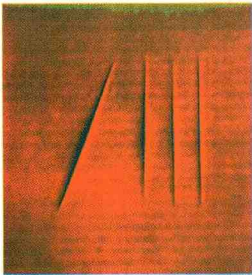
فاسيلي كاندينسكي : توتر مقاوم ١٩٣١



ألبرتو بورى : احتراق وبلاستيك
(نموذج من استخدام مواد
وتقنيات لا علاقة لها بفن
التصوير)



سيرزار : تريسيسكل مضغوط-١٩٧٠
(ضغط مُوجّه لتريسيسكل . وترك للقارئ
مهمة البحث عما به من جمال وإبداع .
أو عما في تمزيق اللوحة من عبقرية . أو
عما في حرق اللوحة أو خرقها!)



لوتشيو فوتانا : مفهوم فضائي - ١٩٦٤



دانييل سبيوري : إستيقاظ الأسد - ١٩٦١
(ولا ندرى أيهما الأسد الحذاء أم "القصرية" !!!)



إيتيين مارتان : الرداء - ١٩٦٢
١٦٠ x ٢٠٠ سم
(نماذج من استخدام مادة الخيش والحبال ، ولانملك إلا أن نتساءل عن
صلتها بفن التصوير!)



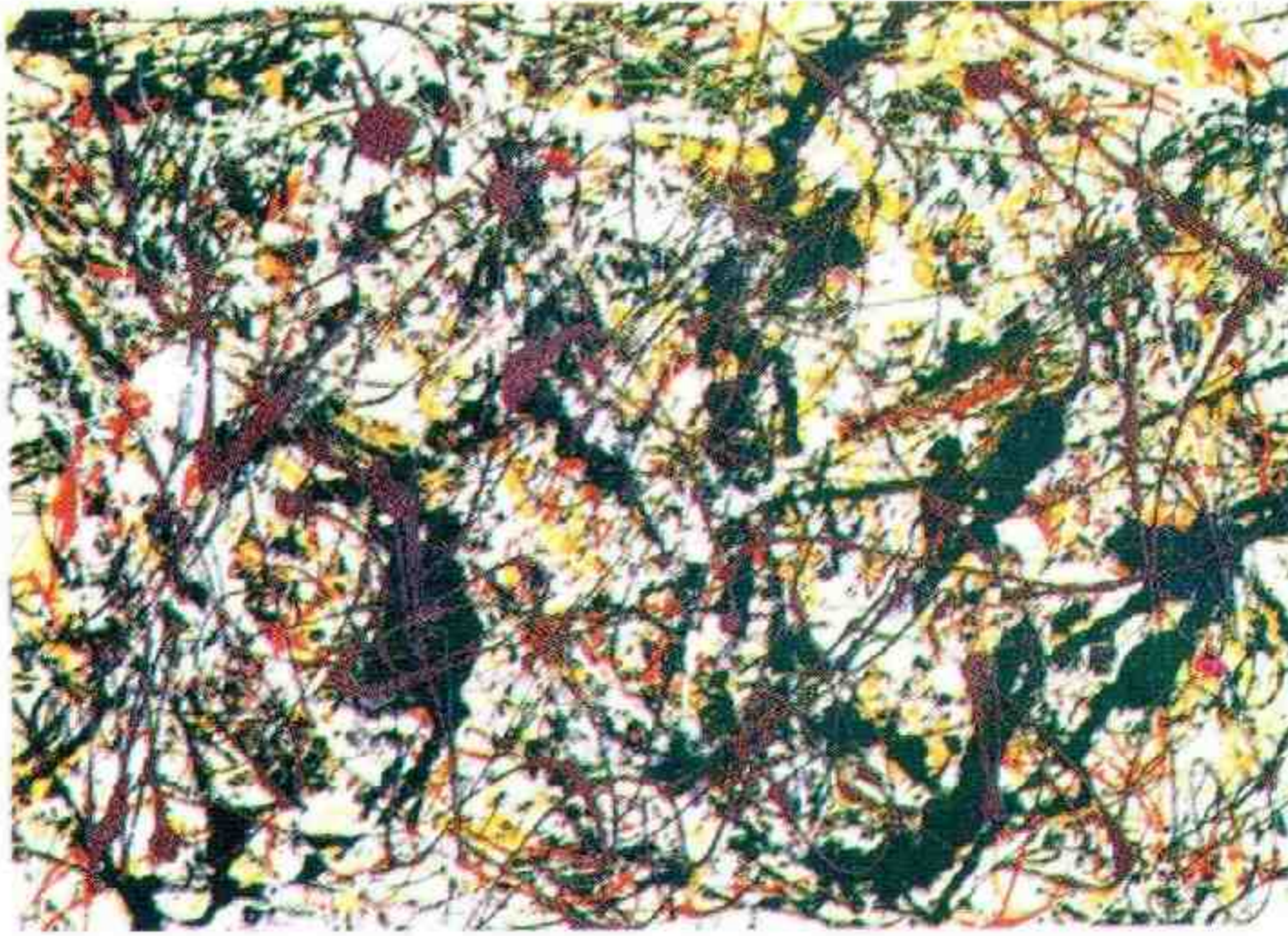
جان - ميشيل أطلان :
الحداثة - ١٩٤٥



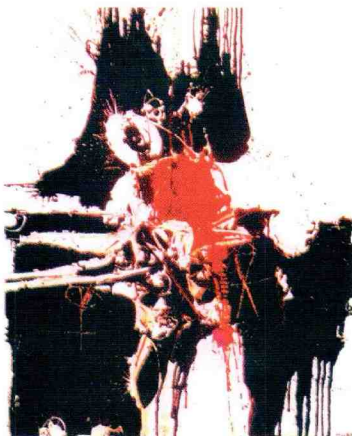
كاريل آيل :
طائر - ١٩٥١



إيثل كلاين : "مقياس انساني"
رقم ١٣ - ١٩٦٠



جاكسون بولوك : فضاء على أسود وأبيض وأصفر وأحمر ١٩٤٨



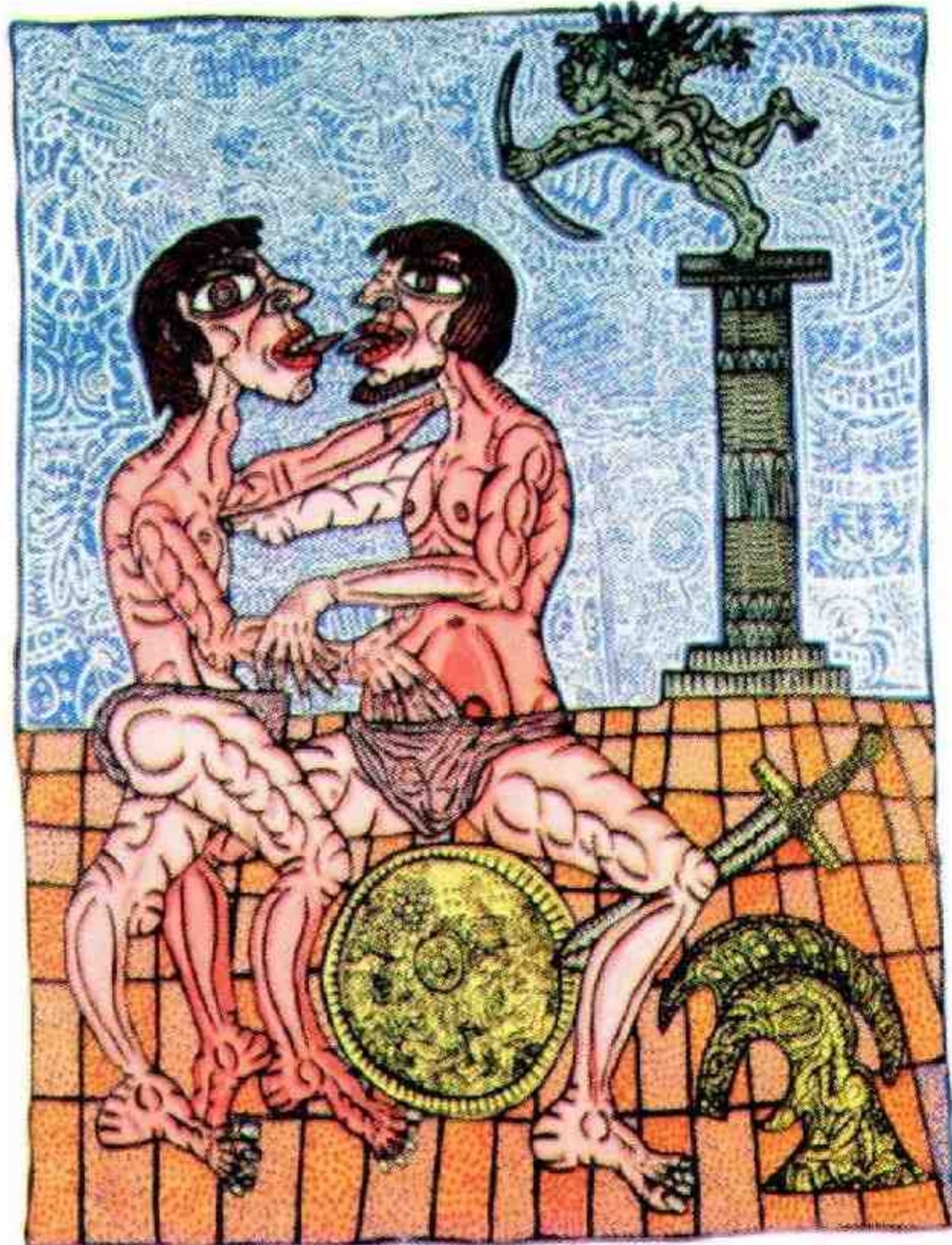
مانولو ميللارس : بروزاز ٦٦ - ١٩٦٦



سام فرنسيس : بريق إلي الخلف ١٩٥٨
٢٠١ x ١٣٤ سم



فرانسيس بيكون : الرجل والمرحاض - ١٩٧٣
(تري ماهي القيمة "الجمالية" في مثل هذا
الموضوع الذي استوحى منه الفنان معرضا
بأسره والمضحك /المؤسف أن تكون اللوحة
الواحدة مقاس ١٩٨ x ١٥٧,٥ اسم !؟)



روبير كومبا :
آشيل وپاتروكل - ١٩٨٨
(تري ماوجه الجمال في هذا
الشذوذ الجنسي، إن لم تكن
الرغبة في فرضه قهرا حتى
يألفه الناس ؟ وياله من
انحطاط ..)



خوان ميرو : صراع ثيران - ١٩٤٥



بيكاسو : المتبولة - ١٩٦٥

١٩٥ x ٩٧ سم

(أمن ضرورة للتعليق على مثل هذا

الاسفاف؟ وبالعظمة ماكتبه بعض

المادحين الأجراء



ويلم دي كوننج : امرأة ١٩٥٢
١٩٣ x ١٤٧,٣ سم



بينكاسو : رجل جالس.
٨٠,٥ x ٩٩,٥ سم

لعبة الفن الحديث

فى بادرة هى الأولى من نوعها آنذاك ،
قامت الدكتوراة زينب عيد العزيز ، عام
١٩٨٤ ، بعمل دراسة تحليلية لظاهرة الفن
الحديث وخلفياتها التى تم التتبعيم عليها
وفرضها بدأب غريب ..

وتوالت الأحداث السياسية والاقتصادية
والعسكرية والفنية الفكرية الانحلالية بما
يؤكد كل ما ورد من حقائق وقضايا
مطروحة فى هذا البحث ، وأهمها أن الفن
الحديث ، بكل عيبياته المعاشة ، يمثل أداة
تدمير متعمدة لاقتلاع الحضارة والتراث
والثقافة الخاصة بكل بلد ، كجزء لا يتجزأ
من مخطط العولمة وعملية فرض النمط
الواحد والتبعية الإجبارية وكل ما تحركه
المصالح الصهيونية-الماسونية والدور
الغاشم الذى تقوم به السياسة الأمريكية
ومؤسساتها فى محاولتها المستميتة لا لتنجير
الفن فحسب ، وإنما لتنجير العالم برمته
ولإخضاعه لسيطرتها العمياء الأنانية
ولأنماطها المسموخة الماجنة ..